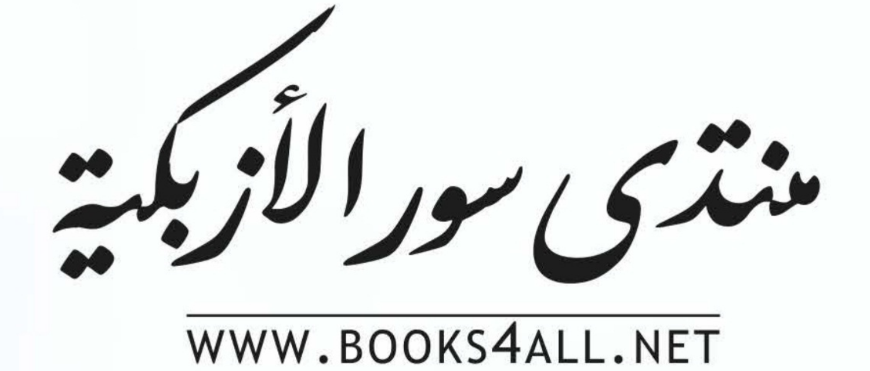
عباقرة كردستان

في القيادة والسياسة

الدكتور

أحمد الخليل


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

عباقــرة كردسـتان

في القيادة والسياسة

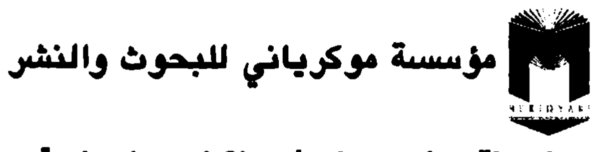
عباقـــرة كردســـتان

في القيادة والسياسة

الدكتور

أحمد الخليل





- **عباقرة كردستان في القيادة والسياسة**

- المؤلف: د. أحمد الخليل
- تصميم الداخلي: گوران جمال رواندزى
- الغلاف: مراد بهرامیان
- رقم الايداع: ١٨٢٣
- السعر: ٢٠٠٠ دينار
- الطبع الاولى ٢٠٠٩
- العدد: ٥٠٠
- المطبعة: مطبعة خاني (دهوك)

تسلسل الكتاب (٣٧٦)

ماڵپەڕ: www.mukiryani.com

ئیمەیل: info@mukiryani.com

إهـــــداء ...

إلى روح دياكو الميدي

وبدرخـان بك ..... وشيـخ عبيد الله النهري

وشيـخ محمود الحفيد .... وشيـخ سعيد بيران

وقاضي محمد ....

وإلى جميع قادة ثورات كردستان

أهدي هذا الكتاب.

فهرس

مقدمة
التأريخ مقدسات

قراءة التاريخ ليست ترفاً، وإنما هي مسؤولية جليلة.

إنها مسؤولية أخلاقية أولاً، فلا ينبغي أن نحرّف الكلام عن مواضعه، ويجب أن نقدّم الحدث كما هو، بحلوه ومرّه، ولا نخرج من دائرة الصراحة والصدق إلى دائرة النفاق والبهتان.

وهي مسؤولية علمية ثانياً، فلا ينبغي أن تُخرجنا العصبية من دائرة الأمانة العلمية إلى دائرة الاختلاق، ومن الموضوعية إلى الانجراف مع الأهواء، إذ بقدر ما نلتزم الحقيقة نكون أقوياء، وبقدر ما نتجاهلها نكون ضعفاء.

وهي مسؤولية إنسانية ثالثاً، فاستعراض الأحداث على حقيقتها مصلحة بشرية عليا، ولا يجوز أن نغرق في انتماءاتنا القومية والدينية مهما كنا فخورين بها، ولا ينبغي أن نرفع من شأن قوم إلى أعلى علّيين، وننحدر بآخرين إلى أسفل السافلين، طمعاً في مَغنم، أو تهرّباً من مَغرم.

وباختصار ينبغي أن نقرأ التاريخ بجرأة، ونكتبه بشرف، ونعرضه بنبل.

والمؤسف أنه في شرقي المتوسط قلما يُقرأ التاريخ برصانة، ويُعرض بموضوعية، إن النوايا المبيَّتة تسطو عليه، فتزيح ما هو حقيقي ومشترك، وتُحلّ محلّه ما هو مزيَّف وأناني، ولا تكون النتيجة إلا مرارات وخلافات وخصومات.

بلى، إن التأريخ ليست خياماً نقتلعها ساعة نشاء، ولا هي نزوات وعنعنات، التواريخ بصمات مطبوعة على جباهنا وفي مآقينا، التواريخ ذاكرات وذكريات، التواريخ جينات وهويّات وتجسّدات، ولنا أن نلعب بما نشاء، ونلغو كما نشاء، ونهفو كما نشاء، إلا أنّ تأريخ الشعوب.. فإنها من المقدسات.

الكرد، والعرب، والفرس، والأرمن، والسريان، والكلدان، والآشوريون، والمندائيون، والمارونيون، والترك جميعهم شعوب الشرق الأوسط منذ آلاف السنين، هنا تجاوروا وتخاصموا أحياناً، لكنهم فيه

تفاعلوا وتكاملوا أحياناً كثيرة أيضاً، وتبادلوا الأدوار شعباً تلو شعب، تارة كانت الريادة لهذا، وتارة كانت لذاك، ومن العدل أن تُحفظ لكل شعب مناقبه، وأن تُنسب إليه مآثره.

شعوب هذا الشرق ينبغي أن تعيش متآلفة متكاملة، وتلك هي مسؤوليتنا نحن مثقفي هذه الشعوب، ومن النبل أن نتحمّلها بوعي، ونباشرها بحكمة، فنعيد قراءة تأريخنا بعمق، ونسردها على الأجيال بصدق، ونعطي كل ذي حق حقه، بلا ضرر ولا ضِرار، ونرسم لكلٍ ملامحه بلا تقزيم ولا تضخيم.

ومن يقم في عصرنا هذا باستعراض مكوّنات مكتبة الشرق متوسطية يجد فيها حضوراً قوياً لإخوتنا العرب والترك والفرس والأرمن، وتقع تحت يده آلاف الكتب والدراسات التي تتناول تراثهم وأعلامهم، وهذا أمر طبيعي، فهذه الشعوب تنعم بكيانات سياسية خاصة، ولها مؤسساتها التعليمية والأكاديمية التي تهيّئ المُناخ لتنشيط الاهتمام بالتراث القومي، والإعلان عنه.

أما التراث الكردي وأعلام الكرد فلا نجد عنهما، في مكتبة الشرق أوسطية، إلا القليل، ولم ينج ذلك القليل من البتر والتشويه والتزييف أحياناً، ولا ريب أن سياسات اتفاقية (سايكس — بيكو)، إضافة إلى السياسات الإقليمية الجائرة، أدّت مع بداية القرن العشرين إلى حرمان الكرد من إقامة كيان سياسي في وطنهم التاريخي كردستان، ونتيجة لذلك حُرموا من أية إمكانية وأية فرصة لمعرفة تراثهم القومي، وتعريف الآخرين به.

والتزاماً مني بمسؤوليتي الثقافية تجاه أجيال الشرق الأوسط أقدّم سلسلة (عباقرة كردستان)، ليس تكريساً للعنجهية القومية، ولا سعياً إلى الاستعلاء القومي، وإنما إظهاراً لحقائق غُيّبت، وتصحيحاً لمعلومات حُرّفت، وتأكيداً على أن الكرد ليسوا عالة على البيت الشرق الأوسط، وإنما هم مؤسسوا هذا البيت جغرافيا وتاريخاً وحضارةً، ولا بد أن يكون لهم دور في صياغة مستقبله.

وهذا هو الكتاب الأول في تلك السلسلة، وعنوانه (عباقرة كردستان في القيادة والسياسة)، وقد تناولت فيه سيرة خمسة عشر من السلاطين والملوك والوزراء الكرد، بدءاً من القرن السابع قبل الميلاد، إلى القرن التاسع عشر الميلادي، مع عرض موجز لما قاموا به، والنية قائمة على أن أستكمل العمل في هذا المجال إن شاء الله، وهو جزء من مشروع واسع يتعلق برصد أعلام الكرد في تراث شرقي المتوسط، وذكر إسهاماتهم في إغناء الحضارة الإنسانية.

واستقيت المعلومات المتعلقة بهؤلاء العباقرة من مصادر ومراجع مختلفة، بعضها قديم وبعضها حديث، وحرصت على توثيق المعلومات المستقاة، بذكر الجزء (إن وُجد) والصفحة، وكتبت قائمة بتلك المصادر والمراجع في نهاية ترجمة كل علم، وحرصت أيضاً على تأكيد ما يستحق التأكيد، وترجيح ما يحتمل الترجيح، واستبعاد ما يتعارض وحقائق التاريخ، إيماناً مني بأن المعلومة الصائبة هي الطريق القويم إلى المعرفة الدقيقة، والرؤية الرحيبة العميقة.

وآمل أن يكون هذا الكتاب جهداً متواضعاً وموجَّهاً لتحقيق أمرين:

- أولهما تعزيز ثقة شعب كردستان بنفسه، فهو لم يكن شعباً عقيماً، وقد أنجب كثيراً من العباقرة والمشاهير قديماً، رغم أن ظروفه التاريخية كانت صعبة، وهو قادر على أن ينجب عباقرة ومشاهير كثيرين الآن وفي المستقبل، ويسهم في إغناء الحضارة البشرية.
- وثانيهما إطلاع شعوب شرقي المتوسط من العرب والترك والفرس وغيرهم- ولا سيما المثقفين والساسة- على مساهمات شعب كردستان قديماً وحديثاً في بناء الصرح الحضاري لهذا البيت الكبير (شرق الأوسط)، ولفت انتباههم إلى الضرر الفادح الذي يصاب به مستقبل هذه المنطقة في غياب طاقات الكرد وقدراتهم، ووضعهم أمام مسؤولياتهم- وهي مسؤوليات تاريخية- في الوقوف إلى جانب الشعب الكردي، وفي معارضة المشاريع العنصرية الهادفة إلى تغييب ثقافته وقمع قدراته، والرامية إلى حرمانه من المساهمة في بناء مستقبل أجيال شعوب هذه المنطقة.

وأقول بصدق:

إن شرق أوسطاً بدون الكرد لن يكون مزدهراً.

بل إن شرق أوسطاً من غير كردستان مستقلة لن يكون مستقراً.

والله الموفق.

الأحد: ٢٧- ٥ – ٢٠٠٧ م

أحمد محمود الخليل

(١)

كي خسرو الميدي: محرر غربي آسيا

(توفي سنة ٥٩٣ ق.م)

جوهر التاريخ

يقوم التاريخ البشري على ركنين هما: الإنسان، والمكان.

وللتأكد من هذا الأمر لسنا بحاجة إلى استعراض النظريات، ولا إلى الغوص في الفلسفات، وإنما يكفي أن نحذف الإنسان وما قام به من أحداث، ونحذف المكان (الجغرافيا) الذي تفاعلت فيه تلك الأحداث، ثم نتساءل: ماذا يبقى من التاريخ البشري؟ لا شيء على الإطلاق.

وكانت مشكلة الإنسان الكبرى- وما زالت- هي الاحتفاظ بـ (البقاء) على النحو الأفضل، ولا مجال للاحتفاظ بـ (البقاء) على النحو الأفضل إلا بالسيطرة على (المكان) الأفضل، المكان الذي تتوافر فيه مقوّمات الحياة على النحو الأفضل، ويتيح الوصول إليها على النحو الأسهل، وبعبارة أخرى: إنه المكان الذي يضخ إلى المعدة قدراً كافياً من الغذاء.

ولنا أن نقول بطريقة أخرى: إن للإنسان مشروعاً وجودياً هو (البقاء)، وفرض عليه هذا المشروع مشروعاً من نوع آخر هو السيطرة على (المكان)، وعلى ضوء هذه الحقيقة لك أن تفسر أحداث التاريخ البشري قديمها وحديثها، صغيرها وكبيرها، ولك أيضاً أن تفسر على ضوئها كل ما في تاريخنا -- نحن البشر- من نشاطات حضارية، ومن أديان وفلسفات، وعلوم واختراعات، ومن علاقات وسياسات، ومن حروب واحتلالات.

وقد ثبت علمياً أن كوكب الأرض هو بيت البشرية، إليه تنتمي وفيه تنتهي، ولم تكن الأرض في غابر الأزمان على النحو الذي هي عليه الآن، وإنما مرت بأحوال مناخية دورية سميت (العصور الجليدية)، فكان المناخ الجليدي يبدأ بالظهور، ثم يتنامى ويهيمن على المكان، ثم يبدأ الدفء بالظهور، ويشرع المناخ الجليدي بالانحسار نحو الشمال والجنوب، وفي كل عصر جليدي كانت الكائنات أمام أحد مصيرين: أما التي امتلكت القدرة على التأقلم مع التبدلات المناخية فاحتفظت بـ (البقاء)، وأما التي افتقرت إلى تلك القدرة فكان نصيبها (الفناء).

ولم تكن التبدلات المناخية الدورية وحدها هي المؤثرة في مصير الكائنات، وإنما كان للأزمات المناخية الطارئة أيضاً تأثيرها الشديد في هذا المجال، ومنها الزلازل والبراكين والأوبئة والتصحر، وكنا نحن البشر من الكائنات القليلة التي امتلكت خاصية التأقلم مع الحالين، أقصد التبدلات المناخية الدورية، والأزمات المناخية الطارئة وكانت عملية الهجرة (الهروب من المكان الطارد، واللجوء إلى المكان الواعد) هي التي توصلنا معظم الأحيان إلى بر الأمان، وتتيح لنا الاحتفاظ بمشروع (البقاء).

هجرات الآريين

يقدّر المختصون أن الجنس البشري ظهر منذ حوالي مليون سنة، وقد تجعل الاكتشافات العلمية هذا الرقم يتغيّر صعوداً أو هبوطاً، ولا مشكلة في ذلك، فهو لا يفقدنا حق الوقوف عند السؤال الآتي: كم من السلالات البشرية ظلت محتفظة، على الدوام، بالمكان الذي ظهرت فيه أول مرة؟ إنها تكاد تكون محدودة جداً، هذا إذا لم تكن معدومة، فقد كانت السلالات مضطرة إلى الانزياح عبر المكان (الجغرافيا)، ومع تكاثر البشر في نطاق جغرافي معيّن أخذ الانزياح صورة (الانتشار)، ومع تنافس المجموعات البشرية على (المكان) الأفضل، أخذ الانزياح صورة (الاحتلال).

وقد قسّم المؤرخون شعوب العالم إلى مجموعات عرقية كبرى، أهمها: الشعوب الهندو-أوربية، والسامية، والحامية، والأورال ألطائية، وأعراق جنوب شرقي آسيا، والإسكيمو. وذكروا أن الشعوب الهندو-أوربية تضم الأوربيين والأمريكيين، والسلاف، والأرمن، والفرس، والكرد، وآخرين، ويطلقون على هذه المجموعة اسم (الآرين) أيضاً.

وجاء في كتاب (انتصار الحضارة) للمؤرخ جيمس هنري برستد، أن مصطلح (الآرين) يطلق على الفرع الشرقي من الشعوب الهندو-أوربية، وهم: الأرمن، والفرس، والميد (مَن أجداد الكرد)، ومن استقر في أفغانستان والهند. أما الأوربيون والأمريكيون فهم من الفرع الغربي، أي أن الآرين هم أبناء عمومة الأوربيين، وليسوا أجدادهم.

ويتفق معظم المتخصصين في التاريخ القديم، وفي علم السلالات، أن وسط آسيا كان المهد الأصلي للشعوب الآرية، وقد اكتشف الأمير الروسي بيير كروبوتكين Pierre Kropotkine في سهول وسط آسيا غابات واسعة يابسة، واستدل منها على أن تلك المنطقة عانت من أزمة مناخية حادة خلال الألف الثالث قبل الميلاد، أي أن المكان أصبح معادياً وطارداً، ولم يعد يهيئ إمكانية البقاء على النحو الأفضل، وطبعاً كان الحل هو الانزياح إلى المكان الصديق الواعد، فتوجّه بعض الآرين جنوباً نحو شمالي شبه القارة الهندية، وتوجّه آخرون غرباً نحو غربي آسيا (الشرق الأدنى)، وتوجّه فريق ثالث شمالاً وغرباً نحو أوربا الشرقية فأوربا الغربية.

تنافس آري - سامي

مر أن بعض القبائل الآرية المتقاربة الأصل هاجرت، على دفعات، من وسط آسيا، واتجهت غرباً، ويرى بعض المؤرخين أن هجرات تلك القبائل بدأت منذ حوالي (٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق.م)، واستقرت في غربي الهضبة الإيرانية وجنوبها الغربي، وتحديداً في جبال زاغروس والمناطق المتاخمة لها، وقد ظهرت أخبارها في أزمنة متواكبة تارة، وفي أزمنة متلاحقة أحيانًا، وكان ذلك مرهوناً بالمرحلة التاريخية التي كان يلمع فيها اسم كل فرع سياسياً، فتشير إليه المدوّنات السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والحثية والمصرية.

وتمازجت تلك القبائل والفروع الآرية عبر القرون في مختلف مناطق كردستان الحالية، ولا سيما في الشرق والشمال والجنوب، ثم توحّدت سياسياً وحضارياً تحت راية الفروع البارزة التي أسّست دولاً قوية، مثل اللولو، والگوتيين، والكاشيين، والميتانيين (الحوريين)، والسوباريين، والنايري، والخالديين (الأورارتو).

وفي عهود القنص والرعي كانت السهوب وسفوح الجبال هي المكان (الجغرافيا) الأفضل لممارسة مشروع البقاء، لكن مع تزايد السكان، واكتشاف إمكانية إنبات البذور، والحصول منها على الغذاء الواجب ضخه إلى المعدة، انتقلت البشرية إلى العهد الزراعي، وأصبحت السهول وأحواض الأنهار هي الأمكنة الصديقة الواعدة.

ولذا أصبحت سهول جنوبي بلاد الرافدين- وهي متاخمة شرقاً لسفوح زاغروس، ومتاخمة غرباً وجنوباً لبلاد العرب- المكان الذي يستقطب الشعوب المجاورة، سواء أكانت شعوباً جبلية أم كانت شعوباً صحراوية، وكان السومريون أول شعب استقر هناك في الألف الثالث قبل الميلاد، وشيّد المدن، وأقام حضارة زراعية مزدهرة.

ويتفق المؤرخون على أن السومريين شعب آري، كما أنهم متفقون على أن هذا الشعب انحدر إلى بلاد الرافدين من الشمال والغرب، أي من المنطقة التي كان الشعب الكردي يقيم فيها، وما زال مقيماً فيها، وقد تكون للسومريين صلة قرابة إثنية بالشعب الكردي، نظراً لانتمائهما إلى بقعة جغرافية واحدة، ولما بين اللغتين السومرية والكردية من تشابه في بعض المفردات والصيغ، ومهما يكن فإن الدراسات الجادة كفيلة في المستقبل بالبتّ في هذا الموضوع.

وجدير بالذكر أن السومريين لم يستطيعوا الاحتفاظ طويلاً بمكانهم الواعد (جنوبي بلاد الرافدين)، فقد نافسهم أقاربهم الآريون قادمين من الاتجاه نفسه الذي قدم منه السومريون، وكان

الكوتيون أول أولئك الآريين، ثم تلاهم الآخرون. كما أن شبه الجزيرة العربية تحولت إلى صحراء منذ أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، وأصبحت مكاناً طارداً للبشر، فتوجه بعض سكانها الساميين شرقا وشمالاً نحو جنوبي بلاد الرافدين، حيث كان يقيم السومريون.

وكان الأكاديون أول الساميين الذين احتلوا بلاد سومر، ففي نحو عام (٢٣٠٠ ق.م) استولى أحد زعماء الأكاديين، وهو سرجون، على السلطة في سومر، وأسس السلالة الأكادية السامية، ثم تلاهم أقاربهم البابليون، إذ سيطر حمورابي البابلي على بلاد ما بين النهرين حوالي سنة (١٧٨٧ ق.م)، وأخضع سومر جنوباً وآشور شمالاً، وكان الآشوريون قد توافدوا من الشمال أو من الغرب، وثمة خلاف في أصلهم ما بين آري وسامي، ثم سيطر الآشوريون على الموقف في غربي آسيا من حوالي (١٣٦٠ ق.م) إلى سنة (٦١٢ ق.م).

وجملة القول أن المناطق السهلية المتاخمة لجبال زاغروس شرقاً، ولبلاد العرب غرباً، أصبحت منطقة تنافس وصراع بين السلالتين الآرية والسامية من جانب، كما أنها كانت في الوقت نفسه ساحة تنافس داخلي بين فروع كل سلالة من السلالتين، ومع القرن الثامن قبل الميلاد انكشف الموقف في تلك المنطقة عن قوتين متنافستين: قوة آشورية إمبراطورية مهيمنة ذات ثقافة سامية، وقوة ميدية ناهضة ذات ثقافة آرية.

وكان قائد القوة الميدية هو كي خسرو.

وهو الذي قاد الميديين إلى الانتصار على الإمبراطورية الآشورية.

فمن هو هذا الرجل؟ وماذا عن إنجازاته القيادية؟

الآشوريون والميديون

ميديا هي المنطقة التي استقرت فيها القبيلة الآرية الكبيرة (ماداي)، أو (مادي) Madai، ويستفاد من الدراسات الدائرة حول الميديين أن قدومهم إلى كردستان، شرقاً وشمالاً وجنوباً، بدأ منذ حوالي سنة (١١٠٠ ق.م)، وكانوا يتألفون من اتحاد ستة بطون هي: Boussi, Paretaknoi, Strounate, Arizantoi Bodloi, Magoi، وكانت اللغة الميدية مشتركة بين بطون هذا الاتحاد القبلي، وذكر أرشاك سافراستيان في كتابه (الكرد وكردستان) أن گوتيوم نفسها سمّيت بعدئذ ميديا، وهذا يعني حسب رأيه أن ميديا هي امتداد جغرافي وتاريخي وثقافي لگوتيوم، وهذا ممكن جداً.

وفي ذلك العهد كان الآشوريون يشكّلون القوة الضاربة في غربي آسيا، ويعملون لتكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء، فكان عليهم والحال هذه أن يسيطروا على جبال زاغروس، والمناطق المتاخمة لها، وبعبارة أخرى كان عليهم غزو بلاد ميديا، وفرض سيطرتهم عليها، وإلا فلن يكون في إمكانهم التواصل شرقاً مع آسيا الوسطى، ولا شمالاً مع المناطق المتاخمة للقوقاز، وهل ثمة إمبراطورية تقبل أن تكون مكتوفة اليدين؟

أجل، كانت الإمبراطورية الآشورية هي القوة الإقليمية الأعظم آنذاك في غربي آسيا، وكان يحكمها ملوك شرسون ذوو طموحات فتوحاتية كبيرة، وكان أولئك الملوك قد أعدّوا جيشاً قوياً، يمتاز بسرعة الحركة، وشدة الانضباط، إضافة إلى شدّة المراس والرغبة العارمة في البطش والتدمير، وأفلح ملوك آشور في إقامة إمبراطورية ضمت إيران وأذربيجان وأرمينيا وكردستان والعراق وسوريا وليديا (غربي تركيا)، بل امتدت في وقت من الأوقات إلى مصر جنوباً.

وحصل أول اتصال بين الميد والآشوريين سنة (٨٣٥ ق.م)، أو في سنة (٨٣٧ ق.م) حسبما ذكر ديورانت، وتحديداً في عهد شلما نصر الثالث، وكان الآشوريون في خصام دائم مع الميديين، وحقّقوا بعض الانتصارات عليهم، لكنهم عجزوا عن فرض سلطة فعلية عليهم، لقد حاربهم كل من شلما نصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٨ ق.م)، وشمشي أدد الخامس (٨٢١ - ٨١٠ ق.م)، وتيجلات بلاسر الثالث (٧٤٧ - ٧٢٨ ق.م)، وسرجون الثالث (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) الذي تمكن من أسر الملك الميدي دياكو سنة (٧١٥ ق.م)، كما حاربهم أسرحدون (٦٨٩ - ٦٦٨ ق.م) وآخرون.

على أن الميديين لم يرضخوا للسلطة الاشورية بشكل مطلق، وكانوا يتحيّنون كل فرصة ممكنة للخلاص من سيطرة الإمبراطورية الآشورية، وقام الملوك الآشوريون من جانبهم بشنّ الحملات المتتالية على مناطق الميديين ومعاقلهم، وأنزلوا بهم أفدح الخسائر، ودمّروا مدنهم وقراهم، وأجبروهم أحيانًا على الهجرة إلى مناطق نائية.

ومثال ذلك أن تجلات بلاسر الثالث (٧٤٧ - ٧٢٨ ق.م)، جلب خمسة وستين ألف أسير ميدي، وأسكنهم في منطقة ديالى، وقام بتهجير جماعات من شعب لولو (في جبال زغروس)، وجماعات من شعب نايري (قرب بحيرة وان)، إلى سوريا، وأسكنهم في المنطقة الواقعة بين مدينة (حماه) السورية والبحر الأبيض المتوسط.

نهوض ميديا

ثمة اتفاق بين المؤرخين على سير الأحداث المتعلقة بالميديين، لكن هناك خلاف واضح في تحديد تأريخ تلك الأحداث، وهذه ظاهرة غريبة لا نجدها بهذه الحدّة حينما يكون الأمر متعلقاً بأحداث الآشوريين والأخمين مثلاً، وأحسب أن السبب في ذلك هو التغييب المتعمد الذي قام به الفرس الأخميين إزاء كل ما يتعلق بالشأن الميدي، فبعد أن سيطروا على الدولة الميدية، وورثوا الإنجازات الميدية على الصعيد السياسي والحضاري العام، ونسبوها إلى أنفسهم، كان يهمهم جداً أن يزيلوا عن الوجود كل ذكر للميد، الأمر الذي أوقع المؤرخين في الاضطراب.

وما يهمنا في الدرجة الأولى هو سير الأحداث وتسلسلها.

فقد أدرك الميديون أنهم لن يستطيعوا الوقوف في وجه الإمبراطورية الآشورية ما داموا متفرقين، وأن وحدة الصف وتوحيد الجهود هما السبيل إلى الخلاص، وقد تأكد عبر التاريخ إن إرادة الشعوب في الحرية تفرز القائد الذي يجسّد تلك الإرادة، وهذا ما أسفرت عنه إرادة الشعب الميدي في التحرر، فقد برز من بينهم قائد جسور يدعى دياكو Deioces ، ويسمى ديوكو Dioku أيضاً، ويسمى في بعض المصادر اليونانية ديوسيس.

وحكم دياكو ميديا حوالي ثلاثة وخمسين عاماً، بين سنتي (٧٢٧ – ٦٧٥ ق.م)، أو بين سنتي (٧٠٨ – ٦٥٥ ق.م)، وتتمثل عبقرية هذا الزعيم في أنه انتقل باتحاد القبائل الميدية من حالة الانتماء إلى (القبيلة) إلى حالة الانتماء إلى (الأمة)، ومن نظام القبيلة إلى نظام الدولة، فاتخذ مدينة إكباتانا عاصمة للتكوين السياسي الجديد، وسميت بعدئذ آمدان (هَمَذان)، ومعنى اسمها (ملتقى الطرق الكثيرة) أو (مجلس الاجتماع)، وسماها الآشوريون (بيت دياكو)، وبنى الزعيم في العاصمة قصراً ملكياً فخماً، مؤكداً بذلك لشعبه وللجيران الإقليميين أنه ليس شيخ قبيلة، وإنما هو قائد أمة.

وبعد هذه الترتيبات الداخلية توجّه دياكو إلى النشاط على الصعيد الإقليمي، فعقد تحالفاً مع دولة أورارتو على التخوم الشمالية لبلاده، وبعد أن وضع الأمور في نصابها داخلياً وخارجياً ثار على السلطات الآشورية، بغية الاستقلال عنها، لكن الملك الآشوري سرجون حطّم الحلف الميدي الأورارتي، وقضى على الثورة، وأسر دياكو، ونفاه إلى حماه في سوريا.

وبعد فترة من الوقت أفرج الآشوريون عن دياكو، وعاد إلى موطنه ميديا، ولا توجد أخبار عن نشاطه بَعد الإفراج عنه، ولا ريب أنه اضطر إلى التبعية للسلطات الآشورية، ويفهم مما ذكره

جيمس هنري برستد وغيره أن الشعب الميدي لم يفقد كل مكانته، وإنما ظل قوياً في مواقعه الحصينة، بل إن الدولة الميدية كانت تعدّ سنة (٦٥٠ ق.م) من الدول الكبرى في عالم ذلك العصر، مثل ميتانيا وأورارتو وعيلام وهذا يعني أن الآشوريين لم يستطيعوا القضاء على الدولة الميدية الناشئة، وإنما أفلحوا في الحد من تهديدها لهم.

وبعد دياكو تولى الحكم ابنه فراورتيس Phraortes، ويقال له (خشاثريتا) khshathrita أيضاً، وقد حكم بين (٦٧٤ - ٦٥٣ ق.م)، أو بين (٦٥٥ – ٦٣٣ ق.م)، وامتاز هذا الزعيم بدرجة رفيعة من الحنكة، فاستطاع معها أن يوحّد القبائل الميدية، ويؤسس حكومة مستقلة في ميديا، ويُخضع لسلطانه بعض القبائل الآريانية، وأهمها السميريون (الكيميريون) Cimmerians والسكيث Scythians، كما أنه جعل القبائل الفارسية تابعة لميديا.

وقد بلغ هذا الزعيم الميدي مكانة مرموقة في عصره، حتى إن الملك الآشوري أسرحدون شرع يخطب ودّه، وبلغت الجرأة بهذا الزعيم أنه هاجم العاصمة الآشورية نينوى، لكن السكْيث- وكانوا قد تحالفوا مع الآشوريين- هاجموه من الخلف، فباءت محاولته بالفشل، ولم يكتف السكيث بذلك، بل هاجموا ميديا بعد وفاة فراورتيس سنة (٦٥٣ ق.م)، وبسطوا سيطرتهم عليها في الفترة بين عامي (٦٥٣ - ٦٢٥ ق.م)

كي خسرو مخططا

بعد أن حكم فراورتيس حوالي (٢٢) عاماً خلفه على الحكم ابنه كي أخسار Cyaxares أو كَيْ خُسْرو kai-Khosru، -حكم بين (٦٣٣ – ٥٨٤ ق.م)، أو بين (٦٢٥ – ٥٩٣ ق.م)- ويسمى في بعض المصادر (اكسركيس) و(سياشاريس)، ويعود الاختلاف في اسمه إلى الجهة التي ذكرته، سواء أكانت بابلية، أم آشورية، أم يونانية، أم فارسية، أم أرمنية، أم سريانية، أم عربية، وهذا أمر معروف في الأسماء عندما تنتقل من لغة إلى لغة.

ولا أستبعد أن يكون اسم كي خسرو الحقيقي هو (كي خاشْ رُو)، أي (الملك السعيد) أو (الملك الخالد)، باعتبار أن كلمة (كي) تعني (الملك)، و(خاش) تعني (الطيب، السعيد، الحيّ)، وكثيراً ما يحل كل من حرفي (س، ش) محل الآخر حينما تنتقل الكلمة من لغة إلى لغة، ومثال ذلك تحوّل كلمة (شاهبور) الفارسية إلى (سابور) في اللغة العربية.

وكي خسرو هو أعظم ملوك ميديا، إنه ورث عن أبيه فراورتيس خصالاً قيادية متميزة، فكان قائداً محنّكاً حازماً، ورجل دولة عظيماً، كما أنه نذر نفسه لاستكمال المشروع التحرري الميدي الذي بدأ على يدي دياكو، ويكفيه عبقرية أنه وقف في وجه الإمبراطورية الآشورية، وكانت أعتى قوة سياسية وعسكرية في غربي آسيا، فألحق بها الهزيمة، وقذف بها إلى خارج التاريخ دفعة واحدة.

وتميّز كي خسرو برؤية إستراتيجية رحيبة، وبحس سياسي واقعي، وخصال قيادية نادرة، كما أنه كان توّاقاً إلى تحرير ميديا وشعوب غربي آسيا من عسف الحكم الآشوري، وكي يحقق هذا الهدف الكبير قام بإنجازات ثلاثة مهمات، لولاها لما حقق أي نجاح.

● **الإنجاز الأول:** قيامه بتوحيد القبائل الميدية تحت لواء واحد، ووضعها أمام هدف واحد، يتمثل في الخلاص من التبعية للآشوريين، فأسكن القبائل الرحّالة، ونظّم شؤونهم، وسنّ القوانين، ونظّم الجيش على أسس حديثة، مقتبساً بعض أساليب السكيث في القتال، مثل سرعة الحركة والمناورة، وأحدث خيّالة سريعة الحركة، وميّز رماة السهام عن الفرسان، كما جعل (إكباتانا) عاصمته الدائمة.

● **الإنجاز الثاني:** هو قيامه بالقضاء على الخطر السكيثي، وصحيح أنه أفلح في تقليم أظافر الغزاة السكيث، ويبدو أن الفريقين كانا قد عقدا معاهدة فيما بينهما، لكنه كان يدرك أن السكيث يمكن أن يهددوا الدولة الميدية عند أول فرصة سانحة، وأنهم لن يترددوا في طعن الميديين في الظهر، وهذا ما فعلوه أكثر من مرة في عهود سابقة.

ففي نحو سنة (٦٣٤ ق.م) هاجم الميديون آشور، لكنهم فشلوا في إسقاطها حينذاك، وبعد نحو سنتين هاجموها مرة ثانية، فهزموا الجيش الآشوري، ونازلوا العاصمة نينوى، لكن السكيث استغلوا انشغال القائد الميدي بالحرب ضد آشور، فهاجموا ميديا، وشرعوا يقتلون، وينشرون الدمار حيثما حلّوا، فاضطر الميديون إلى فك الحصار عن نينوى، والعودة بسرعة إلى ميديا، لرد الغزو السكيثي.

لذلك قرر كي خسرو ألا يدع للسكيث إمكانية عرقلة خطته ضد خصمه الأكبر (الإمبراطورية الآشورية)، وطعن ميديا من الخلف ثانية، فدعا قادتهم إلى حفل عامر بالأطعمة والأشربة المسكرة، ولما أكل القوم من الطعام ما طاب، وشربوا من الخمر ما لذ، وأصبحوا سكارى، أمر كي خسرو المقاتلين الميد بالانقضاض عليهم، والفتك بهم جميعاً، فبقي السكيث

من غير قيادة، وتضعضعت صفوفهم، وأصبح من السهل على الملك الميدي السيطرة عليهم، وكبح جماحهم.

- **الإنجاز الثالث:** قيامه بعقد تحالف بين ميديا وعيلام في الجنوب، وبين ميديا وبابل في الغرب، وكان تحالفه مع الملك البابلي نبوبولاصر هو الأهم إستراتيجياً، حتى إنه زوّج ابنته من نبوخذنصر بن نبوبولاصر، وكان نبوبولاصر والياً على بابل من قبل الملك الآشوري آشور بانيبال، لكنه كان يطمح إلى الاستقلال الكامل عن الدولة الآشورية، وبهذا التحالف لم يضم كي خسرو قوة جديدة إلى قوته فحسب، وإنما جرّد السلطة الآشورية من إمكانية تحشيد هذين الشعبين ضد الميديين.

كي خسرو محررا

وهكذا كان الزعيم الميدي على وعي تام بأن القضاء على قوة عظمى شرسة لا يكون إلا بقوة عظمى مماثلة، وكان يدرك أنه لا يكفي أن يكن القائد طموحاً، وإنما من الضروري أن يكون قادزاً على تجسيد ذلك الطموح في أهداف وخطط وبرامج قابلة للتنفيذ، وكان يعلم أيضاً أن أمة تعاني من خصومات داخلية، ومن تشرذم ثقافي وسياسي، ومن تعدد في مصادر صنع القرار، لا يمكن أن تحرر أرضاً أو تردّ عدواً.

بلى إن كي خسرو كان يدرك كل هذه الحقائق، وسلوكه القيادي وسياساته هي خير دليل على ذلك، كما أنه كان يعرف أن تهيئة المناخ الأقليمي لتحقيق الأهداف المرجوّة أمر لا بد منه، وبعد أن استكمل الاستعدادات العسكرية، وأنجز التحضيرات الخارجية عبر التحالفات، هاجم كي خسرو الدولة الآشورية سنة (٦١٥ ق.م)، واتخذ أرّابخا (كرخيني = كركوك) قاعدة لانطلاق أعماله الحربية، وزحف بجيشه على العاصمة نينوى، فقاومته مقاومة عنيفة.

لكن القائد الذي يطمح إلى تحرير أمته، وإنقاذها من الاحتلالات والهيمنة الخارجية، لا بد أن يكون مؤمناً بأهدافه، عنيداً في السعي إلى تحقيقها، لا يستسلم لليأس عند أول انتكاسة، وهكذا كان كي خسرو، إنه لم يركن إلى القعود، ولم يتخلّ عن الهدف، وإنما أعاد الكرة ثانية، وشن الهجوم على السلطة الآشورية في عقر دارها، وانضم إليه حليفه البابلي نبوبولاصر، وهاجم الحليفان العاصمة نينوى من جديد سنة (٦١٢ ق.م)، وبعد حرب طاحنة وحصار شديد، سقطت نينوى بين أيدي الميد والبابليين، وانسحب الملك الآشوري آشور أوباليت بفلول جيشه غرباً إلى مدينة حرّان (في شمال غربي كردستان حالياً).

وقام الجيش الميدي بمطاردة آشور أوباليت وجيشه في حران، وأنزل الهزيمة به سنة (٦١٠ ق.م)، وهكذا زالت من الوجود واحدة من أقوى الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، وأصبح غربي آسيا مقسّماً بين أربع دول كبرى، هي: الدولة الميدية، والدولة البابلية الحديثة، ودولة ليديا في آسيا الصغرى، والدولة المصرية.

وقال هيرودوت في تاريخه مشيداً بانتصار الميد على الآشوريين:

" شق الميديون عليهم عصا الطاعة، فحملوا السلاح في وجههم، وقاتلوهم ونزعوا عن أعناقهم نير العبودية، وباتوا أحراراً، وكانت تلك مأثرة اقتدت بهم فيها أمم أخرى قُيّض لها أن تستعيد استقلالها، وهكذا استفحل أمر الثورة، فكان أن نعمت الأمم في كل أرجاء تلك الأرض بنعمة الاستقلال في تصريف شؤونها ".

وقال النبي العبراني ناحوم (الأصحاح ٣، الآية ١٨، ١٩)، واصفاً أثر سقوط نينوى أمام الهجوم الميدي -البابلي، ومعبّراً عن ارتياح الشعوب التي كانت تخضع للآشوريين:

" نَعِست رعاتُك يا مَلِكَ أشور. اضطجعت عظماؤك. تشتّت شعبُك على الجبال ولا من يجمع. ليس جبرٌ لانكسارك. جرحُك عديم الشفاء. كلُّ الذين يسمعون خبرَك يصفّقون بأيديهم عليك، لأنه على من لم يمرّ شرُّكَ على الدوام ؟! ".

إن عبقرية كي خسروا لم تقتصر على إسقاط إمبراطورية كبرى قوية، ولم تنحصر في ميادين الحروب، وإنما تجلّت في ميادين الإدارة والسياسة، إذ أقام إمبراطورية كبرى، امتدت من أفغانستان ضمناً شرقاً إلى حدود ليديا غرباً (وسط تركيا حالياً)، ومن بحر قزوين والقوقاز شمالاً إلى مضيق هرمز في الخليج الفارسي (العربي) جنوباً، ويكون بذلك قد وحّد لأول مرة جميع الشعوب الآريانية في غربي آسيا، وضمها في دولة واحدة.

ورغم أن الغزاة السكيث فقدوا نصيراً كبيراً لهم بسقوط الإمبراطورية الآشورية، ورغم أن الملك الميدي كان قد قلّم أظافرهم، وأخضعهم لسلطته، لكنهم كانوا ينتهزون الفرص للانقلاب على الميديين ثانية، الأمر الذي جعل كي خسرو يهاجمهم، وينزل الهزيمة بهم، ففروا من وجهه غرباً، ولجأوا إلى مملكة ليديا المجاورة لمملكة ميديا غرباً، وكان الخط الفاصل بين حدود المملكتين هو نهر هاليس (قزيل إرماق).

وطالب كي خسرو ملك ليديا الياتس بتسليمه السكيث الفارين، لكن الملك الليدي رفض ذلك، فأعلنت ميديا الحرب على ليديا، وقاد كي خسرو جيشه نحو آسيا الصغرى، فاستعانت

ليديا بحلفائها من الفريجيين وغيرهم، واستعان كي خسرو بحليفه البابلي نبوبولاصر، ودامت الحرب بين الدولتين حوالي ست سنوات، دون أن يحقق فريق النصر الحاسم على الفريق الآخر، وصادف أن كسفت الشمس، وأظلم النهار، ففسر الفريقان ذلك بأنه غضب من الله، فتصالحا وتحالفا، وتزوّج استياجس بن كي خسرو من ابنة الياتس، وعلى الأرجح كان ذلك الحدث سنة (٥٩٧ ق.م).

وظل كي خسرو يحكم مملكته الشاسعة بمهارة واقتدار، إلى أن توفي سنة (٥٩٣ ق.م)، أو في سنة (٥٨٥ ق.م)، وخلفه على الحكم ابنه استياجس، وكانت نهاية الإمبراطورية الميدية على يد هذا الملك في سنة (٥٥٨ ق.م)، أو في سنة (٥٥٠ ق.م)، وكان الإقبال على الترف، والانشغال بالتنافسات الداخلية، هما العاملين الرئيسيين اللذين انتهيا بالميديين إلى ذلك المصير.

ميديا حضارياً

لقد ذكر ديورانت في (قصة الحضارة) أن قصر عمر الدولة الميدية لم يتح لها الإسهام في الحضارة بقسط كبير، لكنه أورد في الوقت نفسه إنجازات حضارية هامة قام بها الميديون، وأخذها عنهم الفرس الأخمينيون، وهي دليل على أن ما أنجزه الميد لم يكن قليلاً، قال ديورانت:

" وقد كانت هذه الفترة قصيرة الأجل، فلم تستطع لهذا السبب أن تسهم في الحضارة بقسط كبير، إذا استثنينا ما قامت به من تمهيد السبيل إلى ثقافة الفرس، فقد أخذ الفرس عن الميديين لغتهم الآرية، وحروفهم الهجائية التي تبلغ عددها ستة وثلاثين حرفاً، وهم الذين جعلوا الفرس يستبدلون في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين، ويستخدمون في العمارة العمد على نطاق واسع، وعنهم أخذوا قانونهم الأخلاقي الذي يوصيهم بالاقتصاد وحسن التدبير ما أمكنهم وقت السلم، وبالشجاعة التي لا حد لها في زمن الحرب، ودين زردشت وإلهيه أهورا مزدا وأهرمان، ونظام الأسرة الأبوي، وتعدد الزوجات، وطائفة من القوانين بينها وبين قوانينهم في عهد إمبراطوريتهم المتأخر من التماثل ما جعل دانيال يجمع بينهما في قوله المأثور عن (شريعة ميدي وفارس التي لا تنسخ). أما أدبهم وفنهم فلم يبق منهما لا حرف ولا حجر".

ويذكر المؤرخون أن الفرس اقتبسوا الخط المسماري من الميد، كما أن اللغة الأدبية الفارسية تأثّرت كثيراً باللغة الميدية، واتّبع الفرس النظام الإداري الذي كان قائماً في الإمبراطورية الميدية، ولبس معظم الفرس الملابس الميدية، وتحلّوا فيما بعد بالحلي الميدية، بل

كان من الأهمية بمكان أن يتلقّى أحد الأشراف من الملك الأخميني بدّة ميدية من باب التشريف، وقال هيرودوت في تاريخه يصف الفرس الأخمين:

" وليس هناك كالفرس شعب ينزع إلى الأخذ بمناهج مَنْ هو غريب عنه، فهم يرتدون أزياء الميديين مثلاً، لاعتقادهم بأن تلك الأزياء أكثر أناقة من أزيائهم ".

ووصف هيرودوت في تاريخه لباس الفرس وعتادهم في الجيش الذي قاده أحشويرش بن دارا الأخميني لمهاجمة اليونان، فذكر أنهم كانوا يرتدون **"القبّعة المثلّثة وهي من اللبّاد الناعم، والقميص المطرّز مع أكمامه، وفوقه الدرع الذي يبدو كحراشف السمك، والسروال، وأما عتادهم فهو الترس المصنوع من قضبان الصفصاف، وتحته المقلاع والرمح القصير، والقوس القوية، والسهام المصنوعة من الخيزران، والخنجر المربوط بالنطاق على الفخذ اليمنى".**

وأضاف هيرودوت أن الفرقة الميدية في جيش أحشويرش كانت ترتدي الزيّ نفسه، وتتسلّح بالعتاد ذاته، وأكّد أن **" هذا النمط من اللباس ميدي الأصل، وليس زيّاً فارسياً بأيّ شكل".**

هذا الرجل العظيم

ها قد مر (٢٦٠٠) عام تقريباً على الشعب الكردي، وما زال يدفع ثمن الغزوات والاحتلالات، وما زالت الأمة الكردية مقطّعة الأشلاء، لا دولة واحدة تجمع شتات الكرد، ولا قائد يحكمها من شرقيها إلى غربيها، ولا مؤسسات سياسية وثقافية وإدارية واقتصادية تنظم شؤونها، وما زالت سياسات القهر والصهر والتعتيم والتغييب قائمة بكل شراسة وصلافة، وها قد أقام جيران الكرد، فرساً وأرمناً وعرباً وتركاً، دولهم القومية على ترابهم وعلى تراب غيرهم، وما زال الكرد يفتقرون إلى إقامة دولتهم القومية على ترابهم التاريخي.

إن كردستان اليوم مطموسة الملامح، أما مفترسوها والمتربصون بها شراً فلا يريدون حتى مجرد ذكر اسمها، وأما أبناؤها الواعون فينسبونها تارة إلى من يحتلها، فيقولون: كردستان إيران، كردستان تركيا، كردستان العراق، كردستان سوريا، وأقصى ما استطاعوا فعله أخيراً هو أنهم حرروا وعيهم من الإرث العبودي، ونسبوا وطنهم كردستان إلى الجهات الأربع، فقالوا: كردستان الشرقية، كردستان الغربية، كردستان الشمالية، كردستان الجنوبية.

وما زالت الأمة الكردية تنتظر إقامة كردستان تنتسب إلى نفسها فقط.

وما زالت تنتظر قائداً عبقرياً فذّاً مثل كي خسروا يحقق ذلك الأمل.

وأحسب أن أهم ما قام به كي خسرو لم يكن إسقاط إمبراطورية عاتية شرسة فقط، ولا بناء إمبراطورية ميدية كبرى فقط، وإنما قيامه بتوحيد الوطن الكردي التاريخي شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لأول مرة في التاريخ القديم والحديث، وإنني أعد هذا الزعيم أول من رسم ملامح كردستان السياسية والجغرافية والثقافية منذ ما يزيد على ألفين وستمئة سنة.

ومعلوم أن الممالك الكردية السابقة على الميديين، ومنها المملكة الكوتية، والمملكة الميتانية، بسطت نفوذها على أجزاء كبيرة من الوطن الكردي (كردستان)، كما بسطت سيطرتها على أجزاء أخرى خارج كردستان، لكنها لم تستطع توحيد الوطن الكردي جميعه تحت راية دولة واحدة، وتحت قيادة واحدة، ولم تقم بتعميم ثقافة كردستانية متجانسة في المجتمع الكردي.

إن هذا الإنجاز الكبير كان بحاجة إلى قائد عبقري بكل المقاييس والمعايير، قائد يتفهم شعبه أولاً، ويجسّد إرادته في وجدانه وفكره، قائد يتوحّد بأمته فكراً وشعوراً، قائد يمتلك القدرة على توجيه شعبه الوجهة الصحيحة، قائد يمتلك قدرات قيادية فريدة، قائد يتميّز برؤية سياسية إقليمية وعالمية صائبة، قائد ينهض بشعبه من وهاد الضعف والعبودية إلى آفاق الحرية.

كان ذلك القائد هو كي خسرو.

ولا بد أن يأتي اليوم الذي يظهر فيه كي خسرو آخر.

المراجع

١. أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، ص ٦٢ — ٦٦.
٢. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٣٤- ٣٧.
٣. أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.
٤. جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ص ٢١٦، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٦.
٥. دياكونوف: ميديا، ص، ١٤٣، ١٤٦، ٢٧٧، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١١,٣٥٣.
٦. سامي سعيد الأسعد، ورضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٤١، ٤٧، ١٢٢.
٧. طه باقر وآخرون: تاريخ إيران القديم، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠ — ٤١.
٨. العهد القديم، ناحوم، الأصحاح ٣، الآية ١٨، ١٩.
٩. ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، ص ٦٩، ٧٠، ٣٠٨، ٣٢٠.
١٠. هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٤٧، ٨٧،
١١. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٣٥، ٦٢ — ٦٣، ٨٠، ٩٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٥١٥، ٥١٦، ٦٢٨، ٥٣٨، ٦٢٧.
١٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، المجلد الأول، الجزء الثاني، ص، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٠، ٤٠٦.

(٢)

الوزير خالد البَرْمكي

(توفي سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م)

البرامكة أسرة شهيرة، واكبت ظهور الدعوة العباسية منذ أواخر العهد الأموي، وساهمت في تأسيس الخلافة العباسية سنة (١٣٢ هـ)، وتولّى رجالها مناصب رفيعة في الوزارة والإدارة، ولها مساهمات كبيرة في التقدم الحضاري، وشاركت بقوة في تأسيس العصر العباسي المشهور بـ (العصر الذهبي).

فمن هم البرامكة ؟ وما هي مساهماتهم في الحضارة الإسلامية ؟

ولماذا كانت نهايتهم المأساوية على يد الخليفة هارون الرشيد ؟

أصل البرامكة

جاء في المصادر التاريخة أن البرامكة " أسرة فارسية "، تنتسب إلى جدها (بَرْمَك)، وليست كلمة (برمك) هذه اسماً لعَلَم، وإنما هي لقب ديني وراثي لمن يكون سادن المعبد عند الكرد والفرس القدماء.

وكان (برمك) — ولا يُعرف اسمه الزردشتي الحقيقي - سادن معبد (النُّوبِهار) في بَلْخ بخراسان (شمالي أفغانستان اليوم)، وكان كل من يلي سدانة ذاك البيت تعظّمه الملوك، وترجع إلى حكمه، وتحمل إليه الهدايا والأموال. وذكر الهمذاني في (كتاب البلدان) أنه لما: " افتتحت خراسان أيام عثمان بن عَفّان رضي الله عنه، وقد صارت السدانة إلى برمك أبي خالد بن برمك، فسار إلى عثمان بن عفان مع دهاقين قد ضموا مالاً في البلد. ثم إنه رغب في الإسلام فأسلم، وسمّي عبد الله ورجع إلى ولده وأهله وبلده، فأنكروا عليه إسلامه، وجعلوا بعض ولده مكانه برمكاً".

وكلمة (بَرْمَك) معرّبة، وهي في أصلها الكردي مركبة من كلمتين هما (بَرْ) Ber، وهي تعني (حارس، قيّم، سادن)، و (ماك) Mak، وهي تعني (البيت المقدّس، البيت الأول، بيت الأم)، وكلمة (ماك) تفيد في الكردية أنها الأصل الذي تتشعب منه الفروع.

وفي اللغة الكردية- مثل سائر اللغات الهندو أوربية- عدد كبير من الأسماء التي تتكوّن من اجتماع كلمتين، نذكر منها: (سَرْ بِلِنْد) Serbilind، وتعني (الرأس الشامخ)، و(بَرْ دَفْ) Berdev وتعني (اللثام)، و(بَرْ جاف) Berchav وتعني (عصابة العين)، وهكذا دواليك.

أما الأصل الكردي للبرامكة فقد أكده، بما لا يدع مجالاً للشك، مؤرخ قديم خبير بالتراجم، وقاض محقق شهير، هو ابن خلّكان، وذكر محقق كتاب (وفيات الأعيان) الدكتور إحسان عباس

ذلك في الجزء السابع (ص ١٧)، حينما كتب ترجمة ابن خلكان، وأورد أن ابن خلكان هو " أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان بن باوك بن عبد الله بن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ".

وقال الدكتور إحسان بعد ذلك يقول في (ص ٢٠) من الجزء نفسه:

" صرّح المؤلف لابنه موسى من بعدُ أن قبيلته التي ينتسب إليها من الأكراد هي القبيلة المعروفة بالزَّرْزارية، وجمع بين النسبة إلى الكرد والنسبة إلى البرامكة دون تردد، ومن المشهور أن البرامكة فارسيون، فهل معنى ذلك أن الكرد – في رأي المؤلف– يرجعون إلى أصول فارسية؟ والجواب على هذا السؤال يكمن في اضطراب الأنساب الكردية ".

إذا فالدكتور المحقق يستغرب أن يجمع ابن خلّكان (دون تردد!) بين الانتساب إلى البرامكة والانتساب إلى الكرد في وقت واحد، ويتأسس استغرابه على أن (المشهور) هو نسبة البرامكة إلى الفرس، ولم يجد السيد المحقق حلاً معقولاً لهذه الإشكالية إلا بوضعها تحت بند (اضطراب الأنساب الكردية!)، والحقيقة أن هذه النزعة الوثوقية المطلقة بما هو (مشهور!) أوصل كثيراً من المؤرخين والمحققين، قديماً وحديثاً، إلى نتائج غير دقيقة.

وتقتضي الموضوعية ألا نمر على عجل بما قرره ابن خلّكان، وألا نقع في مصيدة (المشهور!)، وأن نبحث عن أسباب وتفسيرات تبقينا في نطاق المعقول، ثم إن ابن خلّكان قاض ومؤرخ خبير بالتراجم كما سبق القول، وهاتان المهنتان (القضاء والتاريخ) تقومان على الأدلة الواقعية والتحليل المنطقي العلمي، وأحسب أن حيرة الدكتور المحقق ناجمة عن أنه ما كان يمتلك معلومات كافية عن أصل الكرد وتاريخهم، وعن العلاقة العرقية والثقافية بين الكرد والفرس، ليس قبل الإسلام فقط، بل قبل الميلاد أيضاً، وعدم وجود تلك المعلومات واحدة من سيئات التعتيم المتعمّد الذي كان سارياً بقوة قبل عقد من الزمان، وما زال بعض ورثة سياسات التعتيم يناضلون بشراسة للإبقاء عليها.

والحق أن جاء في كتب التاريخ حول أن البرامكة " أسرة فارسية " فهو ليس بالعجيب، كما أنه ليس دليلاً على عدم انتمائهم إلى الكرد، فابن خلّكان نفسه يقول عن البرامكة قبل إسلامهم بأنهم " فرس مجوس ". ويتبيّن لكل باحث محقق في تاريخ الشرق القديم أن كلمة (فارسي) لم تكن تعني الانتماء القومي حصراً، وإنما هي تعني انتماء أسياسياً ودينياً وثقافياً

فضفاضاً جداً، فرضته هيمنة الإمبراطورية الساسانية مدة خمسة قرون على شعوب غربي آسيا.

ومعروف أن الكرد كانوا من كبار زعماء جنوب غربي آسيا في الفترة السابقة على القرن السادس قبل الميلاد، وأن نفوذهم بلغ الأوج في عهد الميديين وكان الفرس تابعين لهم، ثم زالت دولة الميديين، واستلم جيرانهم الفرس الأخمينيون السلطة حوالي سنة (٥٥٠ ق.م)، وأصبح الكرد تابعين لهم، واستمرت الحال على ذلك أيام الأشكان (الفرث/البرث) والساسان، وحتى ظهور الإسلام، وهذا أمر تناولناه في ترجمة الملك الميدي كي خسرو.

وطوال العهود الأخمينية و الأشكانية والساسانية كان الفرس والكرد عماد الإمبراطورية الفارسية، وكان الشعبان مشتركين في العقيدة الزردشتيه، وهذا أمر مهم جداً، وكان للكرد حضور كبير في المجالات العسكرية والإدارية والثقافية، وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت ذلك خلال الحملات الأخمينية، وإن هذا التداخل السياسي والثقافي بين الفرس والكرد جعل كثيراً من الأسر الكردية العريقة- خاصة الناشطة في الحقلين السياسي والثقافي- تبدو، أو تحرص على أن تبدو كأنها فارسية قلباً وقالباً.

ولعل الصورة تغدو أكثر وضوحاً إذا أخذنا في الحسبان أمراً آخر، ألا وهو سرعة إقدام بعض الكرد المقيمين في مجتمعات غير كردية على الانسلاخ مما يشعر بكرديتهم، وهذه حقيقة ملموسة بقوة إلى يومنا هذا، ولا داعي إلى ضرب الأمثلة وهي كثيرة، فهل من العجب في شيء- والحال هذه- أن يتجرد البرامكة من كرديتهم، ويندمجوا في الثقافة الفارسية، وخاصة أنهم كانوا من الطبقات القريبة من السلطة الفارسية؟! ألم يفعلوا الأمر نفسه حينما زالت الدولة الساسانية، وحلّت الدولة العربية الإسلامية محلها؟!

وجملة القول أن النسبة (فارسي) كانت نسبة سياسية وثقافية قبل أن تكون نسبة قومية، وهذا ليس بالأمر الجديد ولا بالفريد، فنحن إلى اليوم نعرف كثيراً من المشاهير عبر نسبتهم السياسية، فكان يقال (العالم السوفياتي) أو (الروسي) ويكون الرجل أوكرانياً أو قوقازياً أو أرمنياً أو طاجيكياً، وكذلك الأمر اليوم بالنسبة إلى (الصيني) و(الأمريكي) وغيرهما، بل لماذا نذهب بعيداً؟! أليس ثمة في عصرنا هذا كثير من الأعلام الذين يحملون الجنسية الإيرانية، أو العراقية، أو التركية، او السورية، وما هم في الحقيقة إلا من أصول كردية؟!

لكن قد يقال: كيف تكون الأسرة البرمكية كردية، وتكون في الوقت نفسه من مدينة بَلْخ الواقعة في شمالي دولة أفغانستان الحالية، ونحن نعرف كم بين بلخ الأفغانستانية وكردستان من مسافة شاسعة؟

وهذا أمر شرحه يطول، وخلاصته أن الدولة الميدية، في عهدها الإمبراطوري، كانت تمتد من أفغانستان ضمناً في الشرق إلى البحر الأبيض المتوسط في الغرب، وكانت سدانة بيوت العبادة في الديانة الميثرائية (قبل الزردشتية) موكلة إلى بعض الأسر الميدية العريقة، وأشهرها قبيلة موغ Magoi، وبعد ظهور الزردشتية، وتحوّل الميديين إليها، أصبحت تلك الأسر الميدية تتولّى أمور سدانة بيوت العبادة الزردشتية، تماماً كان سبط اللاويين يتولّى الأمور الدينية عند العبرانيين، وكما كانت بعض الأسر القريشية تتوارث سدانة الكعبة في مكة قبل الإسلام، وظلت تتولى أمورها في الإسلام.

وبما أن بيت نُوبِهار كان من أقدس بيوت العبادة الزردشتية قبل الإسلام، فمن الطبيعي أن يكون القائمون عليها من الميديين (أجداد الكرد)، ولم تتغيّر الحال عندما انتقلت الدولة من أيدي الميديين إلى أيدي الفرس، سواء أكانوا من الأخمين أم من الأشكان أم من الساسان.

ومن أشهر شخصيات آل برمك، في العصر العباسي: خالد بن برمك، ويحيى بن خالد، والفضل بن يحيى، وجعفر بن يحيى.

ونقف الآن عند خالد، فماذا عنه؟

خالد والدولة العباسية

يعدّ خالد بن برمك المؤسس الأول لأسرة البرامكة في الإسلام، وقد ولد عام (٩٠ هـ) في عهد الدولة الأموية، وكان أول من اعتنق الإسلام من البرامكة، وانضم إلى صفوف الموالين الذين ناهضوا الأمويين، وناصروا الدعوة العباسية، بل أصبح بعد فترة من أكبر الدعاة وأنشط النقباء.

وقد لمع اسم خالد عندما أظهر براعة وبسالة حربية في قيادته لبعض الجيوش الخراسانية تحت لواء أبي مسلم الخراساني القائد العسكري العام للثورة العباسية، كما أنه نظّم أمور الخراج وتوزيع الغنائم في جيش قَحْطَبة بن شَبيب أحد القوّاد العاملين بإمرة أبي مسلم.

ولما زالت الدولة الأموية، وهيمن العباسيون على السلطة تألّق نجم خالد البرمكي، فأبقاه الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفّاح على ما كان يتقلّده من الغنائم، وأسند إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند، ويبدو أن العلاقة كانت وثيقة بين الخليفة أبي العباس وخالد، فأرضعت زوجة خالد رَيْطَةَ بنت أبي العباس، كما أن زوجة أبي العباس أرضعت ابنة لخالد تدعى أم يحيى.

وقد قال الخليفة أبو العباس يوماً لخالد: لم ترضَ يا بن برمك حتى استعبدتني! فوجم خالد من ذلك، وقال: أنا عبد أمير المؤمنين. فقال له الخليفة: كانت ريطة وأم يحيى في فراش واحد، فتكشّفتا، فرددت عليهما اللحاف، فقبّل خالد يد الخليفة، وشكر له.

وبعد مقتل الوزير أبي سَلَمَة الخَلاّل (حَفْص بن سليمان) استوزر السفّاح خالدَ بن برمك، وبعد وفاة السفّاح أقرّه الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور في الوزارة، ثم ولاّه على الرَّيّ وطَبَرِستان ودُنْباوَنْد، فأقام بها سبع سنين، وكان مقامه في طبرستان، وأخمد هناك ثورة هامة، حتى إن أهل طبرستان نقشوا، بعد ذلك الانتصار، صورة خالد على دروعهم وسلاحهم.

وحينما نشبت القلاقل في الموصل ولّى أبو جعفر المنصور خالداً عليها، فقهر الثوّار، وأحسن إلى الناس، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع إحسانه لهم، يقول أحمد بن محمد بن سَوّار الموصلي:

" ما هِبْنا قط أميراً هيبتَنا خالدَ بن برمك، من غير أن تشتد عقوبته، ولا نرى منه جبروته، ولكن هيبة كانت له في صدورنا ".

وظل خالد يعمل في ترسيخ دعائم الدولة العباسية طوال عمره، فقد استعان به أبو جعفر المنصور لتدبير خلع ابن عمه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وإحلال ابنه المهدي محله، كما أن الخليفة المهدي وجّهه مع ابنه هارون الرشيد لمحاربة الروم سنة (١٦٣ هـ)، فأبلى خالد بلاء حسناً، واستولى على (سمالو) وهو أحد حصون الروم، وكان يرافقه في تلك الحملة أخواه الحسن وسليمان.

وتميّز خالد بصفات عالية، جعلته أهلاً للسيادة والريادة، منها أنه كان ذكياً فَطِناً، وأورد الجَهْشياري في كتابه (الوزراء والكتّاب) أن خالد بن برمك كان على سطح من سطوح قرية قد نزلوها مع قحطبة بن شبيب، وهم يتغدّون، وإذا بقطعان من الظباء والبقر الوحشي قد أقبلت، فخالطت العسكر، فقال خالد لقحطبة: أيها الأمير، قد هوجمنا، فمُر من ينادي بالسلاح، فعجب قحطبة منه، فقال له خالد: لا تتشاغل بكلامي وأمرْ بالنداء. فنادى قحطبة بالسلاح، وإذا بالعدو قد داهمهم، ووقعت الحرب بين الفريقين، فلما انقضت الحرب سئل خالد عن السبب فيما

قاله، فقال: رأيت الوحوش قد خالطت العسكر، ومن عادتها أن تنفر منه، فعلمت أنها لم تُخالطه إلا لشيء وراءها أعظم مما دخلت فيه.

وكان خالد كريماً ذا همّة، حكيماً فاضلاً، نبيلاً، جليلاً، سخياً، لا يبخل على أحد من قصّاده، وهو أول من أطلق على المستميحين (طالبي العون) اسم (الزوّار)، وكانوا من قبل يسمّون (سؤّالاً)، وكان أبو عبيد الله الوزير يقول:

" ما رأيت أجمع من خالد، له جمال ﴿وفي رواية: فصاحة﴾ أهل الشام، وشجاعة أهل خراسان، وأدب أهل العراق، وكتابة أهل السّواد ﴿جنوبي العراق﴾ ".

وكانت وفاة خالد سنة (١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م).

(٣)

الوزير يحيى بن خالد البَرْمكي

(توفي سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م)

ولد يحيى بن خالد بن برمك سنة (١٢٠ هـ)، وهذا يعني أنه عاصر أهم أحداث الثورة العباسية، وكانت أحداثاً كبرى ولا شك؛ فقد أطاحت بدولة، وأقامت أخرى مكانها، ويتضح من تاريخ ولادته أن الثورة اندلعت وكان عمره اثنتي عشرة سنة، ولم يكن، وهو في هذا العمر، بقادر على المساهمة في أحداث الثورة نفسها، لكنه أصبح بعدئذ من كبار الناشطين في ميادين الدولة العباسية التي أنجبتها تلك الثورة.

فقد شارك يحيى والده في العمل لخلفائها بإخلاص، وكان مثل أبيه عزماً وحزماً وتدبيراً، فولاّه أبو جعفر المنصور ولاية أذربيجان سنة (١٥٨ هـ)، وكان العباسيون لا يولّون ثغورهم (جبهات المواجهة مع الدول المعادية) إلا من يحوز ثقتهم، وكان يحيى عند ثقة الخليفة، فنهض بالأمر على الوجه الأكمل، واستمر والياً على أذربيجان إلى أن توفّي المنصور.

ونظراً لإخلاص يحيى، اختاره الخليفة المهدي ليكون مؤدّب ولده هارون الرشيد وكاتبه ووزيره، وفي سنة (١٦٣ هـ) ولّى الخليفة المهدي ابنه هارون الرشيد على القسم الغربي من دولة الخلافة، وأذربيجان وأرمينيا، وجعل يحيى على ديوان رسائله، وكان الرشيد يُجلّه، فلا يناديه إلا بقوله: " يا أبتِ "!

وقد مر أن العلاقات بين الأسرتين العباسية والبرمكية كانت وثيقة، فأرضعت كل من زوجتي السفّاح وخالد ابنة الأخرى، وأرضعت الخيزران (أم الرشيد) الفضل بن يحيى، وأرضعت زوجة يحيى (أم الفضل) هارون الرشيد، والجدير بالذكر أن الخيزران من أصل أمازيغي (بربري)، وكذلك كانت أم الفضل بن يحيى، ولعل هذه القرابة في الانتماء كانت من عوامل وجود علاقات حميمة وغير عادية بين الأسرتين.

صلابة موقف

وبعد وفاة المهدي تولّى ابنه موسى الهادي الخلافة، فأبقى يحيى على حاله مع الرشيد، ثم بدا للهادي أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد، ويجعلها لابنه الصغير جعفر، ووافقه على ذلك بعض أمراء البيت العباسي، وكبار القادة، فخلعوا هارون، وبايعوا لجعفر، وأشاعوا عن هارون أموراً سيئة، وقالوا: لا نرضى به، وشرع الهادي ينتقص الرشيد، ويحطّ من شأنه، فتجنّبه الناس، ولم يكن أحد يجرؤ على أن يسلّم عليه ولا يقربه، إلا يحيى بن خالد وأولاده، فإنهم ظلوا أوفياء لهارون، معرّضين أنفسهم لغضب الهادي ودسائس الحسّاد.

وروى الطبري في تاريخه أنه:

" سُعي إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف، وإنما يُفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى، وهدّدْه بالقتل، وارمه بالكفر. فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد ".

وذكر الطبري أيضاً أن هارون قرر أن يخلع نفسه من ولاية العهد، فقال له يحيى: لا تفعل. فقال هارون: أليس يترك لي الهنيء والمريء؟! فهما يسعانني، وأعيش مع ابنة عمي (يقصد زوجته زُبيدة وكان متعلّقاً بها)، فقال يحيى: وأين هذا من الخلافة ؟! وشجّعه على التمسك بحقه في ولاية العهد.

وبدأ الهادي يضايق يحيى، ثم سجنه، وحاول التخلص منه، لكن يحيى التزم الحق، وقال يحيى: حبسني الهادي بسبب الرشيد، وتربيتي إياه، ومكاني معه، وكان الرشيد دُفع إلينا مولوداً في الخرق، فغذّته ثدي نسائنا، وربّي في حجورنا، فقال: بلغني أنك ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة، والله لآتينّ على نفسه ونفسك قبل ذلك! وحبسني في بيت ضيّق لا اقدر أن أمدّ فيه رجلي.

ورغم المضايقات بالسجن، والتهديدات بالقتل، لم يتزحزح يحيى عن موقفه من مسألة ولاية العهد، وظل مدافعاً عن حق هارون الرشيد في الخلافة بعد أخيه الهادي، ونصح الخليفة الهادي بما هو أصلح، وقال له ذات يوم:

" يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نَكْث الأيْمان هانت عليهم أيْمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده، كان ذلك أوكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت، ولي في هذا تدبير ".

يحيى وزيراً

ولم تطل خِلافة الهادي أكثر من سنة، إذ توفي سنة (١٧٠ هـ)، وتولّى هارون الرشيد الخلافة بفضل تدبير يحيى وجرأته وإخلاصه، وكان هارون يعرف ما تحمّله يحيى في سبيله من العذاب والإيذاء الشديد، فكافأه على ذلك بمنصب الوزارة، وأطلق يده في شؤون الخلافة، ودفع إليه الخاتم، وقال:

" يا أبتِ، أنت أجلستني ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، قد قلّدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فأحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت ".

فكان يحيى يسمّى ذا الوزارتين، وهو أول من لَقّب بذلك في الإسلام، وقام يحيى بإدارة أمور الحكم خير قيام، فسدّ الثغور، وجبى الأموال، وأظهر رونق الخلافة، حتى إن ابن طباطبا سمى الدولة في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية) بدولة بني برمك، قائلاً:

" اعلم أن هذه الدولة كانت غرّة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدّت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، ... فكان يحيى وبنوه كالنجوم الزاهرة، والبحور الزاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبّهة المُلك ظاهرة ".

وباشر يحيى الأمور بحزم وعزم نادرين فكان نعم الوزير ونعم المدير، "فكان يجلس هو وابناه الفضل وجعفر للناس جلوساً عاماً في كل يوم، إلى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجَب أحد، ولا يُلقى لهم ستر "، واهتمّ بشؤون الرعية خير اهتمام، وأمر بحفر الأنهار، وبحمل القمح من مصر إلى المكة والمدينة، " وأجرى على المهاجرين والأنصار، وعلى وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات، واتخذ كتاتيب لليتامى ".

وذكر الجهشياري أن يحيى كان يعرض الأمور على الخَيزران أم الرشيد، ويصدر عن رأيها، وكانت الخيزران قد أمرت أن يُقتل كل من تسرّع في خلع الرشيد، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادي، فقال لها يحيى: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟ قال: يُرمى بهم في نحور الأعداء، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل، وإن أصابهم العدو كنتِ قد استرحت منهم. فأذنت له في ذلك، فتخلّص القوم جميعاً من القتل بفضل تدبير يحيى، هذا مع أنهم كانوا يتآمرون عليه في أيام الهادي، ويعملون لقتله.

وكان يحيى إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار، وضرب له أمثالاً، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره، ومثال ذلك أنه كانت بين الرشيد و(نِقْفُور) ملك الروم هدنة- بإشارة من يحيى- ونكث نقفور وغدر، وكره يحيى أن يُعرّف الرشيدَ ذلك، فيرجع باللوم عليه، لما كان من مشورته عليه بمصالحته، فأمر عبد الله بن محمد الشاعر المعروف بالمكّي، أن يقول في ذلك شعراً، وينشده الرشيد. فقال:

نقضَ الذي أعطاكَه نِقْفورُ فعليه دائرةُ البَوارِ تدورُ
أبشِر أميرَ المؤمنين، فإنه فَتحٌ أتاكَ به الإلهُ كبيرُ

فقال الرشيد ليحيى: قد علمتُ أنك احتلت في إسماعي هذا الخبر على لسان المكّي، ثم نهض نحو الروم، فافتتح هِرَقْلة.

وأمر الرشيد يحيى بهدم إيوان كسرى، فقال يحيى: لا تهدم بناءً دلّ على فخامة شأن بانيه الذي غلبته وأخذت ملكه. فقال الرشيد: هذا من ميلك إلى المجوس، لا بدّ من هدمه. ولما قُدّرت نفقة هدم الإيوان تبيّن للرشيد أنه مبلغ ضخم، فاستكثره وأمر بترك هدمه. فقال له يحيى: لم يكن ينبغي لك أن تأمر بهدمه، وإذ قد أمرت فليس يحسن بك أن تُظهر عجزاً عن هدم بناء بناه عدوك. فلم يقبل الرشيد قوله، ولم يهدمه.

خصال حميدة

أما عن شخصية يحيى فقد ذكرت الأخبار أنه كان أريباً لبيباً، صائب الرأي، حسن التدبير، جواداً يسابق الريح جوداً، حليماً عفيفاً، وقوراً مَهيباً، تغنّى الشعراء بفضائله ومكارمه، واتسم بالوفاء والإخلاص، وبالذكاء والكياسة، وبالحكمة في الشدائد، كما كان حاضر البديهة، سريع الإجابة، متواضع النفس، نقيّ السريرة، غير متغطرس، يقابل المسيئين إليه بالصفح والعفو، قال عبد الصمد بن علي: " ما رأيت أكرم من يحيى نفساً، ولا أحلم منه، جعل على نفسه ألا يكافئ أحداً بسوء فوقّى ".

وذكر الجاجرمي في كتابه (نكت الوزراء) أنه ما أحد أعطى منحة تصل إلى ألف ألف (مليون) درهم غير يحيى، فإنه خرج يوماً ليركب، فلمّا وضع رجله في الركاب نظر إلى قوم زائرين بالباب، فسأل عنهم ووثب ليركب، قبل أن يمكن من سرجه قال: تُقسَم بينهم ألف ألف درهم. وكان يحيى يجري على سفيان الثّوري ألف درهم كل شهر، فكان سفيان إذا صلّى يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي، فاكفه أمر آخرته.

وذكر الجَهْشَياري أن يحيى بن خالد كان يتحدّث ذات يوم مع بعض أصحابه، ومنهم منصور بن زياد، والخدم يعبثون ويترامون بالبطّيخ، حتى جاءت بطّيخة فأصابت وجهه، فوالله ما تحرك ولا غضب، فقال له منصور: أصلحك الله! لو نُهي هؤلاء، وأُخيفوا حتى لا يجترئوا على مثل هذا! فقال: اللهم غفراً! نحن نحب أن نؤمّن من بَعُد منا، فكيف نخيف من كان على بساطنا؟!

وقيل ليحيى: ألا تؤدّب غلمانك؟ قال: " هم أمناؤنا على أنفسنا، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم "؟! وكان يحيى يقول: " لستَ ترى أحداً تكبّر في الإمارة إلا وقد دلّ على أن الذي نال فوق قدره، ولست ترى أحداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه ".

وروي أن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على مصطبة أمام باب يحيى بن خالد، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم، ولقيهم ببِشر وطلاقة، وخرج يوماً مبكّراً، فلم ير منهم أحداً، فأنشد متمثّلاً:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً
ولكنْ أخوها من يبيت على وَجَلْ

وكان ليحيى قبل الوزارة حاجب يقال له سَماعة، فلما تقلّد الوزارة رأى بعض أصحابه أن سماعة يقلّ عن حجابته، فقال له: لو اتخذت حاجباً غيره! فقال: كلا، هذا يعرف إخواني القدماء.

وتمتّع يحيى بقدر كبير من الثقافة والأدب، قال عنه ياقوت في (معجم الأدباء): " كان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحة وبلاغة ". ويتجلى هذا في أقواله ووصاياه ومواقفه. وكان يقول: " البلاغة أن تُكلّم كل قوم بما يفهمون ". ويقول لكتّابه: "إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا". ومن كلامه: " ثلاثة أشياء تدل على عقول الرجال: الكتاب، والرسول، والهدية ".

يحيى مربيًا

ذكر الجهشياري أنه كان ليحيى خمسة أبناء، هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى وإبراهيم، وكان موسى قائداً عسكرياً مشهوراً بالشجاعة، بارعاً في إدارة دفّة المعارك، وكان إبرهيم جميلاً، ويقال له لجماله: دينار آل برمك، توفّي وعمره تسع عشرة سنة. وقد وصف إبراهيم الموصلي أبناء يحيى الأربعة الباقين قائلاً: أما الفضل فيُرضيك بفعله، وأما جعفر فيُرضيك بقوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وأما موسى فيفعل ما لا يجد.

وكان يحيى حريصاً على تربية أولاده تربية رفيعة، وتوجيههم إلى القيم السامية، وذكرالجَهْشَياري أن يحيى أحضر مؤدِّب ابنه إبراهيم ذات يوم، ومن كان ضمّ إليه من كتّابه وأصحابه، وقال لهم: ما حالُ إبراهيم؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا، ونظر في كذا، واتخذنا له من الضياع كذا، وبلغت غلّته كذا. قال: ما عن هذا سألت، إنما سألت: هل اتخذتم له في أعناق الرجال مِنناً، وحبّبتموه إلى الناس؟ قالوا: لا. قال: فبئس العُشَراء أنتم! وهو إلى هذا أحوج مما فعلتم، وأمر بحمل خمسمئة ألف درهم، وتفريقها في الناس.

وذكر الواقدي ما يؤكد حزم يحيى في تربية أبنائه، فقال: دخل الفضل بن يحيى على أبيه يتبختر في مشيته، وأنا عنده، فكره ذلك منه، فقال لي: يا أبا عبد الله، أتدري ما بقّى الحكيم في طِرْسه ﴿صحيفته﴾؟ قلت: لا. قال: بقّى الحكيم في طرسه أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل مع الكِبر والسخاء والعلم، فيا لها حسنةً غطّت على عيبين عظيمين! ويا لها سيّئة غطّت على حسنتين كبيرتين! ثم أومأ إلى الفضل بالجلوس.

وكان يحيى ينصح أولاده بأن يكتبوا أحسن ما يسمعون، ويحفظوا أحسن ما يكتبون، ويتحدثوا بأحسن ما يحفظون.

وقال يحيى لابنائه:

" لا بد لكم من كتّاب وعمّال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسِفْلة الناس، فإن النعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر ".

وقال يحيى لابنه جعفر: " يا بنيّ، انتق من كل علم شيئاً، فإنه من جهل شيئاً عاداه، وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من الأدب ".

ومدح الشعراء يحيى بقصائد بليغة، قال أبو الحَجْناء نُصَيْب الأصغر:

عند الملوك مضرّةٌ ومنافعُ
وأرى البرامك لا تضرّ وتنفعُ
وإذا جهلتَ من امرئ أعراقَه
وقديمَه فانظر إلى ما يصنعُ

وقال شاعر آخر:

سألتُ النَّدى: هل أنت حرٌّ؟ فقال: لا
ولكنني عبدٌ ليحيى بن خالدٍ
فقلت: شراءً؟ قال: لا، بل وراثةً
توارثني عن والد بعد والد

وخلال نكبة البرامكة على يدي هارون الرشيد توفي يحيى في السجن بمدينة الرقة سنة (١٩٠ هـ/٨٠٥ م)، " فاغتمّ الرشيد غمّاً شديداً، وقال: اليوم مات أعقل الناس وأكملهم. ثم وجّه إلى ولده: هل أوصى بشيء، أو تقدّم بشيء؟ فقالوا: ما عرفنا شيئاً من ذلك، بلى، وجدنا كتاباً كتبه وختمه، ووضعه تحت رأسه، فوجّه الرشيد بمن أخذه، وصار به إليه، فكان فيه: قد تقدّم الخصم، والمُدّعى عليه على الأثر، والحاكم لا يحتاج إلى بيّنة ".

ودفن يحيى بالرافقة على شاطئ الفرات، وبُني على قبره بناء عال.

(٤)

الوزير الفضل بن يحيى البَرْمكي

(توفي سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م)

ولد الفضل قبيل مولد الرشيد بسبعة أيام سنة (١٤٨ هـ)، وأمه أمازيغية (بربرية) وكنيته أبو العبّاس، وهو والرشيد أخوان من الرضاع، وكان أقرب الأبناء إلى أبيه، سماحةَ خلق، ورجاحةَ عقل، وعُزوفاً عن الصغائر، واهتماماً بعظائم الأمور، وكان أكثر البرامكة كرماً، واتصف بالكفاءة والنزاهة في الأعمال التي أُسندت إليه، وناب عن والده في جلائل الأعمال، فأطلق الناس عليه لقب (الوزير الصغير)، كما أن الرشيد أوكل إليه أمر تربية ابنه محمد الأمين.

مهارات قيادية

تميّز الفضل بالشجاعة والقوة، وقد ولاّه الرشيد إقليم الجبال (تشكل كردستان الجنوبية والشرقية قسمه الأكبر)، وطَبَرستان، وجُرْجَان، والرَّيّ (قرب طهران) سنة (١٧٦ هـ)، وحين ثار يحيى بن عبد الله العلوي في بلاد الدَّيلم سنة (١٧٦ هـ) ندبَ له الفضل، فتلطّف به، واستماله إلى الصلح، فأجابه يحيى إلى ما أراد، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده، وقدم يحيى بن عبد الله في صحبة الفضل إلى بغداد، ولقيه الرشيد بكل ما أحب.

كما أن الرشيد ولّى الفضل على خراسان سنة (١٧٨ هـ)، فأحسنَ السيرة بها، وأزال الظلم، وبنى بها المساجد والحياض والرِّباط، وأسقط الضرائب السابقة عن الناس، وزاد في عطايا الجند، وأكرم الزوّار والقوّاد والكتّاب، ووطّد الأمر بها للعباسيين، وأمر بهدم معبد النُّوبهار، فلم يقدر عليه، لإحكام بنائه، فهدم منه قطعة، وبنى فيها مسجداً. وفي خراسان جنّد الفضل جيشاً ضم خمسمئة ألف مقاتل، سمّاهم العباسية، أرسل عشرين ألفاً منهم إلى بغداد، واحتفظ بالباقين في خراسان، وخاض حروباً ضد ملوك الترك، وفتح شرقي أفغانستان.

وعاد الفضل من خراسان إلى العراق في آخر سنة (١٧٩ هـ)، فاستقبله الرشيد استقبالاً حسناً، وتلقّاه بحفاوة بالغة، وتلقّاه بنو هاشم والناس والقوّاد والكتّاب والأشراف، وأمر الرشيد الشعراء بمدحه، والخطباء بذكر فضله، وأسند إليه الوزارة حيناً، ثم نقلها إلى أخيه جعفر، وولاّه البلاد من الأنبار شرقاً حتى إفريقية (تونس)، فتولّى منصبه الجديد بكفاءة، وأزال الجور، وبسط العدل، وأشاع الرخاء والأمن في الرعية.

ولم تسر الأمور مع الفضل دائماً على النحو المرغوب، فقد كان الرشيد يثير التنافس بينه وبين أخيه جعفر، لكن كان الفضل شديد الثقة بنفسه، ولا يعطي أهمية لذلك التوحيش بينه وبين أخيه، وسخط عليه الرشيد سنة (١٨٣ هـ)، وجرّده من مناصبه، وأبقاه وصياً على وليّ العهد محمد الأمين، وأحسب أن كبرياء الفضل وشخصيته الجادّة كانتا وراء ذلك.

خصال رفيعة

اتّسم الفضل بخصال رفيعة حقاً، منها ضبط النفس، والجد في الأمور، وكان لا يتناول النبيذ، وكان يقول: " لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي لما شربته ". كما أنه كان جواداً، ويقال له: حاتم الإسلام، وحاتم الأجواد. ويقال: حدّث عن البحر ولا حرج، وعن الفضل ولا حرج.

وكان الفضل حريصاً على ألا تشوب سمعته شائبة، حتى وهو في أصعب المواقف، فبعد أن غضب الرشيد على البرامكة، وأنزل بهم النكبة، فقُتل جعفراً، وسجن يحيى والفضل، وذكر الجهشياري:

" أن الفضل بن يحيى نُقل من محبس إلى محبس آخر، فوقف له بعض العامة، فدعا عليه، وأنه اضطرب الفضل من ذلك اضطراباً لم يُر مضطرباً قبله مثله في شيء من حوادث النكبة، وأنه قال لبعض من كان معه: أحبّ أن تلقى ذلك الرجل، وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه. وهل لحقه من بعض أسبابنا، على غير علم منا، ظلم، فنتلافى ما خلا؟ فصار رسوله إليه، وسأله عما دعاه إلى ما كان منه، وهل لحقه ما يوجبه؟ فقال: لا والله، ما لحقني ما أوجب ذلك، ولكن قيل لي: إن هؤلاء كلهم زنادقة. فلما عاد الرسول إليه بذلك قال: قد والله سرّيتَ عني، وفرّجت ما بي، وأزلت ما لحقني، ثم أنشد:

غير ما طالبين ذَحْلاً، ولكن

مال دهر على أناس فمالوا ".

﴿ الذحل: الثار والانتقام ﴾

وكان الفضل على درجة رفيعة من الجود والعلم والأدب، عالماً بأشعار العرب روايةً ودراية، وله محاولات إبداعية في هذا الميدان، وقد أوردت المصادر كثيراً من نوادر الفضل وطرائفه ومواقفه مع الشعراء والأدباء، ومدحه الشعراء، وقد قال الشاعر سَلْم الخاسر في قصيدة يمدحه بها:

وكيف تخافُ مِن بؤسٍ بدارٍ

تَكنّفها البرامكةُ البحورُ؟!

وقومٌ منهمُ الفضلُ بن يحيى

نفيرٌ ما يوازنه نفيرُ

له يومان: يومُ نَدًى وبأس

كأن الدهر بينهما أسيرُ

إذا ما البرمكيُّ غدا ابنَ عشْرٍ

فهمّتــهُ وزيرٌ أو أمـــيرُ

وقال أشجع السُّلمي يمدح الفضل:

وما قدّم الفضلَ بن يحيى مكانُه

على غيره، بل قدّمــته المكارمُ

لقد أرهب الأعداء، حتى كأنما

على كل ثغر بالمنيّــة قائــمُ

وفي أحداث النكبة، ومقتل جعفر بن يحيى، أمر الرشيد بسجن الفضل مـع والـده، ونقلـهما الرشيد معه إلى الرقة، وكان باراً بأبيه في السجن، حتى إنه كان يأخذ إبريـق الوضـوء، فيـضمّه إلى صدره زمناً، كي تخفّ حدّة برودة الماء، فيتوضأ به والده. وأصـيب الفـضل بعلـة مـن تـأثير رطوبة السجن، ثم تزايدت عليه العلة، إلى أن توفي في الـسجن سـنة (١٩٣ هـ/٨٠٨ م)، قبـل وفاة الرشيد بخمسة أشهر، وله من العمر خمسة وأربعون عاماً، قال الجهشياري:

" وصلّى عليه أكثر الناس، واشتد الجزع من الخاصة والعامة، واغتمّ عليه جميع من عرفه، وكثر التضاغط والتزاحم في جنازته، ودفن إلى جنب قبر أبيه، فقال بعض الشعراء:

ليس نبكي عليكمُ، يا بني برْ

مكَ أن زال مُلككمُ فتقضّى

بل نبكيــكمُ لنـــا، ولأنّا

لم نر الخير بعدكم حلّ أرضا ".

(٥)
الوزير جعفر بن يحيى البَرْمكي
(قتل سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م)

جعفر هو ثاني أولاد يحيى بن خالد، ولد في خلافة أبي جعفر المنصور سنة (١٥١ هـ)، وأحسن والده تنشئته وتربيته، وعهد به إلى قاضي القضاة أبي يوسف يعقوب، فتولّى تعليمه وتثقيفه، حتى بلغ مكانة عالية في العلم والأدب.

جعفر وزيراً

كان جعفر عالي الهمة، نافذ البصيرة، جليل المنزلة، وكان له مقام خاص عند الرشيد، وكان من جلسائه وندمائه المقربين، وكان يأنس به أكثر من أخيه الفضل، قال الجاجرمي في (نكت الوزراء):

" وبلغ من شغف الرشيد به أن أمر بخياطة قميص واسع ذي جبّتين، فكان يلبسه مع جعفر ويضاحكه، فلمّا بلغ هذا الخبر يحيى حزن لذلك وارتاع، تيقناً أن البعد على قدر القرب، والسخط على قدر الرضا، وكان كثيراً يقول: إن مَثل أمير المؤمنين ومَثل جعفر كالقوس والسهم، أشدّ ما يكون من النازع قرباً، أبعد ما يكون منه رمياً ".

وثمة أكثر من خبر يؤكد تنبّه يحيى إلى خطورة العلاقة بين الرشيد وجعفر، ونقل الجهشياري عن إسماعيل بن صَبيح قوله:

" كنت يوماً بين يدي خالد، فدخل عليه جعفر، فلما رآه أشاح بوجهه عنه، وتكرّه رؤيته، فلما انصرف قلت له: أطال الله بقاءك، تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حاله، لا يقدّم عليه ولداً ولا وليّاً؟! فقال: إليك عني أيها الرجل، فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلا بسببه. فلما كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفر وأنا بحضرته، ففعل به مثل فعله الأول، فأعدت عليه القول، فقال لي: أدن مني الدواة، فأدنيتها، فكتب كلمات يسيرة في رقعة، وختمها ودفعها إليّ، وقال لي: لتكن عندك، فإذا دخلت سنة سبع وثمانين، ومضى المحرّم، فانظر فيها فلما كان في صفر أوقع الرشيد بهم، فنظرت فيها، فكان الوقت الذي ذكره ".

بلى، إن يحيى كان رجلاً فطناً، وكان يخشى على ابنه جعفر من تلك العلاقة بالرشيد، ويخاف سوء عاقبتها عليه وعلى آل برمك جميعاً، فحاول أن يثني ابنه عن ذلك فلم يفلح، وأفصح للرشيد عما يخامره من خوف، فلم يعبأ به الرشيد، بل ازداد تعلّقاً بجعفر، ونقل إليه الوزارة من أخيه الفضل، وولاّه شؤون مصر سنة (١٧٦ هـ)، حتى أصبح الوزير الأول في البلاط العباسي، والمتصرّف في شؤون الدولة كلها.

وكان الرشيد يعتمد على جعفر في الخطوب، ثقةً بحصافة رأيه، ورجاحة عقله، وذكر الجاجرمي أنه لما هاجت التناحرات العصبية بين القبائل العربية في بلاد الشام سنة (١٨٠ هـ)، واستفحل

شرها، وتفاقم أمرها، قال الرشيد لجعفر: إما أن تخرج أنت، أو أخرج أنا، فتوجّه جعفر إلى الشام بحملة عسكرية، فأخمد الثورة، ونشر الأمن والاستقرار، وأرسل من سحائب جوده على علماء الشام وزهّادها ما ضاهى فعل أخيه الفضل بأهل خراسان، فازداد إعجاب الرشيد به، وكان قد أسند إليه مهمة الإشراف على ولده المأمون ليتدبّر أمر تربيته.

وبلغ جعفر من المكانة عند الرشيد ما لم يبلغه أحد، وفي الخبر الآتي ما يؤكد ذلك: فقد زاره في قصره ذات يوم عبد الملك بن صالح بن علي، وهو أمير عباسي من أبناء عمومة الرشيد، فلما أراد الانصراف دار بينهما الحوار الآتي:

- جعفر: سل حاجتك.
- عبد الملك: إن في قلب أمير المؤمنين هَنَة، فتسأله الرضا عني.
- جعفر: قد رضي عنك أمير المؤمنين.
- عبد الملك: وعليّ أربعة آلاف درهم تقضي عني.
- جعفر: إنها عندي حاضرة، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين، فإنها أنبل لك وأحب إليك.
- عبد الملك: وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة.
- جعفر: قد زوّجه أمير المؤمنين الغالية (ابنة للرشيد).
- عبد الملك: وأحب أن يخفق على رأسه لواء.
- جعفر: قد ولاّه مصر.

ولما كان الغد دخل جعفر على الرشيد، وحقق لعبد الملك كل ما طلب.

خصال جعفر

ولم يكن جعفر سياسياً أريباً فقط، بل كان أديباً بليغاً، حاضر البديهة، صاحب كرم وأريحية، وصفه ثُمامة بن أشْرَس أحد مفكري المعتزلة، فقال:

" كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهّل، والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، لا يتحبّس، ولا يتوقّف، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح ... وكان من أعلم الناس بالخبر الباهر، والشعر النادر، والمثل السائر، والفصاحة التامة ".

وحسبه في هذا المجال أنه صاحب التوقيعات الشهيرة، كان يكتبها تعليقاً على ما يعرض عليه من شكاوى وتظلّمات، يضمّنها حل تلك المشكلات، حتى قيل: إنه وقّع ليلة واحدة بحضرة الرشيد أكثر من ألف توقيع، لم يخرج فيها على موجب الفقه والحق والإنصاف.

وفتن الأدباء بتوقيعاته، وتتلمذوا على ما بها من بلاغة وبيان، ويضاف إلى هذا ما قدّمه جعفر للحياة الأدبية من اهتمام، وما بذله من تشجيع للأدباء والشعراء، وما أسهم به من المجالس التي كان يحضرها العلماء والأدباء، وتدار فيها المحاورات والمناظرات، ويُنشد فيها الشعر. وأكثر الشعراء في مدح جعفر، فقال منصور النَّمَري يمدحه، حينما أخمد فتنة العصبية في بلاد الشام:

لقد أُوقدت بالشـــام نيرانُ فتنة

فهذا أوانُ الشـــام تُخمد نارُها

إذا جاش موج البحر من آل برمك

عليـــها، خبت شهبانها وشرارُها

رمـــاها أمير المؤمنين بجعفر

وفيه تلاقى صَدْعُها وانجبـارُها

وقال أشجع السُّلمي يمدحه:

يحبّ الملـوك ندى جعفرٍ

ولا يصنعون كمـا يصنعُ

وليس بأوسعـهم في الغنى

ولكنّ معروفه أوســعُ

وكيف ينالـــون غاياته

وهم يجمعون ولا يجمعُ؟!

نكبة البرامكة

قال يحيى بن خالد ذات مرة: " لا أرحام بين الملوك وبين أحد "، وكأنه كان يتنبأ بما سيحدث لأسرته التي ظلت في منصب الوزارة سبع عشرة سنة متتالية، ومرّ بنا أنه كان شديد القلق على ما بين الرشيد وابنه جعفر من العلاقة الحميمة، وأنه حاول جاهداً أن يجعل تلك العلاقة طبيعية فلم يفلح. وتنبأ بالعاقبة الوخيمة التي حلّت ليس بجعفر وحده، وإنما بآل برمك جميعهم.

أجل، لقد وقعت الواقعة في ليلة ظلماء من ليالي سنة (١٨٧ هـ/٨٠٣ م)، وأصبح الناس وإذا جعفر مقتول، ورأسه مرفوع على الجسر الأوسط ببغداد، وجثته مشطور نصفين، رُفع نصفٌ على الجسر الأعلى، ونصفٌ على الجسر الأسفل، وإذا يحيى وولده الفضل في أعماق السجن، وأصبحت كل قصورهم ودورهم وأموالهم وعقاراتهم مصادرة من قبل الدولة، وحدث كل ذلك بأمر صديقهم الحميم الخليفة هارون الرشيد.

ويكفي دليلاً على ما حلّ بالبرامكة من شقاء قول ميمون بن هارون، وقد قال الجهشياري في (الكتّاب والوزراء):

" **قيل لعتّابة أم جعفر بن يحيى، بعد نكبتهم، وهي بالكوفة في يوم اضحى: ما أعجب ما رأيتِ؟ فقالت : لقد رأيتُني في مثل هذا اليوم وعلى رأسي مئة وصيفة، لَبوس كل واحدة منهن وحَلْيها خلاف لبوس الأخرى وحليها، وأنا في يومي هذا أشتهي لحماً فلا أقدر علي** ".

فما هو سبب غضب الرشيد، ونكبة البرامكة ؟!

ها هنا تختلف الروايات، وأكد كبار المؤرخين ذلك الاختلاف.

أما أبعدها عن التصديق فهي الرواية التي تذكر أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عبّاسة، وفي رواية (ميمونة)، وكان يُحضرهما إذا جلس للشراب، وقال لجعفر: أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا أحضرتُها مجلسي، وطلب ألا يكون بينهما ما بين الرجل وزوجة، لكن جعفراً وعبّاسة تزوّجا سراً، وولدت عبّاسة غلاماً، فخافت على نفسها من الرشيد، فأرسلت الغلام إلى مكة مع حواضن له، غير أن إحدى جواريها نقلت الخبر إلى الرشيد بدسيسة من زُبيدة زوجة الرشيد، فغضب لذلك، وكانت النكبة.

والسؤال هو: كيف يقوم الخليفة الرشيد بهذا التصرف الخارج على العقيدة والعرف، فيجمع على الشراب بين أخته ورجل غريب؟! ثم إن الرشيد، حسبما ذكر الجهشياري، كان يغزو عاماً ويحج عاماً، " **وكان يلبس دُرّاعة قد كُتب عليها من خلفها:حاجّ، ومن قدامها:غاز** "، فكيف يرضى لنفسه كل ذلك التهتّك؟!

وأما أقرب الروايات إلى التصديق فهي التي ذكرها **أبو محمد اليزيدي**- وكان من أعلم الناس بأخبار البرامكة، فقد أرجع سبب قتل جعفر ونكبة البرامكة إلى مسألة **يحيى بن عبد الله العلوي**، وقد مرّ أنه ثار على الرشيد في بلاد الدَّيْلم سنة (١٨٦ هـ)، فندب له الرشيد الفَضْل بن يحيى، فكاتبه، واستأمنه بكتاب من الرشيد نفسه، وقدم به إلى بغداد، فدفعه الرشيد إلى جعفر فحبسه.

ثم دعا جعفر بيحيى العلوي في ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره، فقال يحيى العلوي: " **اتق الله في أمري، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم، فو الله ما أحدثت حدثاً، ولا أوتيت محدِثاً** ".

فأشفق عليه جعفر، وسمح له بالذهاب حيث يشاء من بلاد الله، وأرسل معه من يبلغه مأمنه، وكان جواسيس الفضل بن الربيع- منافس البرامكة- لجعفر بالمرصاد، فنقلوا الخبر إلى الرشيد، وعندما تأكد الخليفة من ذلك، فتك بجعفر، ونكب البرامكة تلك النكبة الكبرى.

بلى، ذلكم هو الخبر الذي يقبله المنطق، ومع ذلك لا نعتقد أن تعاطف جعفر مع الثائر العلوي كان السبب الوحيد لنكبة البرامكة، وإنما كانت- فيما يبدو لنا- القشّة التي قصمت ظهر البعير كما يقال، وثمة عوامل أخرى اجتمعت وتضافرت لإيصال كل من الرشيد والبرامكة إلى تلك النهاية غير السعيدة.

ونحسب أن ثمة عاملاً شخصياً يتمثل في الرشيد نفسه، فمن يتأمل سلوك هذا الخليفة يتوصّل إلى أنه كان رجلاً متقلّب المزاج، يبالغ في الحب إذا أحبّ، ويبالغ في الكره إذا كره، وأكّد المؤرخون أنه صار خليفة بفضل البرامكة، وهذا ما أقرّ به هو نفسه، وكافأهم على ذلك بأن ترك أمور الدولة بين أيديهم، ومنحهم سلطات واسعة للتصرف في شؤون الحكم، وبعد أن أخمد البرامكة الثورات التي نشبت ضده شرقاً وغرباً، وقضوا على الاضطرابات، ونظّموا أمور الدولة أحسن تنظيم، وأداروا شؤون الإمبراطورية أفضل إدارة، وهيّأوا الظروف لتحقيق الازدهار على جميع الأصعدة، إذا به ينقلب عليهم، ويفتك بهم.

وتفيد الأخبار أن الرشيد ندم على إيكال شؤون الدولة إلى أصدقائه البرامكة، وبمرور الأعوام وجد نفسه على هامش الحياة السياسية والاجتماعية، فالبرامكة هم الوجوه وهم أهل العَقد والحل، وما كان لخليفة مثله أن يقبل باستمرار ذاك الوضع، ولعل الرشيد بات يخاف على نفسه من نفوذ البرامكة، أو هكذا أوحي إليه، ورأى أن يتغدّى بهم قبل أن يتعشّوا هم به حسب ظنه، وهذا نهج سبق أن سلكه السفاح مع أبي سلمة الخلال، وسلكه أبو جعفر المنصور مع كل من عمه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني.

ما وراء الأكمة

يقول المثل العربي: إن وراء الأكمة ما وراءها.

ويصحّ هذا المثل في نكبة البرامكة، ومن المهم جداً أن نأخذ في الحسبان أن البرامكة كانوا رجال سياسة نشطين، يقودون إمبراطورية كبرى تمتد من أفغانستان ضمناً إلى حدود الجزائر حالياً، وكانت بين أيديهم صلاحيات وموارد هائلة، وكان لهم منافسون يتربّصون بهم الدوائر، وينتهزون كل فرصة للإيقاع بهم، والحلول محلهم.

وكان هناك ثلاثة فرق معادون للبرامكة:

الفريق الأول عربي، ومن رجاله الأصمعي (صنيع البرامكة)، وقد رأى هؤلاء أن البرامكة- ممثلي الثقافة الفارسية- استأثروا بالسلطة، وزحزحوا العنصر العربي جانباً. وكان البرامكة

يمنحون الأصمعي أموالاً هائلة، لكنه كان بخيلاً على نفسه، رثّ الهيئة، غير نظيف البيت، الأمر الذي جعل جعفر يشمئز منه، ويحتقره، وكان الأصمعي يمدح البرمكة، ومن شعره فيهم:

إذا قيل: مَن للندى والعُـلا
من الناس؟ قيل: الفتى جعفرُ
ومـا إن مدحتُ فتًى قبله
ولكنْ بنو برمـك جوهرُ

(الجهشياري: الوزراء والكتّاب، ص ٢٠٦)

وهجا الأصمعي البرامكة فيما بعد، وجحد فضلهم عليه، فقال عند نكبتهم:

إذا ذُكر الشـرك في مجلس
أضاءت وجـوه بني برمك
ولوتُليتْ بينـــهمْ آيـةٌ
أتوا بالأحـاديث من مَزْدَكِ

(انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب)

ولعل من المفيد أن نتذكر ها هنا أنه بعد أن أمر الرشيد مسروراً السيّاف بقتل جعفر ليلاً، وإحضار رأسه إليه، استدعى الأصمعي في أعماق الليل من داره، وأراه رأس جعفر، ثم أمره بالعودة إلى داره، وكأنه يقول له: انظر ها قد انتصف العرب من العجم!

والفريق الثاني المناوئ للبرامكة كان فارسياً، يمثله الفضل بن الرَّبيع أحد وزراء العباسيين، والمنافس الأبرز للبرامكة، إضافة إلى فارسي بارز آخر هو عيسى بن ماهان، وكان هؤلاء وأنصارهم يتسقّطون أخبار البرامكة، فيخفون إيجابياتهم ويضخّمون سلبياتهم، ويذيعونها بين الناس، ويوصلونها إلى الرشيد، فيزرعون في نفسه البغضاء للبرامكة.

والفريق الثالث يتألف من زُبَيْدة زوجة الرشيد، ومعها حاشيتها، فقد كانت ناقمة على البرامكة لأسباب ذاتية، أهمها أن يحيى كان حازماً في التعامل معها ومع جواري قصر الخلافة، فشكته إلى الرشيد غير مرة، فقال ليحيى: يا أبتِ، ما بال أم جعفر تشكوك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أمتّهم أنا في حرمك وتدبير قصرك عندك؟ فقال: لا والله، قال: فلا تقبل قولها فيّ. قال الرشيد: فلست أعاودك. فازداد يحيى لها منعاً وعليهن في ذلك غلظة، وكان يأمر بإقفال أبواب الحرم بالليل، ويمضي بالمفاتيح إلى منزله.

أليس هذا هو العقل الكردي؟

أليست هذه هي مشكلة الكردي الأصيل مع الإخلاص والأمانة؟!

وقد سعت الجهات الثلاث بكل ما أوتيت من قوة ودهاء للنيل من البرامكة، وتغيير رأي الرشيد فيهم، وساعدهم في ذلك خروج جعفر على آراء والده يحيى السديدة، فانتهى الأمر به إلى القتل، وانتهى الأمر بأسرته إلى الشقاء.

وثمة في بطون كتب التاريخ أكثر من خبر يؤكد أن نقمة الرشيد على البرامكة كانت نتيجة واحدة من تقلبات مزاجه وتسرّعه في اتخاذ القرارات الخطيرة، وإليكم بعض تلك الأخبار.

- قال مسرور الكبير: " دخلت على الرشيد بعد قتل جعفر بن يحيى، وقد خرج من مرقده يريد الخلاء، فلما رآني أمر بكرسي فطُرح له، وجلس عليه، ثم قال: إني أسائلك عن أمر، فلا تُطوّل عليّ، فإني أريد التطهّر، ولست أبرح أو تخبرني بما أسألك عنه. فقلت: يسأل أمير المؤمنين عما أحب. فقال: اخبرني عما وجدته للبرامكة من المال والجوهر. فقلت له: ما وجدت لهم شيئاً من ذلك. قال: وكيف وقد نهبوا مالي، وذهبوا بخزائني؟! فقلت: أنفقوا في المكارم، وأصبت لهم جوهراً لا يشبه أمثالهم. قال لي: فما يقول الناس فينا وفيهم؟ ... فقلت: يقول الناس إنك لم تفِ لهم، وإنك طمعت في أموالهم ". (انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب).
- قال عبيد الله بن يحيى بن خاقان: " سألت مسروراً الكبير في أيام المتوكل، وكان قد عُمّر إليها، ومات فيها، عن سبب قتل الرشيد لجعفر، وإيقاعه بالبرامكة، فقال: كأنك تريد ما تقوله العامة من أمر المرأة ﴿يقصد أخت الرشيد﴾ وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟ فقلت له: ما أردت غيره. فقال: لا والله، ما لشيء من هذا أصل، ولكنه من ملل موالينا ﴿يقصد بني العباس﴾ وحسدهم ". (انظر الجهشياري: الوزراء والكتّاب). وكان سوء الظن عند الرشيد ومناوئي البرامكة قد وصلت بهم إلى حمل كل ما يقوم به البرامكة على محمل السوء، ومنها أن يحيى البرمكي اقترح وضع مجامر للبخور داخل الكعبة، فكان تفسير ذلك أنه يريد تحويل الكعبة إلى معبد للنار.
- قال الجهشياري في (الوزراء والكتّاب): " ثم ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة، وتحسّر على ما فرط منه في أمرهم، وخاطب جماعة من خواصّه بأنه لو وثق بصفاء النيّة منهم لأعادهم إلى حالهم، وكان كثيراً ما يقول: حملونا على نصحائنا وكُفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فما صرنا إلى ما أرادوا منا، لم يُغنوا عنا، وينشد:

أقِلّوا عليـــنا، لا أبا لأبيكـــمُ
من اللوم أو سُدّوا المكان الذي سَدّوا ".

• ذكر الجهشياري في (الوزراء والكتّاب) أن الفضل بن الربيع، وهو من كبار منافسي البرامكة، ذكر البرامكة، فأطراهم وقرظهم ووصفهم، ثم قال: كنا نعتب عليهم، فقد صرنا نتمنّاهم، ونبكي عليهم، ثم أنشد متمثّلاً:

عتبتُ على سَلْم، فلما فقدتُه
وجرّبتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ

إن هذه الأخبار وغيرها لا تدع مجالاً للشك في أن البرامكة دفعوا ثمن نجاحاتهم القيادية والسياسية أولاً، وراحوا ضحية رغبة الرشيد في الاستبداد بالسلطة ثانياً، كما راحوا ضحية مراكز القوى المنافسة لهم ثالثاً.

مراجع اسرة البرامكة

١. الإتليدي: نوادر الخلفاء، ص ٢٤٣ - ٢٦٥.
٢. الجاجرمي: نكت الوزراء، ص ٣٧ - ٤٦.
٣. الجهشياري: كتاب الوزراء والكتّاب، ص ١٧٧ - ٢٥٤.
٤. ابن الجوزي: المنتظم، ١٢٦/٩ — ١٣٧.
٥. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤٧٢/٥ - ٤٧٣.
٦. ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ٣٢٨/١، ٤٧٢ — ٤٧٥، ٢٢٠/٦، ١٧/٧، ٢٠.
٧. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٩٧ — ٢١٠.
٨. الطبري: تاريخ الطبري، ٥٥/٨، ١٨٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٣٣، ٢٥١، ٢٥٧، ٢٦٢.
٩. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٢٨٨/١، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢٧.
١٠. الهمذاني: كتاب البلدان، ص ٦١٨- ٦١٩.
١١. هوتسما وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، ٥٤٦/٦، ٥٤٩.
١٢. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٢٠/٦ — ٩. ومعجم البلدان، ٣٥٥/٥ — ٣٥٦.

وانظر:

- حسن ذكرى حسن: البرامكة وأثرهم في الأدب في عصر العباسيين.
- هولو جودت فرج: البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم.

(٦)

الملك نصر الدوله الدوستكى

(توفى سنه ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)

أمر غريب!

لم يكن المجتمع الكردي على الدوام سليل الصمت وأسير الضياع.

ولم يكن على الدوام خارج التاريخ كما يحلو للبعض أن يصوّر.

ولم تكن كردستان على الدوام أرض الجهل كما صوّرها آخرون.

كانت كردستان، كلما سنحت الظروف، موطن العلم والعلماء.

وقامت فيها، على فترات مختلفة، ممالك ودول وإمارات مزدهرة.

وعجيب أمر بعض المؤرخين، إنك تجدهم يغربلون التاريخ الإسلامي وينخلونه، ويذكرون تفاصيل لإمارات ودول مختلفة قامت هنا وهناك في أرجاء العالم الإسلامي القديم، أما الدول والإمارات التي قامت في كردستان فيضربون عنها صفحاً، ولا يشيرون إليها لا من قريب ولا من بعيد.

وها أنا ذا آخذ كتاب (تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي) الجزء الثالث، للمؤرخ الدكتور حسن إبراهيم حسن، فأجده قد قام بمسح سياسي دقيق للعصر العباسي، في الفترة الواقعة بين عامي (٢٣٢ – ٤٤٧ هـ / ٨٤٧ هـ / ١٠٥٥ م)، وأفرد (الباب الرابع) لذكر (الدول المستقلة)، حسب تسميته هو، وأجده يذكر الدولة الغزنوية في أقصى شرقي العالم الإسلامي، والدولة الصفّارية، والدولة السامانية، في بلاد فارس، والدولة البُوَيْهية في بلاد فارس والعراق، والدولة الحَمْدانية في شمالي سوريا، والدولة الطُّولُونية في مصر، والدولة الفاطمية في مصر وشمالي إفريقيا، ودولة الأغالبة في تونس، ودولة الأدارسة في مراكش، والدولة الأموية في الأندلس.

وأُبدئ النظر في الفهرس وأعيده، فلا أجد شيئاً عن الدول الكردية التي قامت في تلك الفترة، وفيما يلي أسماؤها: الحكومة الرَّوادية في أذربيجان (٢٣٠ - ٦١٨ هـ)، والحكومة الحَسْنَويهية البرزيكانية في هَمَذان (٣٣٠ - ٤٠٥ هـ)، والحكومة الشَّدَّادية في أرّان (٣٤٠ - ٤٦٥ هـ) ﴿ تقع أرّان في جمهورية أذربيجان وجمهورية جورجيا الحاليتين، ومن مدنها نَخْجوان، وتفليس، وقَرَه باغ ﴾، والدولة الدُّوستكية (المروانية) في كردستان الوسطى (٣٥٠ - ٤٧٨ هـ)، والحكومة العَنازية في حُلْوان (زهاو) بجنوبي كردستان (٣٨٠ - ٤٤٦ هـ).

وقد يقال: أتقيس هذه الدول والإمارات الكردية بالدولة الغزنوية، والدولة البويهية، والدولة الطولونية، والدولة الفاطمية، والدولة الأموية، وأنت تعلم المساحات الواسعة التي حكمتها تلك الدول، والأحداث الخطيرة التي جرت فيها؟!

أقول: حسناً، ولماذا لا نقيس تلك الدول الكردية بكل من الدولة الصفّارية، والدولة السامانية، والدولة الحمدانية، ودولة الأغالبة، ودولة الأدارسة، مع العلم أنها لم تكن أقل شأناً، ولا أقصر عمراً، من هذه الدول؟!

ألا إنه أمر غريب حقاً أن تُرى كل (الدول المستقلة) في تاريخ الإسلام، إلا الدول الكردية، فهي لا تُرى حتى بالمجهر! وكي نحطّم هذه القاعدة الظالمة دعونا نبحث في تاريخ ملك من ملوك الكرد، قاد دولة كان لها شأن كبير في القرن الخامس الهجري، إنه الملك نصر الدولة أحمد بن مروان بن دوستك.

فماذا عن سيرته؟ وماذا عن الدولة الدوستكية (المروانية)؟

عهد التأسيس

ما دمنا بصدد الحديث عن الملك نصر الدولة، فلا بد من رحلة إلى منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، فهو – نصر الدولة – كان ملكاً يقود دولة، وكانت تلك الدولة في البداية إمارة صغيرة، ثم نمت وتطورت، فصارت دولة ذات مكانة، وذلك هو شأن معظم الدول عبر التاريخ.

وتسمى هذه الدولة باسم (الدولة الدوستكية)، وتسمى (الدولة المروانية) أيضاً، وقد نشأت سنة (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م)، وظلت قائمة إلى سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م)، وكانت عاصمتها مدينة فارقِين (مَيّافارقِين)، وشمل نفوذها ولايات: ديار بكر، وماردين، وسِعَرْد (سيرت)، وبَدْليس، وقسماً من ولاية مُوش، إضافة إلى قضاء أرْجِيش من ولاية وان، وأجزاء من ولايات: آلَزِگ (العزيز)، وولاية أورفا (الرُّها)، ونصيبين وأطراف ولاية الموصل.

ويذكر الفارقي في تاريخه أن اسم مؤسس تلك الدولة باد بن دُوستك الحاربختي، وهو أبو عبد الله حسين بن دُوسْتِك، والأرجح أن (باد) لقب، ويعني بالكردية (الريح)، ويسمى (باذ) أيضاً، وكان يمتاز برجاحة العقل وكرم الطبع، فالتفّ حوله المعجبون به، فهاجم أرجيش، وكانت أول مدينة دانت لسلطانه، وأقام علاقات ودّية مع الملك البويهي عضد الدولة، بل إنه قدّم مساعدات قيّمة للجيش البويهي لكسر شوكة الأمير أبي تغلب الحمداني.

وحينما سيطر البويهيون على الموصل سنة (٣٦٨ هـ) جاء أبو شجاع للقاء عضد الدولة، وما إن اجتمع بالملك البويهي حتى فطن إلى أنه لن يبقي عليه، وكان ظنه صائباً، وذكر ابن

الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) أن عضد الدولة قال لجلسائه بعد أن خرج باد من مجلسه: " له بأس وشدة، وفيه شر، لا يجوز الإبقاء على مثله ". وأمر بالقبض عليه، لكن كان أبو شجاع قد غادر المدينة سراً، ولحق بجيشه.

وسرعان ما تعاون البويهيون والحمدانيون للقضاء على أبي شجاع واغتياله، فخابت مساعيهم، ثم هاجم أبو شجاع الموصل، وخاض معركة ضارية ضد بني بويه والحمدانيين وبني عقيل، وجرح في المعركة إثر سقوطه حين قفز من على ظهر فرسه إلى ظهر فرس آخر، ثم قُتل، وكان ذلك سنة (٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م)، قال ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

" وحُملت جثّته إلى الموصل... وصُلّي عليها بالموصل، ودُفنت، ولحق أهل الموصل من الحزن عليه والأسف لقتله ما لا يوصف، وعملوا عليه المآتم والندب والبكاء ".

عهد الازدهار

بعد مصرع أبي شجاع تولّى قيادة الإمارة ابن أخته الأمير أبو علي حسن بن مروان، وكان شهماً جريئاً، ودارت معارك بينه وبين الحمدانيين جنوباً، وبينه وبين الأرمن شمالاً، هذا إلى جانب صراعه مع الدولة البيزنطية من ناحية الغرب، وكان ينوب عنه في شؤون الحكم سياسي كردي موهوب يدعى مَمْ، قال الفارقي في تاريخه:

" وكان شيخاً مقداماً مجرَّباً شهماً من الرجال، قد حنّكته التجارب، وبقي يسوس دولة أبي علي ويدبّرها أحسن تدبير ".

واغتيل أبو علي سنة (٣٨٧ هـ/٩٩٧ م)، وتولّى الإمارة من بعده الأمير سعيد بن مروان، ولقبه ممهِّد الدولة، وفي عهده نالت الدولة الدوستكية الاعتراف من قبل القوى السياسية الكبرى حينذاك، إذ أرسل الخليفة العباسي القادر بالله وفداً رسمياً لتهنئته، كما اعترف بها كل من الملك البويهي بهاء الدولة في العراق وفارس، والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في مصر، واجتمع ممهّد الدولة بالإمبراطور البيزنطي باسيل سنة (٣٩٠ هـ) في المنطقة الحدودية بين الدولتين، واتفقا على التفاهم والتحالف.

واغتيل ممهّد الدولة حوالي سنة (٤٠١ هـ) بمؤامرة دبّرها حاجبه شَيرُوه بن مَمْ، وتعرّض كيان الدولة للخطر، فقد حاول شيروه الاستئثار بالحكم والقضاء على الأسرة المالكة، لكن رؤساء العشائر الكردية وقفوا إلى جانب الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان، فتولّى الحكم بعده أخيه ممهّد الدولة، وبدأ معه عهد القوة والازدهار الكبير في الدولة الدوستكية.

رجل دولة قدير

ولد نصر الدولة سنة (٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)، وهو أعظم ملوك الدولة الدوستكية، وقد استمر حكمه من سنة (٤٠١ هـ/١٠١١ م) إلى سنة (٤٥٣ هـ/١٠٦١ م)، إنه بدأ بتنظيم أمور دولته على قواعد متينة، فعيّن الولاة والموظفين على أساس من الكفاءة، ليعيد إلى الدولة هيبتها، ويوطّد حكمه على دعائم من العدل والمساواة، ويهيّئ لشعبه حياة يسودها الهدوء والاستقرار، وأعاد الأمور إلى نصابها بعد أن تزعزعت بشدة إثر اغتيال أخيه ممهّد الدولة.

ولما انتهى نصر الدولة من تنظيم أمور الدولة، وإرسائها على العدل والرخاء، اهتم بتعزيز المكانة السياسية لدولته على الصعيد الإقليمي، وكان حصيفاً في بناء العلاقات الخارجية المتوازنة، فكسب ودّ الدول المجاورة واحترامها، وتجنّب الانضمام إلى التحالفات المتعادية.

كما استعان نصر الدولة بعلاقات المصاهرة لتأمين سلامة بلاده، وتعزيز مركزها السياسي، فتزوّج بالفَضْلونية بنت فَضْلُون بن مَنُوجَهْر (مَنُوشَهْر) الكردي صاحب أرّان وأرمينيا العليا، كما تزوّج بالسيدة بنت شرف الدولة قِرْواش بن المقلّد العقيلي، وأكرمها غاية الإكرام، وتزوّج بنت سنخاريب ملك السناسنة الأرمن، وكانت قبل ذلك زوجة أخيه الأمير أبي علي.

واستطاع بهذه السياسة الحكيمة، وعبر هذه العلاقات المتوازنة، أن يجنّب بلاده كثيراً من الويلات، ويحقق لرعيته الرخاء والهدوء والسلام، رغم أن دولته كانت تقع في منطقة تتقاطع فيها مصالح سياسية إقليمية حادة (العباسيون، البويهيون، الأرمن، البيزنطيون، الحمدانيون، الفاطميون).

وأثمرت سياسة نصر الدولة سلاماً ورخاء حقيقيين، فاعترفت الدول الشرق أوسطية الثلاث الكبرى في ذلك العصر بالدولة الدوستكية، وهي الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية، والدولة البيزنطية، ووطّدت علاقة الصداقة معها، وأرسلت كل دولة ممثّلها إلى العاصمة ميّافارقين سنة (٤٠٣ هـ/١٠١٣ م)، مصحوباً بالهدايا والتحف الثمينة، لإبلاغ الملك المرواني اعترافها بحكومته حسب التقاليد السياسية في ذلك العصر، وهذا دليل واضح على أمرين اثنين:

- أولهما حنكة الملك الكردي في بناء علاقات سياسية متوازنة مع دول الجوار المتعادية، رغم الظروف السياسية الدقيقة التي كانت تحيط بدولته الفتية.
- ثانيهما الأهمية الإستراتيجية التي كانت تحظى بها الدولة الدوستكية، وتأثيرها في التوازنات الإقليمية، وإلا ما كانت الدول الإقليمية الثلاث الكبرى لتهتم بها هذا الاهتمام.

بلاط .. وسفراء

والطريف أن ممثلي الدول الإقليمية الثلاث وصلوا إلى العاصمة مَيّافارقين في يوم واحد، ومما زاد في سرور الملك نصر الدولة مصادفة وصول الوفود مع الانتهاء من بناء القصر الملكي، ومع إطلالة عيد الأضحى، ولندع الفارقي يصف طرفاً من الأحداث السياسية الهامة التي ازدانت بها الدولة الدوستكية:

"في ذي الحجّة من سنة ثلاث وأربعمائة...، قبل العيد بثلاثة أيام، وصل خادم ﴿موفد﴾ من خدم الخليفة القادر بالله، ومعه حاجب من سلطان الدولة ابن بويه يسمّى أبا الفرج محمد بن أحمد بن مَزْيَد، ووصل معهما الخِلَع والتشريف والمنشور بديار بكر أجمع من الخليفة والسلطان، ولُقّب بنصر الدولة وعمادها ذي الصَّرامتين".

" وفي عشيّة ذلك اليوم وصل رسول من خليفة مصر، وهو الحاكم بأمر الله أبو علي منصور، وورد معه من الهدايا والتحف والألطاف شيء كثير، ولُقّب نصر الدولة بعزّ الدولة ومجدها ذي الصَّرامتين، فخرج كل من في الدولة إلى لقائه، ودخل البلد. ومن بُكرة ذلك اليوم ورد رسول من ملك الروم باسيل الصقلّي وكان ملك القسطنطينية، فخرج الناس إلى لقائه، ووصل معه من القُود ﴿الجياد الطويلة العنق﴾ والجنائب ﴿النُّوق﴾ والتحف ما لا يوصف ".

" وكان اليوم الرابع للعيد، وجلس نصر الدولة لهناء العيد على التَّخْت ﴿كرسي الإمارة﴾، وحضر رسول الخليفة والسلطان، فجلسوا على اليمين، وحضر رسول مصر، ورسول ملك الروم، فجلسا على الشمال، وحضرت الشعراء والقرّاء، وكان يوماً عظيماً وعيداً مشهوداً، وقرئت المناشير على الناس بحضور الرسل والأمراء، ولبس الأمير الخلع، وخلع على الرسل من الخلع ما لم يمكن أن يكون مثلها ".

ونفهم مما أورده الفارقي وغيره من المؤرخين أن الدول المجاورة كانت تتعامل مع الدولة الكردية باهتمام، بل بكثير من التقدير، إنها كانت تقدّر مناخ الأمن والاستقرار الذي سادت أرجاءها، فراحت تخطب ودّها، وتقيم معها أفضل العلاقات السياسية والاقتصادية.

ولا ريب أن السياسة الحكيمة التي رسمها نصر الدولة لدولته كانت سبب ذلك الاهتمام، فقد قامت سياسته على الحياد وعدم التدخل في الصراعات الناشبة في المنطقة، وتجنّب الحروب، والانصراف إلى الشؤون الداخلية، والسهر على مصالح الشعب الكردي الذي كان آنذاك أغنى شعب

وأسـعده في المنطقـة، هـذا بالأضـافة إلى ترسـيخ مبـدأ التـسامح الـديني بـين الأديـان والمـذاهب والقوميات.

نشاط حضاري

عُني نصر الدولة بالمشاريع العمرانية، فبنى مدينة النصرية على ضفة نهـر باطْمـان، وشـيّد المساجد والجسور وقنوات المياه، والتحصينات الدفاعية، ولا سـيما في المنـاطق المتاخمـة للحـدود البيزنطية، وقرر تشييد قصر ملكي فخـم في ميّافـارقين، فحـشد لـه المهندسـين ورجـال العمـارة والفن، وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب، وعمـل فيـه مـا لا نظـير لـه، وزوّده بأسـباب الراحـة والعيش الرغيد، واشتمل القصر على قاعـات للاجتماعـات والاحتفـالات، وأجـرى إليـه قنـاة الماء من رأس العين، وعمل فيه البرك والحمّامات.

ولما ذاعت شهرة نصر الدولة، وتناقلت الألسن أخبار عدالته وجوده، أقبـل عـدد كـبير مـن الشعراء على بلاطه، وتغنّوا بأمجاد الدولة الدوستكية، ومدحوا نصر الدولة بالقـصائد البليغـة، وحظوا منه بالهبات والجوائز، ومنها القصيدة التي قال فيها أبو الحسن علي بن محمد التِّهامي:

إنْ قال: لا، فهي آلاء مضاعفةٌ

وإن يقل نَعَماً أفضتْ إلى نِعَـمِ

وكان لنصر الدولة شعراء يلازمون بلاطه، منهم ابن الظريف الفارقي، وابن السَّوادي، وابـن الفطيري، والشاعر الكبير الأمير حسين بن داود البَـشْنَوي، والمَنـازي (نـسبة إلى منـازكرد)، ولم يكن الشعراء وحدهم الذين أعجبوا بنصر الدولة، بل شاطرهم العلماء وأصحاب الفـن الـشعور ذاته، يقول ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

" وكان ﴿نصر الدولة﴾ مقـصداً للعلمـاء مـن سـائر الآفـاق، وكثـروا بـبلاده،... وقـصده الشعراء، وأكثروا مدحه، وأجزل جوائزهم ".

رجل السلام

ولم يكن نصر الدولة محباً للحروب، إنه كان حريصاً على الأرواح من الهلاك، وعلى البلاد من الخراب، لذا اختار منهجاً سلمياً في علاقات دولتـه بالـدول المجـاورة، وحـلّ المـشاكل عـن طريـق

التفاوض والتفاهم، قال ابن كثير في ذلك: " **وكان كثير المهادنة للملوك، إذا قصده عدوّ أرسل إليه بمقدار ما يصالحه به فيرجع عنه** ".

وقال ابن الجَوْزي في (المنتظم):

" **وكان إذا قصده عدوٌ يقول: كم يلزمني من النفقة على قتال هذا؟ فإذا قالوا: خمسون ألفاً. بعث بهذا المقدار، أو ما يقع عليه الاتفاق، وقال: ادفعوا هذا العدو** ".

أما على الصعيد الداخلي فقد شهد المؤرخون لنصر الدولة بنشر العدل، وبالعطف على الشعب، فهذا ابن كثير يصف انتشار الأمن والعدل في ربوع الدولة الدوستكية: " **وكانت بلاده آمن البلاد وأطيبها وأكثرها عدلاً** ". وقال ابن الأثير يشيد بسيرة نصر الدولة في رعيته: " **وسيرته في رعيته أحسن سيرة** ".

وقال الفارقي يصف ابتعاد نصر الدولة في حكمه عن الطغيان: " **وعظُم شأن نصر الدولة، وكبُر أمره، وتقرّرت مملكته، وفَعَل الخير، وعَدَل في الناس،... وفَعَل من الخير ما لم يفعله أحد من بيته وأهله** ".

وبتحقيق العدل وحسن المعاملة مع الرعية، وتوفير الأمن، تحقق الازدهار الاقتصادي، فأصبحت كردستان الوسطى واحة وارفة الظلال، يقصدها التجّار والصنّاع وأهل العلم، وهذا ما يؤكده الفارقي في تاريخه بقوله:

" **وانعمرت مَيّافارقين أيام نصر الدولة، وقصدها الناس والتجار وجماعة من كل الأطراف، واستغنى الناس في أيامه، وكانت أحسن الأيام ودولته غير الدول** ".

ملك يستضيف الطيور

اشتهرت الدولة الدوستكية في عهد نصر الدولة بالعطف على الغرباء، وأصبحت ملاذاً آمناً لعدد غير قليل من اللاجئين السياسيين في ذلك العصر، فيهم الملك والأمير والوزير، فكان نصر الدولة يرحّب بهم، ويعطف عليهم، ويبالغ في إكرامهم، ويوفّر لهم العيش اللائق بمكانتهم، لقد لجأ إليه- على سبيل المثال- الملك العزيز البويهي، والوزير أبو القاسم المغربي، والوزير ابن جَهِير الموصلي، وابن خان التركي، قال الفارقي في ذلك: " **وقصده الناس من كل جانب، وحصل كهفاً لمن التجأ إليه** ".

وفي سنة (٤٥٠ هـ) خرج البَساسِيري التركي (قُتل سنة ٤٥١ هـ) على الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وكان من مقدَّمي الأتراك ومن مماليك الملك بهاء الدولة البُوَيْهي، وخطب

للخليفة الفاطمي المستنصر بالله صاحب مصر، فهرب الخليفة القائم من بغداد إلى الحَدِيثة، وضاقت الدنيا بأسرته، فلم تجد أمّ ولي العهد الملاذ إلا في كنف الملك نصر الدولة، قال الفارقيني تاريخه:

" وخرجت السيدة ومعها أبو العبّاس محمد بن القائم - وهو الذخيرة أبو المقتدى- فقصدت السيدة ميّافارقين ومعها الذخيرة صغيراً، وخرج نصر الدولة إلى لقائهم، فأنزلهم واحترمهم وأضافهم، وأنفذهم إلى آمد، وأنزلهم في القصر، وتقدّم بما يحتاجون إليه ".

والطريف أن رعاية هذا الملك لم تقتصر على الناس، بل شملت الحيوانات أيضاً، وبكيفية لم نعهدها من سائر الملوك، فقد بلغه أن الطيور تجوع شتاء لكثرة الثلج، فترتاد القرى بحثاً عن الحبوب، فيصطادها الناس، فأمر الملك بفتح المخازن، ونثر الحبوب، فكانت الطيور في ضيافته طوال الشتاء مدة عمره، وهذا موقف إنساني فريد، لم أجده في سيرة خليفة أو سلطان أو ملك.

اعياد.. واعياد!

ومن تتبع سيرة الملوك المروانيين يجد أن الغالب عليهم هو نزوعهم إلى الرخاء والهدوء والسلم، والشغف بالحياة الرغيدة، وإقبالهم على الترف واللهو، وذكر الفارقي أنه كان لنصر الدولة ثلاثمئة وستون جارية حظايا، وكان نوبة إحداهن لا تصلها في السنة إلا مرة واحدة، وكان في كل ليلة له عروس جديدة، وكان له من المغنّيات والرقّصات وأصحاب سائر الملاهي ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين، وكان كلما سمع بجارية مليحة أو مغنّية مليحة طلب شراءها، وبالغ في مشتراها، ووزن أضعاف قيمتها.

قال الفارقي في تاريخه يلخّص النعيم الذي عاشه نصر الدولة:

" واستقرّ نصر الدولة في الملك، وملك ما لا يملك أحد مثله، وتنعّم بما لا يتنعّم أحد غيره".

وقال أيضاً: " وكانت أيامه كالأعياد ".

وقال ابن الأثير في هذا الصدد:

" وتنعّم تنعّماً لم يُسمَع بمثله عن أحد من أهل زمانه ".

ولا نستبعد أن يكون في الأخبار المتعلقة بإقبال نصر الدولة على الملذات شيء من المبالغة، لكن مع ذلك يبدو أنه أسرف في الترف ورغد العيش، وأنفق كثيراً من المال في هذا الباب، في

وقت كانت المخاطر تتربّص بدولته، ولا سيما من قبل السلاجقة الذين اندفعوا من الشرق، وبسطوا نفوذهم على فارس والعراق، وكانوا يخططون لاحتلال كردستان الوسطى.

إن الأوضاع الإقليمية حينذاك كانت تتطلّب من نصر الدولة أن يشمّر عن ساعد الجد، ويتحلّى بالعزم والحزم، ويهيّئ لدولته من القوة الذاتية ما يجعلها قادرة على مواجهة الأطماع المتربّصة بها، فالتوازنات الإقليمية والعلاقات السياسية وحدها غير كافية بصيانة استقلال الدول، لأنها عرضة للاختلال في كل وقت، وهذا ما لم يأخذه نصر الدولة بالحسبان، فشهد في أواخر عهده بأم عينيه كيف بدأ السلاجقة ينهشون دولته مرة بعد اخرى.

في ذمة التاريخ

ولم يطل الأمد حتى نفّذ السلاجقة مخطط احتلال كردستان الوسطى، وذكر الفارقي أنه في سنة (٤٣٤ هـ) أرسل السلطان طُغْرُلْبَك أميرين من أصحابه: أحدهما بُوقا، والآخر ناصغلي، وكانا من كبار القادة الأتراك، ومعهما عشرة آلاف فارس إلى ديار بكر، فأغاروا على البلاد، وأعملوا فيها السلب والنهب، وكان هذا أول ظهور للترك بهذه الديار، ولم يكن الكرد رأوا صورهم قبل ذلك.

ولم يطب السلطان طغرلبَك نفساً ببقاء الدولة الدوستكية خارج نفوذه، وذكر ابن الأثير أنه (طغرل بگ) " أرسل إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأطاعه وخطب له في سائر ديار بكر".

وهكذا خسرت الدولة الدوستكية استقلالها، وأصبحت تابعة للدولة السَّلجوقية، ومع ذلك لم يكتف السلطان السَّلجوقي طغرلبَك بما أبداه له نصر الدولة من تبعية، وإنما تولّى بنفسه الهجوم على الدولة الدوستكية، واحتل أجزاء منها، حسبما ذكر ابن الأثير في أحداث سنة (٤٤٨ هـ).

وتوفي نصر الدولة سنة (٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م)، وكان عمره نيّفاً وثمانين سنة، بعد حكم دام قرابة ثلاث وخمسين سنة، وخلف من الذكور نيّفاً وعشرين ولداً، وتلاه في الملك من بعده ولده نظام الدين، ونافسه أخوه الأمير سعيد مستعيناً بالسلاجقة، وظل شأن الدولة الدوستكية يتناقص، تارة بفعل التناحرات الداخلية، وأخرى بتأثير أطماع السلاجقة، وفي النهاية سقطت العاصمة ميّافارقين في أيدي السلاجقة، وزالت الدولة الدوستكية سنة (٤٧٨ هـ/١٠٨٦ م)، بعد أن عاشت مئة وست سنوات.

المراجع

١. ابـــن الأثـــير: الكامـــل في التـــاريخ، ٧٠/٩ — ٧١، ٣٣٦، ٣٤٧، ٤٠٩، ٦٠٦، ٦٣٠، ١٧/١٠، ١٤٤.

٢. ابن الجوزي: المنتظم، ٧٠/١٦ — ٧١.

٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ١٧٧/١ — ١٧٨.

٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٢٩٠/٣.

٥. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ١٠٤ — ١٧٧.

٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ٨٧/١٢.

٧. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٧٢/٥ — ٢٧٣.

وانظر:

- عبد الرقيب يوسف: الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى، الجزء الأول.

(٧)
الوزير العادل ابن السَّلّار
(توفى سنه ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م)

أديان.. وسياسات

ترى هل الأديان تبدأ سماوية، ربانية، نورانية.

ثم يحوّلها البشر إلى مظلات للسياسات ومطايا للمصالح؟

فالمتوقّع أن تكون اليهودية، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ديناً سماوياً ربانياً، لكننا نجدها تبدو على أنها مظلة للمصالح والمطامع، ونجد أن الإله (يَهْوَه) يعقد ميثاقاً أبدياً مع النبي أَبْرَامَ (ابراهيم) قائلا له:

" سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ. نَهْرِ الْفُرَاتِ. أَرْضَ الْقَيْنِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ. وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ. وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ ". (العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١٥، الآيات ١٨ — ٢١).

على أي أساس أبرم الإله (يَهْوَه) ذلك الميثاق الأبدي؟

وما مبرر تجريد شعوب كاملة من أوطانها وثرواتها؟

ولماذا قدّم تلك الأوطان منحة لقبيلة بدوية متشرّدة؟

لن نجد إجابات شافية لا عن هذه التساؤلات ولا عن مثيلاتها، فالإله السماوي، بعد أن يصبح سياسياً أرضياً، لا يحب أن يستمع إلا من طرف واحد، وذلك الطرف دائماً هو (الشعب المختار)، الشعب الذي يتفنّن في تقديم القرابين له، أما الشعوب الأخرى وعذاباتها، والمآسي التي تحلّ بها، فذلك ليس من شأن الإله الأرضي، وهو غير مستعد لأن يعرف تلك العذابات والمآسي، وليس هذا فحسب، بل إنه يجازي بالجنة كل من يصنع تلك العذابات.

وقل الأمر نفسه في الزردشتية.

إنها بدأت ديناً ربانياً أيضاً، فيها دعوة إلى الحياة الفاعلة السعيدة، وقد نادى بها النبي زردشت بين قومه الميد (أجداد الكرد)، في القرن السادس قبل الميلاد على الأرجح، لكن الميديين رفضوا دعوته، وعادوه وضيّقوا عليه، فرحل بعيداً إلى خراسان، واقتنص الفرس الأخميين تلك الدعوة الجديدة، واتخذوها أيديولوجيا لإسقاط الدولة الميدية، وتأسيس الدولة الأخمينية بدلاً منها.

وكذلك كانت المسيحية.

إنها بدأت، في القرن الأول الميلادي، ديناً ربانياً لطيفاً مسالماً، يقوم على:

" أحِبّوا أعداءكمْ. أحسنوا إلى مُبغضيكمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. وصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً. وَمَنْ أخذ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً ". (العهد الجديد، إنجيل لوقا، الأصحاح ٦، الآيات ٢٧ ، ٢٨، ٢٩).

وقد لاقت الدعوة المسيحية معاداة شديدة من قِبل السلطات الرومانية، ولقي أتباعها صنوفاً هائلة من التعذيب والتنكيل، ثم إذا بالملك الروماني قسطنطين يجعل من المسيحية أيديولوجيا لحشد الأنصار وتجييش الجيوش، ويتخذها مظلة لمقارعة منافسيه في هرم السلطة الرومانية، وإذا بها تصبح أيضاً ذريعة ليس لسلب الآخرين أرديتهم وثيابهم فقط، وإنما لغزو أوطانهم ونهب ثرواتهم، وتأسيس إمبراطورية عُرفت في التاريخ بالإمبراطورية البيزنطية.

نزاعات .. وثورات

وقل الأمر نفسه في الإسلام، فقد بدأ ديناً داعياً إلى العدل والمساواة، وجعل (التقوى) وحدها معياراً للتفاضل بين البشر، لكن ما إن توفي النبي محمد، سنة (١٠ هـ)، حتى اختلفت الأمور، وأطلّت النزاعات بين الفريق المهاجري المكي القرشي العدناني الأصل، والفريق الأنصاري المدني القحطاني الأصل، وساد الهَرْج والمَرْج في سَقِيفة بني ساعِدة، هذا في وقت كان فيه بنو هاشم منشغلين بتجهيز جثمان النبي محمد للدفن.

وحُسم الأمر لصالح الفريق القرشي غير الهاشمي، إذا سارع عمر بن الخطّاب إلى مبايعة أبي بكر الصدّيق خليفة، وكان من الطبيعي أن يردّ له أبو بكر المعروف، فيوكل إليه أمر الخلافة قبيل وفاته، ولما اغتيل عمر بعدئذ على يدي أبي لؤلؤة النَّهاوَنْدي وضع آلية ذكية، أرست الخلافة بموجبها على الصحابي الأموي الثريّ عثمان بن عَفّان، وليس على منافسه الهاشمي علي بن أبي طالب، ثم أصبح عثمان عرضة للانتقادات المريرة من قِبل أكثر الصحابة، وقُتل في داره سنة (٣٥ هـ) وهو يتلو القرآن.

ثم بايع بعض كبار الصحابة علي بن أبي طالب بالخلافة، وكان قد طال انتظاره وانتظار الهاشميين لها، لكن أحجم صحابة آخرون عن مبايعته، ثم صار الإحجام نقمة، ثم صارت النقمة عصياناً، ثم صار العصيان إعلاناً سافراً للحرب، فكانت (معركة الجمل) الطاحنة ضد علي، بقيادة عائشة زوجة النبي محمد الأثيرة وابنة الخليفة الأول أبي بكر، ثم كانت (معركة صِفّين) الطاحنة أيضاً ضد علي، بقيادة الزعيم القرشي الأموي معاوية بن أبي سفيان.

ثم قُتل الخليفة علي في عاصمته الكوفة بتدبير من أعدائه الخوارج، وعهد بالخلافة إلى ابنه الأكبر الحسن، ثم وجد الحسن أنه في موقف ضعيف جداً، فآثر السلامة، وتنازل عن الخلافة سنة (٤٠ هـ) لحاكم بلاد الشام الأموي القوي معاوية بن أبي سفيان، وقبض لقاء ذلك مبالغ هائلة من الأموال، وكثيراً من المزايا، وأطلق المؤرخون على ذلك العام اسم (عام الجماعة).

ورغم ذلك لم تتحقّق (الجماعة).

فقد أشعل الخوارج ثورات عنيفة، ونظّم الشيعة جبهة قوية للمعارضة، وحمل الحسين بن علي لواء المعارضة، وجرت معركة كربلاء، وسقط الحسين ومعظم أهل بيته صرعى، وأعطت تلك المذبحة قوة دفع للحركة الشيعية، فثار الشيعة ثورات ملتهبة، وجابههم خلفاء بني أمية – ما عدا عمر بن عبد العزيز- بالقسوة والبطش.

ونتيجة للسياسات الأموية القمعية لجأ الشيعة إلى العمل السري، واستقطبوا المَوالي (المسلمون غير العرب)، ولا سيما في خراسان (شرقي إيران)، وكسبوا بانضمامهم دعماً هائلاً، وكان الفرعان الهاشميان، الفرع العلوي (نسبة إلى علي)، والفرع العباسي (نسبة إلى العباس بن عبد المطلب)، قد وحّدا جهودهما، وعملا معاً تحت مظلة (آل البيت).

وبعد أن استكمل شيعة آل البيت قوتهم باشروا العمل العسكري، وزحفوا غرباً باتجاه العراق، وجرت المعركة الفاصلة بين الفريقين في جنوبي كردستان (شمالي العراق)، قرب نهر الزاب الأسفل سنة (١٣٢ هـ)، وخسر الخليفة الأموي مروان بن محمد المعركة، وفر إلى مصر فقتل فيها، وسيطر (آل البيت) على مقاليد الأمور.

وأبعد الفرع العباسي شريكه الفرع العلوي من السلطة، واستأثر بالخلافة استئثاراً مطلقاً، فكان الخليفة الأول أبا العباس السفّاح، ثم ورثها أخوه أبو جعفر المنصور، وفتك العباسيون بقادة الدعوة الذين كانوا يميلون إلى الفرع العلوي، ومنهم أبو سَلَمة الخلاّل.

لكن هل استسلم الفرع العلوي؟

كلاّ، وإنما خاض بعض قادتهم ثورات عنيفة ضد العباسيين، فبطش العباسيون بهم وبأنصارهم، وإزاء هذا البطش تشتّت قادة الحركة ودعاتها في أرجاء البلاد، بعيداً عن العراق مركز الخلافة، تارة في الشرق، وأخرى في الغرب، وكافحوا ضد العباسيين، وانقسم الفرع العلوي إلى فروع ثلاث رئيسة:

- الفرع الزيدي، نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين.
- الفرع الجعفري (الاثنا عشري)، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق.
- الفرع الإسماعيلي، نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق.

الخلافة الفاطمية

ومن الفرع الإسماعيلي ظهرت الأسرة الفاطمية، نسبة إلى فاطمة ابنة النبي محمد عليه السلام، ونشأت الدولة الفاطمية في شمالي إفريقيا، بمساعي الداعية أبي عبد الله الشيعي، فقد انتقل من اليمن إلى مكة، والتقى هناك بحجّاج من كُتامة- فرع من قبيلة صِنْهاجة الأمازيغية (البربر)- من المغرب،

واصطحبه الكتاميون إلى بلادهم، وكان ذلك سنة (٢٨٠ هـ/٨٤٣ م)، وهناك نشر أبو عبد الله الدعوة، ثم تحوّل إلى العمل العسكري، وأرسى أركان الدولة الفاطمية في المغرب سنة (٢٨٧ هـ).

وقام أبو عبد الله باستدعاء الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي من (سَلَمْيَة) قرب حمص السورية (تسمّى الآن: السَّلَميّة)، ووصل عبيد الله إلى المغرب سنة (٢٩٢ هـ)، وقضى الفاطميون على دولة الأغالبة وعلى الدولة الرُّستمية، وبويع عبيد الله بالخلافة، و لقّب بـ (المهدي أمير المؤمنين)، وامتد نفوذ دولته إلى طرابلس في ليبيا شرقاً، وبنى مدينة المهدية في تونس، واتخذها عاصمة له.

وتعارضت تطلّعات الدولة الفاطمية الشيعية مع سياسات الخلافة العباسية السنّية شرقاً، وأفلح الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله في السيطرة على مصر، ودخل القاهرة سنة (٣٦٢ هـ/٨٧٣ م)، واتخذها عاصمة لدولته، ثم توسّع النفوذ الفاطمي إلى بلاد الشام، ثم ما لبث الضعف أن دبّ في الخلافة الفاطمية، وتحكّم فيها الوزراء والقوّاد، وأصبحت القوة هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى منصب الوزارة والاحتفاظ بها.

ونتناول الآن سيرة أحد الوزراء الفاطميين.

إنه الوزير العادل ابن السلاّر.

فمن هو الرجل؟ وماذا عن سيرته؟

الأصل .. والنشأة

اسم ابن السلاّر هو علي، ونُعت بالملك العادل سيف الدين، واشتهر بابن السلاّر، وذكر ابن خَلّكان أنه وجد في أحد المصادر أن اسمه أبو منصور علي بن إسحاق، ولا مشكلة في ذلك، فألقاب الأشخاص وكناهم كانت تتغيّر أحياناً بتغيّر أحوالهم، ولعل اسم والده كان إسحاق، لكن طغى اسم العائلة (سلاّر) على اسم الأب، وحلّ محلّ، وسالار بالكردية يعني (القائد) فيما أعلم.

وقال ابن خَلّكان في (وفيات الأعيان):

" رأيت في بعض تواريخ المصريين أنه كان كردياً زَرْزارياً، وكان تربية القصر بالقاهرة، وتقلّبت به الأحوال في الولايات بالصعيد وغيره، إلى أن تولّى الوزارة للظافر ".

وقبيلة زَرْزاري قبيلة كردية عريقة، يعني اسمها بالكردية (ولد الذئب)، وتنتمي إليها الأسرة البرمكية الشهيرة، كما ينتمي إليها القاضي المؤرخ ابن خلّكان حفيد البرامكة، وقد أنجبت هذه القبيلة عدداً لا بأس به من المشاهير، وبرز منهم في القرن السابع الهجري بدر الدين السِّنْجاري قاضي القضاة في مصر، والأمير أحمد بن حَجّي، وكان من الأمراء المرموقي المكانة عند السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، بل كان يُعَدّ منافساً للوزير بهاء الدين بن حَنّا.

ويبدو أن بعض أبناء قبيلة زرزاري الكردية وظّفوا قدراتهم العسكرية في عهد التركمان السلاجقة، وقد تصارع الفاطميون الشيعة والسلاجقة السنّة على بلاد الشام، وكان الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجَمالي (أمير الجيوش) استرد القدس من الزعيم السّلجوقي سقمان بن أُرْتُق سنة (٤٩١ هـ/١٠٩٨ م)، فوجد فيها طائفة من عسكر سقمان، فضمهم الأفضل إلى جنده، وكان في جملتهم السلار والد العادل.

ويبدو أن السلار كان يمتاز بقدرات عسكرية رفيعة، وأنه قدّم إنجازات عسكرية ذات شأن، وارتفع مقامه عند الوزير الفاطمي، فمنحه لقب (ضيف الدولة) تقديراً لجهوده، وأكرم ولده علياً، وضمّه إلى مؤسسة (صبيان الحِجْر)، وكانوا يسمّون (صبيان الخاص) أيضاً.

وكان الفاطميون قد استحدثوا مؤسسة (صبيان الحِجْر) لأغراض عسكرية، إذ كانوا يضمّون إليها من أبناء الأمراء والأجناد والموظفين كل من تُوفّي والده، فيربّونه على الولاء للبيت الفاطمي، ويدرّبونه على فنون القتال والفروسية، ثم يزوّدونه بفرس وبعدّة الحرب، فيكون على أهبة الاستعداد للقيام بأية مهمّة قتالية طارئة، وهو يشبه نظام المماليك عند الأيوبيين.

وإذا تميز صبي ما من هؤلاء بالفطنة ورجاحة العقل، وبالبسالة والشجاعة، رُقّي إلى مرتبة الإمرة (القادة)، وكان الفتى علي بن السلار ممن يمتاز بتلك الخصال الرفيعة، إضافة إلى اتصافه بالحزم والجد في مباشرة الأمور، وترك المخالطة والهزل، وهذا هو شأن معظم مشاهير الكرد على الصعيدين العلمي والعسكري، فرقّاه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله إلى مرتبة الأمراء، وعيّنه والياً على الإسكندرية، ثم راحت منزلته تتقدّم أكثر فأكثر.

وكان قد وصل من شمالي أفريقيا إلى مصر أبو الفضل عباس بن أبي الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس الصِّنْهاجي، وهو صبي ومعه أمه واسمها بلارة، فتزوجها علي بن السلار، وأقامت عنده زماناً، وقبيلة كُتامة الأمازيغية (البربرية) هي فرع من قبيلة صِنهاجة الأكبر والأوسع انتشاراً في المغرب والجزائر وربما في تونس أيضاً.

وكان لصِنْهاجة عامة، ولكُتامة خاصة، دور أساسي في قيام الدولة الفاطمية ورسوخها، بل إن هذه الدولة نشأت وترعرعت في أكناف صِنهاجة الأمازيغية، ولذا لم يكن عباس الصِّنهاجي شخصية عادية، ولا أستبعد أن يكون العادل قد أخذ هذا الأمر في الحسبان حينما عقد قرانه على والدة عباس، وكأنه أقام بذلك تحالفاً مع القوة الأمازيغية داخل مؤسسة الحكم الفاطمية، ولا سيما أن عباساً الصنهاجي أصبح والي الغربية (المنطقة المتاخمة لليبيا) في مصر، فكا من ثم جار العادل والي الإسكندرية والبحيرة.

في منصب الوزارة

كان الخلفاء الفاطميون المتأخّرون أضعف من أن يأخذوا كل السلطات في أيديهم، وأصبح القادة والولاة الأقوى هم الذين يفرضون أنفسهم على الخليفة وعلى الحاشية، ويستولون على الوزارة، ويديرون أمور الدولة بالكيفية التي يشاؤون، وقد حدث مثل ذلك في عهد الخلفاء العباسيين المتأخرين، حينما استبد الضباط الأتراك بشؤون الدولة.

وكانت الدوائر السياسية في مصر قد شهدت، بعد موت الخليفة الحافظ لدين الله، واعتلاء ابنه الظافر بالله سدّة الخلافة، صراعاً حامياً بين الجند السودان والجند الأتراك، داخل المؤسسة العسكرية الفاطمية، وظهر التنافس بين الأمراء على منصب الوزارة، وفي خضم ذلك الصراع فاز بالوزارة شخص ليبي الأصل، هو الأمير نجم الدين سليم بن محمد بن مصال، ومنحه الظافر لقب (الأفضل أمير الجيوش سعد المُلك ليث الدولة).

غير أن مدة بقاء ابن مصال وزيراً لم تتجاوز خمسين يوماً، فقد واجه معارضة قوية من جانب علي بن السلار، والي الإسكندرية والبحيرة، ورفض أن يلي الوزارة شيخ مثل ابن مصال، ووقف والي الغربية عباس الصنهاجي مع العادل زوج أمه ضد ابن مصال، ولم يعبأ ابن السلار بتأييد الخليفة الظافر لابن مصال، وأقبل من الإسكندرية زاحفاً بجنده على القاهرة، وانتزع الوزارة من ابن مصال بالقوة، ودخل القاهرة، وفرض سلطته، وأجبر الظافر على تعيينه وزيراً، " **وتولّى تدبير الأمور، ونُعت بالعادل أمير الجيوش** " حسبما قال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان)، ولقّبه الظافر بـ (العادل سيف الدين ناصر الحق).

لكن الوزير ابن مصال لم يستسلم للعادل، وإنما فرّ من القاهرة، ثم حشد مقاتلين من المغاربة وغيرهم، ورجع — بتأييد ضمني من الخليفة الظافر- لمهاجمة العادل واسترداد منصب الوزارة، فجهّز العادل جيشاً لمحاربته بقيادة ربيبه عباس، والتقى الفريقان المتصارعان في صعيد مصر، وخسر ابن مصال المعركة، وقتل، وحُمل رأسه على رمح، وطيف به، وكان ذلك سنة (٥٤٤ هـ).

على أن الخليفة الظافر لم يطب نفساً بسيطرة العادل على مقاليد الوزارة، قال ابن تَغْري بَرْدي في (النجوم الزاهرة):

" **ولم يصفُ بين الخليفة والوزير عيش قطّ، وجرت بينهما أمور، وثبت عند ابن سلاّر كراهة الخليفة فيه، فاحترز على نفسه منه، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة** ".

وكان من الطبيعي أن يحصل التنافر بين الخليفة ووزيره، لأنهما كانا على طرفي نقيض فكراً وانتماء وسلوكاً، فالخليفة الظافر شيعي فاطمي، يهمّه ترسيخ النفوذ الشيعي الفاطمي، والوزير العادل سنّي متعصب للمذهب الشافعي، راح يعمل جهاراً لنشر الفكر السني الشافعي، فأثار عليه نقمة الخليفة

الظافر ورجال دولته، ثم إن الخليفة- حسبما قال الذهبي في (تاريخ الإسلام، أحداث سنة ٥٤٨ هـ)- " كان شاباً، صبياً، لعّاباً، له نهمة في الجواري والأغاني "، في حين كان العادل عسكرياً جاداً حازماً، لا يحب الهزل.

وهكذا صار كل من الخليفة ووزيره يرتاب في الآخر، ويتوهّم أنه يدبّر أمر قتله، فأحاط العادل نفسه بحوالي ستمئة من الحرس الخاص المدجّجين بالسلاح، وجعلهم نوبتين، يمشون معه حيثما تنقّل، وكان للخليفة خمسمئة حارس من غلمان (صبيان الخاص)، وفيهم من هو أمير، قال المقريزي في (اتعاظ الحنفا):

" فبلغ ابن السلاّر أنهم قد تحالفوا وتعاقدوا على أن يهجموا عليه وهو في داره ليلاً ويقتلوه. فلما كان في سادس عشر رمضان أغلق القاهرة والقصور، وأحاط بصبيان الخاص وقتلهم، وفرّ منهم عدّة، فكتب إلى الولاة بقتل من ظفر به منهم. وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم ".

شخصية ابن السلار

ما كان العادل ليستطيع أن يثبت وجوده في مصر لولا اتصافه بخصال متميّزة، فقد كان العصر عصر (البقاء للأقوى)، وكان الأكثر جدارة هو الذي يفرض مكانته على الآخرين، ولم تكن تلك الخصال طارئة على شخصية العادل، وإنما كانت إرثاً انتقل إليه من والده السلار كما سبق القول، قال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان):

" وكان ﴿ابن السلار﴾ شهماً مقداماً، مائلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، عمّر بالقاهرة مساجد، ورأيت بظاهر مدينة بَلْبِيس مسجداً منسوباً إليه، وكان ظاهر التسنّن، شافعي المذهب، ولما وصل الحافظ أبو طاهر السِّلَفي، رحمه الله تعالى، إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به،... احتفل به، وزاد في إكرامه، وعمّر له هناك مدرسة فوّض تدريسها إليه، وهي معروفة به إلى الآن، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها ".

وإلى جانب هذه الخصال كان العادل يتصف بالقسوة والبطش، وصحيح أن بطش الحكّام كان أمراً عادياً في ذلك العصر، وفي ذلك المُناخ السلطوي، لكن بطش العادل كان يأخذ أحياناً أشكالاً رهيبة، قال ابن العماد الحنبلي في (شذرات الذهب):

" وكان ابن السلاّر سنياً شافعياً شجاعاً مقداماً، بنى للسلف مدرسة معروفة، لكنه جبّار عنيد، ظالم شديد البأس، صعب المراس ".

وجاء في (سير أعلام النبلاء) للذهبي:

" وكان علي بن السلار من أمراء الأكراد، ومن الأبطال المشهورين، سنياً مسلماً، حسن المعتقد شافعياً، خمد بولايته نائرة ﴿عداوة﴾ الرفض ﴿التشيّع﴾،... واحترم السِّلَفي، وأنشأ له المدرسة العادلية، إلا أنه كان ذا سطوة، وعسف، وأخذٍ على التهمة ".

وقال ابن خلّكان يذكر قسوة العادل (وفيات الأعيان):

" وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاطعة، يؤاخذ الناس بالصغائر والمحقّرات ﴿توافه الأمور﴾".

وأورد ابن خلكان وغيره أن العادل قبل تولّيه الوزارة كان قد شكا إلى رئيس الديوان القاضي الموفّق أبي الكرم غرامة لزمته، فلم يعبأ به الموفق، فأعاد العادل عليه الطلب، فقال له الموفّق:" والله إن كلامك ما يدخل في أذني أصلاً ". فخرج العادل من عنده غاضباً. ولما تولّى الوزارة، طلب إحضار الموفّق الذي كان قد اختفى، وعاقبه بإدخال مسمار ضخم في أذنه، وكان كلما دخل المسمار في أذن الموفّق استغاث، فيقول له العادل:" دخل كلامي في أذنك بعدُ أم لا"؟!

مصرع الوزير

مر أن ابن السلار تزوّج والدة عباس الصِنْهاجي، ورُزق عباس ولداً سماه نصراً، وكان نصر مقيماً عند جدته زوجة العادل، والعادل يحنو عليه ويعزه، وكانت بين الخليفة الظافر ونصر علاقة حميمة، إلى درجة غير عادية، وكان كل منهما وسيماً مليح الشكل، ولم يرتح العادل إلى هذه العلاقة بين الخليفة ونصر، ونصح عباساً بكبح جماح ابنه، لكن استمر الظافر ونصر على حاليهما، وقيل إن الظافر حرّض نصراً على قتل العادل زوج جدته، لكن ابن خلّكان وغيره ممن كتب سيرة العادل أوردوا خبراً مفاده أن الأمير العربي أسامة بن منقذ هو الذي حرّض عباساً وولده نصر على اغتيال العادل، قال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان):

" ثم إن العادل جهز عباساً إلى جهة الشام بسبب الجهاد، وكان معه ﴿عباس﴾ أسامة بن منقذ، فلما وصل إلى بلبيس وهو مقدم الجيش الذي صار في صحبته تذاكرا طيب الديار المصرية وحسنها وما هي عليها، وكونه يفارقها ويتوجّه للقاء العدو،... فأشار عليه أسامة على ما قيل بقتل العادل، ويستقل هو بالوزارة،... وتقرر بينهما أن ولده نصراً يباشر ذلك إذا رقد العادل، فإنه معه في الدار، ولا يُنكَر عليه ذلك، وحاصل الأمر أن نصراً قتله على فراشه يوم الخميس سادس المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمئة، بدار الوزارة بالقاهرة المحروسة، رحمه الله تعالى ".

ويستفاد مما أورده المقريزي في كتابه (اتعاظ الحنفا)، ومما أورده الدكتور محمد سهيل طقوش في كتابه (تاريخ الفاطميين) أن أكثر من حرّض على قتل العادل شخصان: الخليفة الظافر، وكان بينه وبين العادل

نفور، وأسامة بن مُنقذ، وكان أسامة صديقاً لعباس، وقد لاحظ نقمة عباس على الوزير، لتكليفه بقيادة الجيش إلى لقاء العدو، وحرمانه من ملذات العيش في القاهرة، فحثّ عباساً على أن يستغل التنافر بين الخليفة والعادل، ويقتل العادل، ويستقل بالوزارة، ولقيت نصيحة أسامة قبولاً عند عباس، فكلّف ولده نصراً بالمهمة، ونفّذ نصر المهمة بنجاح، وكان العادل قد أمضى في الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر.

الانتقام

فور مقتل العادل رجع عباس بالجيش إلى القاهرة، وعيّنه الخليفة الظافر في منصب الوزارة بدلاً من العادل، لكن أثارت عملية القتل حنق أنصار العادل، فشغبوا عليه، وخرجوا من مصر قاصدين الشام، كما أن أهل السنّة لم يرضوا بقتل العادل، وأسرّوا ذلك في نفوسهم، واستوحش بعض الأمراء من أسامة بن منقذ، حتى إنهم همّوا بقتله.

وسرعان ما دبّ الخلاف بين حلفاء الأمس، فتخاصم عباس وابنه نصر، بعد أن نقل أسامة إلى عباس شائعة مفادها أن الظافر يفعل مع نصر ما يفعل مع النساء، كما أن الظافر راح يحبك المؤامرات ضد وزيره الجديد، لأنه لم يكن مخلصاً في تشيّعه، حتى إنه حرّض صديقه نصراً على قتل والده، فقرر عباس أن يتغدّى بالخليفة قبل أن يتعشّى هو به، فنقل خبر الشائعة إلى نصر، فغضب نصر، وقرر الأب والابن، بتأييد من صديقيهما أسامة، الفتك بالخليفة، فاغتالاه بينما كان نائماً في قصر نصر، إثر زيارة ليلية سرية، ثم فتكا بكل من جبريل ويوسف أخوي الخليفة، بعد اتهامهما بقتل أخيهما، وأجلسا مكانه ابنه عيسى وهو طفل، ولقّباه (الفائز بنصر الله).

على أن أمر قتل العادل وقتل الظافر لم يمر بسهولة، وذكر الدكتور محمد سهيل طقوش في كتابه (تاريخ الفاطميين) أن جماهير القاهرة عرفت الحقيقة، ونشبت الاضطرابات في الشوارع، وألقى الناس الحجارة على عباس وابنه، واعتزلهما الأعوان، فهربا مع أسامة قاصدين بلاد الشام، حاملَين معهما الأموال والتحف، ونهب العامة دُورهما، وفي الطريق انقضت عليهم القوات الفرنجية، فأفلت أسامة، وفرّ إلى بلاد الشام، ولقي عباس مصرعه، ووقع نصر في الأسر، وعرض نساء قصر الخلافة على الفرنج ثلاثين ألف دينار مقابل إعادة نصر إلى مصر، فقبل الفرنج العرض، وسيق نصر مكبّلاً إلى القاهرة، فشُنق على باب زويلة.

- - -

وثمة سؤالان يتبادران إلى الذهن:

- الأول: هل استشف الخليفة الظافر أن وزيره العادل يعمل لنشر الفكر الشافعي، ولاستعادة المذهب السني في مصر، ليُلحقها من ثَم بالخلافة العباسية، ويقضي على الدولة الفاطمية؟

- والثاني: هل كان العادل يسعى فعلاً في ذلك الاتجاه؟

إن كل من كتب عن العادل يؤكد أنه كان يُظهر تسنّنه، وأنه كان مهتماً بنشر الفقه الشافعي السني في مصر، ولذا احتفى بالحافظ أبي طاهر السلفي، وبنى له المدرسة العادلية، وفوّض إليه أمر التدريس فيها، وكان القادة الفاطميون خير من يدرك دور الفكر في التهيئة للانقلابات الإيديولوجية، ودور هذه الأخيرة في التحضير للتحوّلات السياسية، وما كانوا ليقبلوا بأن يجلس العادل في حضنهم، ويشرع في نتف لحاهم كما يقول المثل الكردي، وأحسب أن صداقة الظافر الحميمة مع نصر ربيب العادل كانت مبرمجة للقضاء على الوزير المتمرد.

وحققت الصداقة أهدافها.

المراجع

١. ابن تغري بَردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٩٩/٥.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤١٦/٣، ٤١٧.

٣. الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، أحداث سنة ٥٤٨ هـ.

٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٤٩/٤.

٥. الدكتور محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، ص ٤١٥ – ٤١٦.

٦. المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ٢٧٦/١.

وانظر:

- الدكتور إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي السياسي.
- الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء.
- الدكتور محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية.

(٨)

القائد العسكري شيركوه الأيوبي

(توفي سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م)

صانعو التاريخ

صانعو التاريخ ثلاثة: المثقف، والسياسي، والتاجر.

أما المثقف فهو صاحب (الفكرة) ومبدعها.

وأما السياسي فهو الذي يحوّل (الفكرة) إلى (موقف عملي).

إنه يجسّدها في نظام وإدارة، وفي بناء علاقات داخلية وخارجية.

وأما التاجر فيبقى وراء الستار، متربّصاً بجهود كل من المثقف والسياسي، حتى إذا أثمرت وآتت أُكُلها انقضّ عليها، واستأثر بها، مستغلاً في ذلك حقيقة أن الشعوب - وليست الجيوش وحدها- تزحف على بطونها.

وتعالوا نقلّبْ أسفار التاريخ قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً.

سنجد أنه ما من دين انتشر، ولا مذهب ساد، ولا أيديولوجيا ترسّخت، ولا أمة نهضت، ولا دولة تأسّست، ولا إمبراطورية توسّعت، ولا قوة هيمنت، إلا كان صاحبها في البداية نبياً، أو فيلسوفاً، أو مفكراً، أو عالماً، أي أنه كان مثقفاً، وقد يكون المثقف نفسه سياسياً، وقد يكون المثقف سياسياً وتاجراً، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ القديم والحديث.

أقول هذا ليس تحيّزاً للثقافة، ولا تمجيداً للمثقفين، بل إقراراً بالواقع، ولفتاً للانتباه إلى الموقع الرائد للمثقف في المجتمعات، وتذكيراً للمثقفين أنفسهم بالمهمات الملقاة على كواهلهم، إنها مهمّات كبرى، ولذا فهي صعبة، ولا عجب، فالقابض على الثقافة الحقيقية كالقابض على الجمر.

جسور.. لا خنادق

ومن أعظم مهمّات المثقف الحقيقي- كائناً من كان- أن يكون صاحب مشروع إنساني، فيقيم الجسور بين الشعوب، ويجعل الطرق بين الأديان والمذاهب سالكة، لا أن يحفر الخنادق، ويقيم الحواجز، وينصب الأسلاك الشائكة. ومن أنبل إنجازاته أن يضيء الدروب، ويؤلّف القلوب، ويوسّع الرؤية، ويعمّق الودّ في النفوس، لا أن يبذر الأحقاد، ويوقظ الضغائن، ويثير العداوات، ويجدّد الخصومات.

وتلك هي مهمّات مثقّفي شرقي المتوسط، ولا سيما في عصرنا هذا.

وهذا ما أحرص عليه مخلصاً، وأسعى إليه جاهداً.

ومع ذلك أجدني مضطراً، في ترجمة القائد الكردي شيركوه، إلى ذكر بعض الصراعات الدينية القديمة؛ فتغييبها يكون تغييباً لحقائق تاريخية، واقتلاعاً للمعلومات من سياقاتها، هذا مع نفوري من إحياء مشكلات عفا عليها الزمن، أو تجديد التناحر حول قضايا أصبحت في ذمة التاريخ، فالمفروض – فيما يراه كل عاقل- أن تتجه البشرية نحو الأمام لا إلى الوراء، وأن تسعى الشعوب نحو علاقات أكثر ودادة وتكاملاً، ونحو حياة أوفر طمأنينة وسلاماً وسعادة.

فمن هو شيركوه؟

بل قبل ذلك: ماذا عن عصره؟

احداث على تخوم القوقاز

أما الاسم فهو شيركوه، ويعني بالكردية (أسد الجبل).

وأما اللقب فهو أسد الدين، على عادة أعلام ذلك الزمان.

وأما كنيته فهي أبو الحارث، وكان العرب يطلقون الكنى على بعض الحيوانات، فالثعلب كنيته (أبو الحُصَين)، والضبع كنيته (أم عامر)، والأسد كنيته (أبو الحارث)، ولا بد أن شيركوه كان على علم بهذه الحقائق في التراث العربي، فاختار كنيته بشكل تتوافق فيه دلالة الأسد بالصيغة الكردية (شيركوه) مع الصيغة العربية (أبو الحارث).

وأما والده فهو (شاذي)، حسبما ورد في أغلب المصادر العربية الإسلامية، وهو تعديل للصيغة الكردية (شادي)، وتعني بالكردية: (السعيد) فيما أعلم.

وشيركوه هو عمّ السلطان صلاح الدين، ويبدو أن شهرة ابن الأخ غطّت على شهرة العمّ، والحق أنه كان وراء عظمة صلاح الدين مربّيان كبيران: أما في رجاحة العقل وحسن السياسة فوالده نجم الدين أيوب. وأما في البسالة والفروسية وقيادة الجيوش، وتحقيق الانتصارات، فعمه أسد الدين شيركوه.

وبداية لا بد من القيام برحلة عبر التاريخ زماناً ومكاناً.

أما زماناً فإلى القرن الرابع الهجري/الحادي عشر الميلادي.

وأما مكاناً فإلى تخوم القوقاز (قفقاسيا) شمالاً وشرقاً، وتحديداً إلى حيث تقع اليوم دول ثلاث : "هي جمهورية أذربيجان، وجمهورية جورجيا، وجمهورية أرمينيا، ولم يكن وجود الكرد في تلك المناطق طارئاً، وإنما كان يمتد إلى ما قبل الميلاد بأكثر من ألف عام، حتى إن البلاذري، في

كتابه (فتوح البلدان، ص ٢٠٣)، يسمّى نهر كارني الذي عبره حبيب بن مسلمة الفِهْري سنة (٢٢ هـ / ٦٤٣ م) باسم (نهر الأكراد)، وذكر ابن حوقل في كتابه (صورة الأرض، ص ٢٩١) أنه كان في بَرْذَعة – وهي كبرى مدن الرّان (أرّان) - باب يسمى (باب الأكراد)، وكان ثمة تداخل كبير بين شعوب سمّيت بعدئذ كرداً وفرساً وأرمناً وآذريين وجورجيين، وكانت أسماؤها قبل ذلك: الميد، والأخمين، والبرث، والخالديين، واللان، والسكيث، والتات.

وقد وصلت الفتوحات الإسلامية إلى تلك المناطق في القرن الأول الهجري، وكان الأرمن والجورجيون وشعوب قفقاسية أخرى قد اعتنقت المسيحية قبل ظهور الإسلام، أما الكرد فكانوا زردشتيين، لكنهم تحوّلوا رويداً رويداً إلى الإسلام، وأصبحوا القوة القتالية الإسلامية الضاربة في جنوبي القوقاز، ووقع على كاهلهم – بفعل موقعهم الجغرافي- أن يقوموا بعبء الدفاع عن الدولة الإسلامية في الجبهة الشمالية الشرقية، ويدخلوا من ثَمّ في صراعات وحروب طويلة وعنيفة، شمالاً ضد الشعوب المسيحية التابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وغرباً ضد الدولة الرومية (البيزنطية) حامية الكنيسة الكاثوليكية، ومعروف أنه لما سقطت القسطنطينية – عاصمة الروم- تحت ضربات الترك العثمانيين سنة (١٤٥٣ م) انتقل مركز الكنيسة الأرثوذكسية إلى روسيا.

وفي خضم تلك الصراعات الدينية، وصموداً في وجه الهجمات القادمة من الشمال والغرب، أقام الكرد كيانات سياسية جنوبي القوقاز، بدأها في أذربيجان قائد من أب عربي وأم كردية يسمّى ديسم بن إبراهيم الكردي، ودام حكمه (١٨) ثماني عشرة سنة (٣٢٧ – ٣٤٥ هـ/٩٣٨ – ٩٥٦ م)، ثم ظهرت الدولة الرُّوادية- نسبة إلى مؤسسها محمد بن حسين الروادي- في أذربيجان على أنقاض الدولة السالارية الديلمية، واتخذ الروادييون تبريز عاصمة لهم سنة (٣٤٣ هـ/٩٥٤ م)، وأفل نجمهم السياسي سنة (٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م)، بعد حكم دام قرابة (١١٧) مئة وسبع عشرة سنة.

وأقام الكرد الدولة الشدادية – نسبة إلى مؤسسها محمد بن شداد- سنة (٣٤٠ هـ/٩٥١ م)، وحكم الشداديون المنطقة الواقعة بين نهر الكُر شمالاً، ونهر آراس (آراكس= الرسّ) جنوباً، ويسمّى الجغرافيون المسلمون تلك المنطقة باسم أرّان (الرّان)، وهي مقسّمة الآن بين أذربيجان وأرمينيا، وتقع فيها منطقة قَرَه باغ ونَشْوى (نخجڤان/نَخْجوان) المتصارع عليها بين الدولتين، والتي قامت فيها جمهورية لاتْشِين الكردية في عهد الزعيم السوفييتي لينين، ثم قُضي عليها في

عهد ستالين بتحريض من الآذريين. كما حكم الشداديون بعض أرمينيا، ومن مدنهم المركزية هناك دَبيل وجَنْزَة (كَنْجة، ويُظن أنها دُوين)، وبَرْذَعة، وآني، وزال حكمهم سنة (٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م).

وكانت هاتان الدولتان معاصرتين لدولة كردية أخرى ذات شأن، هي الدولة المروانية (الدوستكية)، والحقيقة أن هذه الدول الكردية كانت تحمي تخوم العالم الإسلامي- ولا سيما العراق دار الخلافة- من جهة الشمال، وقد سقطت جميعها تحت ضربات التركمان السلاجقة القادمين من الشرق، والذين هيمنوا على إيران والعراق، ودخل ملكهم طُغْرُلْبَك بغداد سنة (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)، وأزال الدولة البويهية، وفاز باعتراف الخليفة العباسي القائم بأمر الله، ثم انطلق السلاجقة شمالاً نحو كردستان فبلاد الروم، وغرباً وجنوباً نحو بلاد الشام.

إلى تكريت

وإثر التصدّع الذي أصاب الدول الكردية في جنوبي القوقاز، على أيدي السلاجقة كما مر، تشردّت الأسر الكردية ذات الشأن، ومنها أسرة شادي الرَّوادي نسبة إلى (رُو آدي)، وتعني (الشمسانيون)، أي الميثرائيون، وهي ديانة الكرد قديماً قبل الزردشتية، وتوجّهت هذه الأسرة من دُوين في أرمينيا إلى جنوبي كردستان، ومنها إلى العراق، وكان شادي من أشراف العشيرة الروادية، وعشيرة روادي هي فرع من قبيلة هَذْباني (هَذْباني) الكردية الكثيرة الانتشار في مناطق جنوبي القوقاز (أذربيجان، أرمينيا، جورجيا).

وبدأ أول ظهور لشيركوه في كتب التاريخ وهو يتوجّه مع والده شادي وأخيه الأكبر أيوب إلى العراق، وهناك التحقوا جميعاً بمجاهد الدين بَهْرُوز، صديق شادي القديم، وكان بَهْرُوز شِحْنة بغداد (وزير الداخلية باللغة المعاصرة)، فعيّن صديقه شادي دِزْداراً (قائداً للشرطة) في مدينة تكريت، وكانت تابعة له، وبعد وفاة شادي أسند بهروز المنصب إلى نجم الدين أيوب بن شادي، إذ رأى فيه "عقلاً ورأياً وحسن سيرة " كما قال أبو شامة في (عيون الروضتين).

وكانت الخلافات قد اشتدت بين قادة البيت السَّلجوقي الحاكم، وكان حاكم الموصل عماد الدين زنكي قد انضم إلى مسعود بن محمد بن مَلِكشاه سنة (٥٢٦ هـ/١١٣٢ م)، وقدما لحصار بغداد، واستخلاصها من أيدي الفريق السَّلجوقي الآخر، لكن سَلْجوق شاه بن محمد بن مَلِكشاه تصدّى لأخيه مسعود، ودارت معركة بين الفريقين، انتهت بهزيمة مسعود ومن معه، فتقهقر

عماد الدين بجنوده شمالاً، وساعده نجم الدين على اجتياز نهر دجلة بجيشه، والخلاص من انتقام خصومه الذين كانوا يطاردونه، وهذا ما أثار غضب مجاهد الدين بهروز.

وفي سنة (٥٣٢ هـ/١١٣٧ م)- وهي السنة التي ولد فيها صلاح الدين- يظهر شيركوه مرة أخرى، لكن في مشهد عنيف هذه المرة، فقد قتل أحد كبار الضباط أو الموظفين في حامية قلعة تكريت، لخصومة كانت بينهما، فطلب بهروز من نجم الدين وأخيه الخروج من تكريت، فتوجّها بمن معهما من الأتباع إلى الموصل، حيث يحكم صديقهما عماد الدين.

ومن الطبيعي أن يرحّب عماد الدين بأيوب وأخيه شيركوه، أولاً لردّ الجميل، وثانياً لأنه صاحب مشروع سياسي في شرقي المتوسط، يتمثّل أول ما يتمثّل في مقارعة الفرنج، وتوسيع حدود دولته في الأناضول وبلاد الشام، وها هو يجد بين يديه قوة قتالية كردية متمرّسة، يقودها قائدان يتميّزان بالحنكة والبسالة، وما عليه إلا أن يجيد توظيف هذه القوة في تحقيق مشروعه الطموح.

في جيش زنكي

عمل كل من نجم الدين و شيركوه في الجيش الزنكي، وحينما بدأ عماد الدين هجومه على جنوبي سوريا سنة (٥٣٤ هـ) عيّن نجم الدين حاكماً على قلعة بعلبك في لبنان، ويبدو أن الأخوين أصبحا من القوى المؤثرة في الدولة الزنكية، إذ نجدهما، بعد اغتيال عماد الدين على أيدي بعض خدمه سنة (٥٤١ هـ)، يقفان إلى جانب ولده نور الدين محمود، وذلك في خضم التنافس على السلطة بين أبناء عماد الدين الأربعة، واستطاعا أن يحسما الأمر لصالحه، فحل محل والده في كرسي الحكم.

بل إن استعراضاً سريعاً لنشاطات عماد الدين جيوسياسياً وتعبوياً لا تدع مجالاً للشك في أن المناطق الكردية، جغرافياً وبشرياً واقتصادياً، كانت حصنه الحصين، كما أنها كانت نقطة انطلاقه لخوض المعارك ضد الفرنج شمالاً وغرباً نحو الأناضول، وجنوباً وغرباً في بلاد الشام، وقد ذكر أبو شامة، في (عيون الروضتين)، مسألة تولّي عماد الدين ولاية الموصل، بعد مقتل والده قسيم الدولة آقْ سُنْقُر خلال الصراعات السّلجوقية الداخلية، فقال:

" فأخذ جزيرة ابن عمر ﴿جزيرة بوتان﴾ وإربل، وسِنجار، والخابور، ونَصيبين، ودارا، وبلاد الهكّارية، وبنى قلعة العمادية، وملك من ديار بكر، طَنْـزة، وسعرد ﴿سيرت﴾، ومدينة المَعْدن، وحَيزان، وحاني، وعانة، وغيرها، واستولى على قلاع الحميدية وولاياتهم من العَقْر، وقلعة شُوش".

وبعد أن بسط عماد الدين نفوذه على كل تلك المناطق- وهي كردية في غالبيتها العظمى- وأسس قاعدة متكاملة الموارد عسكرياً وبشرياً واقتصادياً، انطلق نحو بلاد الشام، يقول أبو شامة في (عيون الروضتين):

" وعبر الفرات، فملك منبج، وحلب، وحماة، وحمص، وغيرها، وفتح شَيْزَر، وبَعلبكّ، وحاصر دمشق".

واستكمل نور الدين تنفيذ مشروع والده الطموح، وهو توسيع دولته في كردستان وبلاد الشام والأناضول، وما كان ليتمكن من ذلك إلا بمقارعة الفرنج، وكان هؤلاء يسيطرون على منطقة شاسعة الاتساع في شرقي المتوسط، تبدأ من منطقة الرُّها (أورفه) شمالاً، وتنتهي بالعريش في مصر جنوباً، ومروراً بكل السواحل الشامية، وبعض مناطق الداخل حتى أبواب حلب.

الرجل الثاني

إن قدرات شيركوه العسكرية، من حيث التخطيط والقيادة والتنفيذ، إضافة إلى شجاعته وبسالته، جعلت منزلته ترتفع عند نور الدين، وقديماً قيل: إن الطيور على أشكالها تقع، وقد كان السلطان نور الدين زنكي متصفاً بالوقار والهيبة، وبحسن القيادة، وبالبسالة والشجاعة، ومن الطبيعي أن يكون أول من يكتشف عبقرية شيركوه الحربية، وهذا ما تمّ فعلاً، فقد جعله كبير قوّاده، وكان منصبه شبيهاً بمنصب وزير الدفاع في عصرنا هذا.

بل كان نور الدين يسند إلى شيركوه المهامّ التي يعجز عنها الآخرون، ويعدّه كبير قوّاده (وزير دفاع بلغة عصرنا)، ويتعامل معه باعتباره الرجل الثاني في الدولة، ولا ننس أن شيركوه، وبالتعاون مع أخيه نجم الدين، أفلح في فتح دمشق، وضمها إلى الدولة الزنكية، ولا يجهل كل قارئ لتاريخ تلك الفترة مكانة دمشق الخطيرة في الصراع ضد الفرنج. وكان نور الدين يدرك أهمية ذلك الإنجاز، فكافأ كلاً من نجم الدين وأخيه شيركوه مكافأة كبرى، وقد ذكر أبو شامة ذلك في (عيون الروضتين) قائلا:

" وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيما نجم الدين، فإنّ جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم، أو أحدهم بذلك، إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل قعد من غير أن يؤمر بذلك ".

وذكر أبو شامة أن نور الدين مرض ذات مرة، فحُمل في محفّة إلى قلعة حلب، "وأوصى أن يكون أخوه نصرة الدين في منصبه مقيماً في حلب، وأسد الدين نائب عنه في دمشق، ثم عافاه الله تعالى". وكانت حلب مركز القيادة العليا في الشمال السوري، وكانت دمشق مركز القيادة العليا في الجنوب السوري، وكان نور الدين قد اتخذها عاصمة لدولته، ونقطة انطلاق لمواجهة الفرنج في الساحل السوري.

ولنتأمل خبراً آخر ذكره أبو شامة في (عيون الروضتين)، إنه يقول:

" وسار نور الدين بعد أخذ شَيْزَر إلى سَرْمِين ﴿بلدة في غربي حلب﴾، لأنه بلغه حركة الفرنج، فاعترضه هناك مرض أشفى منه ﴿كاد يهلكه﴾، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير أميران، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام ببرج الصُفّر، خوفاً أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنّئاً ".

ومعروف أن نور الدين تركماني سَلجوقي، وكان جيشه يعجّ بمئات القادة والضباط التركمان البارزين، لكنا نراه في المواقف العصيبة يثق بشخصين اثنين، هما أخوه نصرة الدين وشيركوه، بل نجده يوكل أمر القوة العسكرية الزنكية بأجمعها إلى شيركوه وحده، وهذا يعني أنه كان يثق بوزير دفاعه ثقة تامة، ويأتمنه على الأسرة الزنكية وعلى الدولة من بعده، ومرة أخرى قام شيركوه بالمهمة خير قيام، فتوجه إلى دمشق، ورابط قريباً منها، ليصدّ كل هجوم قد يقوم به الفرنج، مستغلين مرض نور الدين.

وكان نور الدين يجلّ كبير قوّاده، ففي سنة (٥٥٦ هـ) قام شيركوه بالحج إلى مكة، ولما عاد خرج نور الدين إلى لقائه (انظر عيون الروضتين ٢٥٤/١)، وكان يندبه للمهام العسكرية الجسام، فعيّنه قائداً على الجبهة الغربية (منطقة حمص) في مواجهة الفرنج، يقول الفتح بن علي البُنْداري في كتابه (سنا البرق الشامي):

" ولما كان ثغر حمص أخطر الثغور تعيّن أسد الدين لحمايته وحفظه ورعايته، لتفرّده بجدّه واجتهاده وبأسه وشجاعته ".

وذكر ابن الأثير في (التاريخ الباهر) مكانة شيركوه عند نور الدين، قائلاً:

" فقرّبه نور الدين، وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته، فزاده إقطاعاً وقرباً، حتى صار له حمص والرَّحْبة وغيرهما، وجعله مقدّم عسكره ".

الحملة الأولى على مصر

ومن أعظم إنجازات شيركوه العسكرية والإستراتيجية حماية مصر من الوقوع في قبضة الفرنج، وضمها من بعد إلى الدولة الزنكية (توحيد مصر والشام)، والتمهيد بذلك لإقامة الدولة الأيوبية بقيادة ابن أخيه صلاح الدين.

وكانت مصر حينذاك مركز الخلافة الفاطمية، غير أن تلك الدولة كانت تعاني الضعف، وأصبحت ألعوبة بين أيدي الوزراء والقواد، الأمر الذي أحدث كثيراً من الاضطرابات، وأسال لعاب الأطماع الفرنجية. وقد جاء شاور وزير الخليفة الفاطمي إلى دمشق، مستنجداً بنور الدين على منافسه ضِرْغام الذي سلبه منصب الوزارة قهراً، فانتدب نور الدين قائده المحنّك شيركوه لهذه المهمة، قال أبو شامة في (عيون الروضتين)، سارداً أحداث سنة (٥٥٩ هـ):

" فلما كانت سنة تسع وخمسين هذه، وعزم نور الدين- رحمه الله- على إرسال العسكر إلى مصر، لم يرَ لهذا الأمر الكبير أقْوَم ولا أشجع من أسد الدين، فسيّره ".

وأضاف أبو شامة قائلاً في (عيون الروضتين):

" واستصحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مقدَّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً، ولا يقدّر حالاً، إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له من من آثار الإقبال والسعادة الصحيحة، واقتران النصر بحركاته ".

وهكذا بدأت حملة شيركوه الأولى على مصر سنة (٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م)، وانتصر على قوات الوزير ضرغام، وأعاد شاور إلى منصب الوزارة، لكن ما لبث شاور أن غدر بشيركوه، ونقض الشروط التي كان قد اتفق عليها معه، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى بلاد الشام.

ورداً على استفزازات شاور وغدره بسط شيركوه سلطته على بَلْبِيس وشرقي مصر، فاستنجد شاور بالفرنج، فزحف ملك الفرنج من القدس، وحاصر جيش شيركوه في بلبيس ثلاثة أشهر، ففتح نور الدين جبهة الحرب ضد الفرنج في بلاد الشام، وألحق بهم هزيمة نكراء في حارم (غربي حلب)، فاضطر ملك القدس الفرنجي إلى التفاوض مع شيركوه، مشترطاً عليه أن ينسحب من مصر، ويعود إلى بلاد الشام، فأجابه إلى ذلك، وعاد إلى الشام سالماً وفي نفسه من شاور وغدره حنقٌ شديد.

ووصف أبو شامة شجاعة شيركوه في خروجه من بَلْبِيس، بعد حصار الجيشين المصري والفرنجي، فقال في (عيون الروضتين):

" حدّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي آخرهم وبيده لَتّ ﴿فأس حربية كبيرة﴾ من حديد يحمي ساقتهم ﴿مؤخرة الجيش﴾، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: وأتاه فرنجي من الغرباء، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقيّة؟! فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوا! كنتَ ترى ما لم تر مثله، كنتُ والله أضع سيفي فلا أُقتل حتى أقتل رجالاً ... فوالله لو أطاعني هؤلاء- يعني أصحابه- لخرجت إليكم أول يوم، لكنهم امتنعوا. فصلّب الفرنجي على وجهه، وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن قد عذرناهم ".

الحملة الثانية على مصر

وفي سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ – ١١٦٧ م) قاد شيركوه حملة ثانية على مصر، ومعه ابن أخيه صلاح الدين أيضاً، وذكر ابن الأثير في (التاريخ الباهر) أن شاور **" راسل الفرنج، يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم أن يملكها العسكر النوري "**، فوصلوا إلى مصر بعد وصول شيركوه، وهاجمت قوات شاور والجيش الفرنجي- وهم آلاف كثيرة- قوات شيركوه في صعيد مصر، وكانت لا تتجاوز ألفي فارس، لكن شيركوه وظّف حنكته القيادية ومهاراته الحربية أحسن توظيف، وألحق بأعدائه الهزيمة في موضع يعرف بالبابين، يقول أبو شامة في (عيون الروضتين) يصف ذلك الحدث:

" وهذه الوقعة من عجيب ما يؤرَّخ، وذلك أن ألفي فارس بعيدة عن بلادها، هزمت عساكر مصر في بلادها، وفرنج الساحل ".

وتوجه شيركوه من صعيد مصر إلى الإسكندرية في الشمال، وجبى الأموال في طريقه، وسلّم أهل الإسكندرية مدينتهم إليه، فعيّن فيها صلاح الدين نائباً عنه، وعاد إلى صعيد مصر، وأقام فيها باسطاً سلطته، فهاجم الجيشان المصري والجيش الفرنجي الإسكندرية معاً، وحاصروها، فدافع عنها صلاح الدين، وتوجّه شيركوه لمساعدته، فراسله المصريون والفرنج طالبين الصلح، وبذلوا له الأموال، فأجابهم إلى ذلك، مشترطاً عليهم ألا يقيم الفرنج في مصر، ولا يتسلّموا منها قرية واحدة، ثم عاد إلى الشام.

الحملة الثالثة على مصر

وفي سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) قام شيركوه بحملة ثالثة إلى مصر بأمر من نور الدين، وكان الفرنج حريصون على ضم مصر إلى ممتلكاتهم، والاستقواء بمواردها على التصدي للسلطان نور الدين زنكي، كما أنهم كانوا يخافون أن تقع مصر في قبضة نور الدين، فتختل موازين القوى بين الجهتين المتصارعتين: القوة الفرنجية والقوة الإسلامية، ويصبح نور الدين هو الأقوى. وقال بعض قادة الفرنج حسبما ذكر ابن الأثير في (التاريخ الباهر):

" إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين، ويجهّز العساكر، ويسيّرهم إلينا، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنّى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها ".

ونقض الفرنج الشروط التي كانوا قد اتفقوا عليها مع شيركوه، فهاجموا بَلْبِيس، وسيطروا عليها، ونهبوها وسلبوا أهلها، ثم توجّهوا إلى القاهرة وحاصروها، وراسلهم شاور الفرنج طلباً للصلح، وبذل لهم الأموال، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال: **"هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك، لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين في ذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر "**، حسبما ذكر ابن الأثير في (التاريخ الباهر).

وضيّق الفرنج الحصار على القاهرة، وأصبح الناس في كرب شديد، كان هوى شاور مع الفرنج، فألحّ الخليفة العاضد على نور الدين طالباً النجدة، وباذلاً له ثلث دخل مصر، وأن يكون شيركوه وعسكره مقيمين عنده في مصر، وأنه يتحمّل نفقات الجيش الشامي كاملة.

فأرسل نور الدين إلى شيركوه يستدعيه من حمص، وأمره بالتجهّز إلى مصر والسرعة في ذلك، فاختار شيركوه من الجيش ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، وضم نور الدين إلى جيش شيركوه بعض كبار القادة، ومنهم صلاح الدين، وتوجّه شيركوه إلى مصر فوصلها، واجتمع بالعاضد، فخلع عليه وأكرمه.

وبدأ شاور يماطل في تسديد نفقات الحملة، إضافة إلى تواصله سراً مع الفرنج، ونيته الغدر بشيركوه ومن معه من كبار القادة في وليمة يقيمها لهم، لكن ابنه الكامل نهاه عن ذلك، قال ابن الأثير في (التاريخ الباهر):

" فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنُقتلن جميعاً. فقال: صدقت. ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود

الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد، ويظهرون الفساد. فترك ما كان عزم عليه ".

ولما رأى الجيش الشامي تباطؤ شاور ومماطلته اتفق صلاح الدين وضابط آخر يدعى عز الدين جُرْديك على قتل شاور، وأعلموا شيركوه بذلك، فنهاهما وأنكر ذلك. لكن صلاح الدين وعز الدين قررا الاستمرار في الخطة، فانتهزا فرصة غياب شيركوه عن الجيش في زيارة إلى قبر الإمام الشافعي، وألقيا القبض على شاور بينما كان يقوم بزيارة المعسكر الشامي، وسجناه في خيمة، منتظرين عودة شيركوه.

وعلم العاضد بالأمر، فأرسل إلى شيركوه يطلب منه قتل شاور، ويحثه على ذلك، وألحّ في الأمر، فقُتل شاور، وحُمل رأسه إلى القصر، وعيّن شيركوه وزيراً بدلاً منه، ولُقّب بالملك المنصور أمير الجيوش؛ حسبما ذكر كل من ابن الأثير في (التاريخ الباهر)، وأبو شامة في (عيون الروضتين).

وقد مدح العماد الأصفهاني شيركوه بهذه المناسبة، قائلاً:

بالجدّ أدركتَ ما أدركت، لا اللعبِ
كم راحةٍ جُنيتْ من دوحة التعبِ!
افخرْ، فإن ملوك الأرض قاطبةً
أفلاكها منك قد دارت على قُطُبِ
فتحتَ مصرَ وأرجو أن يصير بها
ميسَّراً فتح بيت القدس عن كثبِ

– – – –

وصحيح أن بقاء شيركوه في منصب الوزارة بمصر لم يطل، فقد فاجأه الموت بعد شهرين وخمسة أيام، وتوفي سنة (٥٦٤ هـ/١١٦٩ م)، وحلّ صلاح الدين محلّه، لكن ما أنجزه هذا القائد الكبير كان مهماً جداً بالنسبة إلى مستقبل شعوب شرقي المتوسط.

بلى، فلولا ضم مصر إلى الدولة الزنكية لما أصبحت بعدئذ قاعدة للدولة الأيوبية، ولما تمكّن صلاح الدين من تحقيق الانتصارات على الفرنج في بلاد الشام، واسترداد القسم الأعظم من البلاد التي سيطروا عليها، ولما استطاع المماليك بعدئذ استكمال مشروع تحرير الشرق الاوسط، والقضاء على آخر معقل من معاقل الفرنج سنة (٦٩١ هـ/١٢٩١ م).

المراجع

١- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ١٢٠، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠.

٢- البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٠٣.

٣- جمال رشيد أحمد: لقاء الأسلاف، ص ٢٠٨ - ٢٢٠.

٤- ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص ٢٩١.

٥- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٢/٤٧٩ — ٤٨١.

٦- خير الدين الزركلي: الأعلام، ٣/ ١٨٣.

٧- أبو شـامة: عيـون الروضـتين في أخبـار الـدولتين النوريـة والـصلاحية، ١/١٨٣ — ١٨٥، ١٨٦، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨١، ٢٨٩ — ٢٩١، ٣٣٦.

٨- الفتح بن علي البنداري: سنا البرق الشامي، ص ٢٤.

(٩)

السلطان صلاح الدين الأيوبي

(توفي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م)

البطل الأنقى

لكل زهرة عطرها.

ولكل فراشة تهويمتها.

ولكل شجرة شموخها.

ولكل غيمة بهاؤها.

ولكل نهر جماله، ولكل جبل جلاله.

وكذلك العظماء.. لكل منهم في التاريخ موقع، وفي قلوب الناس موضع، هذا لأنه حرّر الأوطان، وذلك لأنه كرّم الإنسان، وثالث لأنه عمّر البلاد، ورابع لأنه أزاح البؤس عن كاهل العباد، ومنهم من فعل كل هذا، فجمع الخير من أطرافه، وحاز المجد من ألفه إلى يائه.

ومن هذا الرعيل صلاح الدين الأيوبي.

إنه القائد الذي تحدّث عنه أصحابه بكل محبة وإجلال، وكتب عنه أعداؤه بكل إعجاب وإكبار، حتى إنه حاز لقب (البطل الأنقى)، والذي أضفى عليه هذا اللقب هو من حفدة الفرنج الذين قاتلهم صلاح الدين، وقارعهم في كل ساحة من ساحات شرقي المتوسط، إنه ألبير شاندور، صاحب كتاب (صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام).

فمن هو صلاح الدين؟

ولماذا كان (البطل الأنقى)؟!

ليلة عصيبة

مر بنا في ترجمة شيركوه أن أسرة شادي الرَّوادي هاجرت من دوِين في أرمينيا، واستقرت في مدينة تكريت، وأن شادي كان دِزْداراً لقلعتها، ثم توفي فحلّ ابنه نجم الدين أيوب محلّه، يساعده في ذلك أخوه شيركوه، وأنه نشبت في سنة (٥٣٢ هـ/١١٣٧ م) خصومة بين شيركوه وأحد الموظفين، وانتهت الخصومة بقتل الموظف، فغضب بهروز شِحنة بغداد، إذ كان الموظف المقتول مقرَّباً منه، وكان قد نقم على نجم الدين، لمساعدته عماد الدين زنكي في عبور دجلة، والتراجع بسلام نحو مقرّه في الموصل، فأصدر الأمر إلى نجم الدين بأن يترك منصب حاكم القلعة، ويرحل مع أسرته عن تكريت من غير تأخير.

وبينما كان رسول بهروز ينذر نجم الدين بالرحيل، إذا برسول يأتي من داره، ويبشّره بولادة طفل له، كان ذلك الطفل هو (يوسف) الذي اشتهر بعدئذ بلقب (صلاح الدين)، وما هي إلا ساعات قليلة حتى بدأت الأسرة رحلتها نحو المجهول، يرافقهما شيخ بغدادي مسيحي كان يعمل كاتباً عند نجم الدين.

كانت الرحلة شاقة، وكان الموقف عصيباً، وكان الصغير يوسف ينفجر باكياً بين حين وآخر، الأمر الذي كان يثير غضب نجم الدين، ويجعله متشائماً بقدم طفله هذا، حتى إنه كاد يبطش به، لكن الكاتب البغدادي الشيخ رجاه قائلاً: أناشدك بالله أن تستبقيه، فهو طفل لا ذنب له، ولعل الله جاعل له شأناً.

ويمّمت القافلة الصغيرة وجهها نحو الموصل شمالاً، فرحّب بهم عماد الدين زنكي، وانضم نجم الدين وأسد الدين إلى جيش عماد الدين، وشاركا في الحروب التي خاضها عماد الدين ضد الفرنج، وحينما سيطر عماد الدين على مدينة بَعْلَبَكّ في لبنان عيّن نجم الدين حاكماً عليها، فانتقل نجم الدين بأسرته إليها، وفي مرابع المدينة القديمة بعلبك (مدينة الإله بعل) عاش يوسف أيام صباه.

وبعد مقتل عماد الدين على أيدي بعض خدمه، نشب النزاع بين الأخوين سيف الدين غازي ونور الدين محمود على السلطة، فوقف القائدان نجم الدين وشيركوه إلى جانب نور الدين، فرجحت كفّته، واستلم زمام الأمور، وسيطر على دمشق بمساعدة نجم الدين، وأصبح نجم الدين من كبار أمرائه، حتى إنه كان الوحيد الذي يُسمح له بالجلوس في مجلس نور الدين من غير إذنه.

وفي دمشق تلقّى صلاح الدين العلم على أيدي كبار العلماء، وأما في مجال الفروسية فكان عمه شيركوه يشجّعه على إتقان فنونها، من ضرب بالسيوف، وطعن بالرماح، ورمي بالسهام، وركوب للخيل، ومنازلة للأبطال، فأتقن الفنون القتالية جميعها، وساعده في ذلك جسمه الرشيق، وإرادته القوية، وذكاؤه اللمّاح.

وفي رحلته مع العلوم والفروسية تشرّب صلاح الدين القيم النبيلة: من شجاعة وشهامة، وحلم وكرم، ونبل ومروءة، وكان السلطان نور الدين قد لمح فيه النّجابة، فرفع من شأنه، وأسند إليه- وهو شاب - منصب قيادة الشرطة في دمشق، فقام بذلك المنصب أحسن قيام، وطهّر دمشق من عبث اللصوص وشرور المفسدين، ونشر في رحابها الأمن والاستقرار.

في مصر وزيراً

كان العالم الإسلامي حينذاك يعاني من آثار الحملة الفرنجية الأولى (٤٨٩ هـ/١٠٩٦ م)، واحتل الفرنج خلال تلك الحملة الساحل السوري، ولبنان، وفلسطين، وقسماً من الأردنّ، وأسّسوا إمارة الرُّها، وإمارة أنطاكيا، وإمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس، وشنّوا الغارات على داخل بلاد الشام، وهدّدوا حلب وحمص ودمشق، وكانت مصر مركز الدولة الفاطمية، لكن تلك الدولة كانت قد أصبحت ضعيفة، فشنّ الفرنج الحملات على مصر بغية احتلالها.

وإزاء هذا التهديد استعان الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله بالسلطان نور الدين، فأرسل السلطان جيشاً بقيادة شيركوه لمساعدته، واصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين، ثقةً منه بشجاعته وحسن تدبيره، وخاض معارك ضارية ضد الفرنج، واستطاع إفشال المخطط الفرنجي، وإنقاذ مصر.

وأعاد الفرنج محاولة السيطرة على مصر كرّة بعد أخرى، فتوجّه شيركوه بدوره إلى مصر ثانية وثالثة بدعوة من الخليفة الفاطمي ووزيره شاور، للوقوف في وجه أطماع الفرنج، ولما تآمر شاور مع الفرنج على الجيش الشامي أمر الخليفة الفاطمي بقتله، وحلّ شيركوه محلّ شاور في منصب الوزارة، وبعد أشهر قليلة توفّي شيركوه، وأصبح صلاح الدين قائداً للجيش الشامي، واختاره الخليفة الفاطمي وزيراً محلّ شيركوه.

وسرعان ما باشر صلاح الدين حكم البلاد بمهارة وحكمة وإخلاص، إنه بدأ بالجبهة الداخلية، فأزال الضرائب الثقيلة عن كاهل الجماهير، وأرسى دعائم العدل، واعتنى بمصالح الشعب، وحرص على تقوية البلاد لردّ عدوان الفرنج الغزاة، وتمكن من ردّ الهجوم الذي شنّوه على مدينة دمياط، وكسب احترام الخليفة الفاطمي والجماهير في مصر لما أبداه من بسالة وصبر.

السلطان

لم يكن العباسيون السنّة راضين عن قيام خلافة فاطمية شيعية منافسة لهم، وكان الصراع شديداً بين العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة، واتفق الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله والسلطان نور الدين على إزالة الخلافة الفاطمية، فأمر نور الدين واليه على مصر- وهو صلاح الدين- أن يعلن إلغاء الخلافة الفاطمية، ويجعل مصر تابعة للخلافة العباسية.

ورغم أن الخليفة الفاطمي العاضد بالله كان مريضاً، وكان في الأيام الأخيرة من حياته، فإن صلاح الدين لم ير بدّاً من تنفيذ أوامر كل من الخليفة العباسي والسلطان نور الدين سنة (٥٦٧ هـ/١١٧١ م)، لكنه حرص في الوقت نفسه على ألا يعرف الخليفة العاضد أن دولته قد زالت وهو على فراش الموت.

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، أصبح صلاح الدين سيد البلاد، فساس الناس أحسن سياسة، وهاجم معاقل الفرنج في جنوبي فلسطين والأردن، بتنسيق مع السلطان نور الدين في بلاد الشام.

وفي سنة (٥٦٩ هـ/١١٧٤ م) توفّي السلطان نور الدين، وكان ابنه إسماعيل صغير السنّ، عاجزاً عن ممارسة الحكم، وبدأ بعض كبار القادة يسيّرون الأمور كما يريدون، ويعقدون المعاهدات مع الفرنج، فاستعان ابن المقدَّم – وهو من كبار القادة في دمشق - بصلاح الدين، كي ينقذ البلاد من حالة الضعف والانحطاط، ويوحّد مصر والشام للوقوف في وجه الفرنج.

فاتجه صلاح الدين إلى دمشق، وقضى على نفوذ القادة المتعاونين مع الفرنج، وأعلن نفسه سلطاناً، وظل يعمل لتوحيد شعوب شرقي المتوسط، ولمواجهة الخطر الذي كان يحدق بالمنطقة، واستطاع، بعد جهود مضنية، توحيد مصر، وشمالي السودان، وبلاد الشام، ومعظم مناطق جنوبي كردستان وشماليها، وشمالي العراق، والحجاز، واليمن، وليبيا، وأنشأ دولة كبيرة، كثيرة الخيرات، هائلة القدرات، مرهوبة الجانب، هي الدولة الأيوبية.

واستعداداً لتحقيق النصر على الفرنج، حرص صلاح الدين على الجمع بين العلم والقوة، ففتح المدارس، وشجّع العلم، وأكرم العلماء، كما أنه اهتمّ بتحسين الأحوال الاقتصادية، فشجّع الزراعة والصناعة والتجارة، أضف إلى هذا أنه اهتمّ بالجيش، فدرّب الجنود على فنون القتال، وبنى أسطولا قوياً قادراً على مواجهة الأساطيل الفرنجية في كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

معركة حِطّين

بعد أن أعدّ صلاح الدين للحرب عدّتها على جميع الأصعدة، وتأكد من سلامة الجبهة الداخلية وقوتها، اتخذ بلاد الشام قاعدة لصراعه ضد الفرنج، باعتبارها تتاخم المناطق التي كانوا يحتلونها، وشرع يهاجم قلاعهم وحصونهم، ويفتحها قلعة تلو أخرى وحصناً بعد آخر، ويفاجئهم تارة هنا وتارة هناك، ولا يدع لهم سبيلاً إلى الراحة.

ويذكر الرحّالة الأندلسي ابن جُبَيْر أنه رأى في الحرم المكي سنة (٥٧٩ هـ/١١٨٣ م) بعض أسرى الفرنج، راكبين على الجمال ووجوههم محوّلة إلى الخلف، وحولهم الطبول والأبواق، وعلم أن هؤلاء كانوا من جنود الفرنج الذين أرسلهم أمير الكرك الفرنسي رينو دي شاتيون، المعروف في المصادر العربية القديمة باسم (أرناط)، لمهاجمة شواطئ الحجاز، فأحرقوا في البحر الأحمر ستة عشر مركباً للمسلمين، وفتكوا بالحجّاج القادمين من مصر واليمن.

وفي سنة (٥٨٢ هـ/١١٨٦ – ١١٨٧ م) نقض أرناط العهد الذي كان قطعه على نفسه، فاعترض قافلة من الحجّاج العائدين من مكة، وأخذهم أسرى، ونهب أموالهم، فغضب صلاح الدين أشد الغضب، وقرر معاقبة هذا الفارس الفرنجي، فقاد جنوده وهاجم قلعة الكَرك فحاصرها، فهبّت الإمارات الفرنجية الأخرى جميعها لمساعدة أرناط، بقيادة ملك القدس الفرنجي غي دي لوسينيان، فاضطر صلاح الدين إلى فك الحصار.

وفي سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧ م)، ورداً على استفزازات الفرنج، استنفر صلاح الدين القوات الإسلامية في كل من مصر والشام وكردستان، ثم هاجم حصون الفرنج وقلاعهم، وخاض ضدهم معركة فاصلة قرب بحيرة طبرية بفلسطين، في منطقة تدعى (حِطّين).

وقد اعتمد صلاح الدين خطّة حربية بارعة، تقوم على إنهاك العدوّ، واستنفاد طاقاته القتالية، وجرّه إلى القتال في ظروف نفسية وجغرافية وتعبوية غير مناسبة، وفي يوم السبت (٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ/٤ تموز ١١٨٧ م) أثمرت خطة صلاح الدين، وآتت أُكُلها، وحقق نصراً حاسماً على الجيش الفرنجي، وأسر الفارس الكردي المِهْراني دِرْباس الملك الفرنجي (غي)، ووقع في الأسر أخو الملك، وأرناط أمير الكرك، وقادة كبار آخرون.

استرداد القدس

لم يخلد صلاح الدين إلى الراحة بعد النصر الكبير في حطّين، فتقدم بسرعة نحو حصون الفرنج يدكّها دكّاً، إنه فتح حصون: طَبَرِيّا، وعَكّا، والناصِرة، وقَيْسارِيا، وحَيْفا، وصَفُّورية، واستولى أيضاً على صيدا، وبيروت، وجُبَيْل، وزحف أخوه الملك العادل بجيش من مصر ففتح يافا. وبعد هذه الفتوحات أصبحت طريق القدس مفتوحة أمام جيش صلاح الدين، فسار بجنوده نحوها، ووصل إليها في ١٥ رجب سنة (٥٨٣ هـ/٢٠ أيلول ١١٨٧ م)، ولم يرغب صلاح الدين في إراقة الدماء، فأجرى المفاوضات مع حاميتها الفرنجية بشأن الاستسلام، وتعهّد باحترام الأماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية، لكن الفرنج رفضوا الدعوة إلى السلم، وأصروا على القتال.

وكان قد اجتمع بالقدس كثير من جنود الفرنج، ولما كان يوم ٢٧ رجب سنة (٥٨٣ هـ) الموافق ٢ أكتوبر/تشرين الأول سنة (١١٨٧ م)، حمل صلاح الدين وجنوده على المدينة حملة رجل واحد، وتقهقر جنود الفرنج عن مواقعهم، واضطروا إلى دخول المدينة والاحتماء بالأسوار، وواصل الجيش الأيوبي زحفه تحت وابل من قذائف الفرنج وسهامهم، ووصلوا إلى الخندق فاجتازوه، ثم وصلوا إلى السور فنقّبوه، واشتد القتال بين الفريقين، وشرع المسلمون يحفرون الأنفاق تحت الأسوار والأبراج، تمهيداً للدخول إلى المدينة.

ولما تأكد للفرنج عجزهم عن المقاومة، وأن المدينة واقعة في يد صلاح الدين، اجتمع رأيهم على طلب الأمان، فأرسلوا وفداً إلى صلاح الدين بزعامة قائدهم باليان، ولم يكن صلاح الدين راغباً في إراقة الدماء، فوافق على استسلام الفرنج بشروط محددة، وشرع الفرنج يغادرون القدس، وشرطة صلاح الدين تحفظ الأمن، كي لا يقع اعتداء أو انتقام على أحد من الفرنج المغادرين.

وقد أثنى المؤرخون- شرقيين وغربيين- على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء استرداد القدس، وتحدثوا بإعجاب عن عطفه على المرضى والمسنّين والمحتاجين من الفرنج، وعن إكرامه للنساء، ورأفته بالأطفال، ورعايته للضعفاء، وشهدوا أن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة، بخلاف ما ارتكبه الفرنج من قتل وسفك للدماء، ونهب للأموال، وهتك للأعراض حينما احتلوا بيت المقدس قبل ثمانية وثمانين عاماً من ذلك التاريخ.

وكان السلطان نور الدين زنكي قد أمر سابقاً بصناعة منبر في مدينة حلب، كي يضعه بجانب المحراب في المسجد الأقصى، استعداداً لتحريره، فأمر صلاح الدين بإحضار ذلك المنبر واستكمال العمل فيه، ووضعه في المسجد، وأقيمت صلاة الجمعة في اليوم الرابع من شهر شعبان، بعد ثمانية أيام من تحرير القدس، **"وارتفعت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكُرُبات، وأقيمت الصلوات"** حسبما ذكر ابن كثير في (البداية والنهاية)، وما زال المنبر موجوداً في المسجد، ويُعرف باسم (منبر صلاح الدين).

وظل صلاح الدين بعد تحرير القدس يخوض المعارك ضد الفرنج، وتصدّى للحملة الفرنجية الثالثة التي استهدفت استرداد بيت المقدس سنة (٥٨٥ هـ/١١٨٩ م)، وكانت حملة هائلة من حيث العدد والعدّة، وقادها أكبر ملوك أوربا، وهم: فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وظل صلاح الدين يخرج من معركة ليخوض أخرى، إلى أن ألحق الفشل بالفرنج، وأعادهم خائبين من حيث أتوا.

وفي سنة (٥٨٩ هـ/١١٩٣ م) كان صلاح الدين في دمشق، فخرج يستقبل الحجّاج القادمين من مكة، ثم عاد إلى داره فمرض مرضاً شديداً، وبعد أيام قليلة، وفي فجر اليوم السابع والعشرين من صفر، الموافق ٤ مارس/آذار، وحينما انتهى المقرئ من تلاوة قوله تعالى: " لا إله إلا هو عليه توكّلتُ "، توقف ذلك القلب الكبير عن الخفقان، وكم كان حزن المسلمين عليه شديداً! وخرج أهل دمشق يشيّعونه إلى قبره بعيون دامعة وقلوب تتفطّر حزناً، وما زال قبره ينتصب بشموخ إلى جانب المسجد الأموي في قلب العاصمة السورية دمشق.

خصال سامية

كان صلاح الدين حاكماً عادلاً، رؤوفاً رحيماً، ينصر الضعفاء، وينصف المظلومين، وكان كريماً بالمال، ويتحلّى بالخصال الحميدة، من تواضع وحب للخير، وعطف على المحتاج والغريب، وصبر على المكروه، وحلم عن الجاهل، ولطف في المعشر، ونجدة للملهوف، وإكرام للضيف وإن كان من الأعداء.

ويقول ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

" وكان- رحمه الله - كريماً، حليماً، حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، ... وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة كان نادراً في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة ".

وذكر ابن الأثير بعض الأمثلة على حلم صلاح الدين، فقال:

" وبلغني أنه كان يوماً جالساً وعنده جماعة، فرمي بعض المماليك بعضاً بسرموز، فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلّم جليسه ليتغافل عنها "

وأضاف ابن الأثير يقول:

" وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات، فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، والله قد قتلني العطش! فأحضر الماء، فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره "

وقال ابن الأثير أيضاً:

" وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت، فلما برئ منه وأُدخل الحمّام، كان الماء حارّاً، فطلب ماء بارداً، فأحضره الذي يخدمه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء، فتألم له لضعفه، ثم طلب البارد أيضاً فأُحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلي فعرّفني! فاعتذر إليه، فسكت عنه ".

وقال ابن الأثير يشيد بكرم صلاح الدين:

" وأما كرمه فإنه كان كثير البذل، لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوريّ، وأربعين درهماً ناصرية، ... ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعاً ".

وقال ابن الأثير في تواضع صلاح الدين:

" وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً، لم يتكبّر على أحد من أصحابه، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية، يعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد، حتى يفرغ الفقير ".

وكتب القاضي ابن شدّاد في وصف شخصية صلاح الدين:

" وكان حسن العِشرة، لطيف الأخلاق، طيّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره، وكان حسن الخلق، يسأل الواحد منّا عن مرضه ومداواته، ومطعمه ومشربه، وتقلّبات أحواله، وكان طاهر المجلس، لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان، فما رأيته يشتم قط، وطاهر القلم، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط".

وأما عن قلبه الرحيم فحسبنا هذا الخبر الذي يرويه ابن شدّاد، قال:

((كنت راكباً معه ذات يوم في مواجهة جيش الفرنج في إحدى المعارك، وإذا بأحد الحراس يصل ومعه امرأة فرنجية تبكي بحرقة، وتضرب صدرها بيديها، وقال الحرسي: خرجت هذه المرأة من جيش الفرنج، وطلبت الحضور بين يديك)).

فأمر صلاح الدين الترجمان أن يسألها عن الأمر، فذكرت أن لصوص المسلمين دخلوا خيمتها ليلاً، وسرقوا طفلتها الصغيرة، فظلت تبكي طوال النهار حزناً، وأضافت: قيل لي إن السلطان صلاح الدين رحيم القلب، فأتيت إليك مستنجدة، ولا أعرف ابنتي إلا منك.

فرقّ قلب صلاح الدين للمرأة الفرنجية، ودمعت عيناه، وأمر الحرس بالبحث عن الطفلة، ولم يزل مهتماً بالأمر حتى أُحضرت الطفلة وتسلّمتها أمها، وخرّت إلى الأرض وهي تمرّغ وجهها في التراب شكراً، والناس يبكون من حولها على ما نالها، وأمر صلاح الدين بأن تعاد إلى معسكر الفرنج في أمان.

وكان بعض أولاد صلاح الدين الصغار يرافقونه في إحدى المعارك، فاستأذنوه بقتل أحد الأسرى من الفرنج، فغضب لطلبهم، وزجرهم عن ذلك، لئلا يعتادوا سفك الدماء منذ الصغر، فيهون ذلك عليهم بعدئذ.

وهكذا العظماء!

إن ذكرى صلاح الدين تخفق في قلب كل محب للقيم السامية، وإن تاريخه ما زال شعلة وقّادة لشعوب شرقي المتوسط، كما أن شهامته وأخلاقه الرحيمة مع أعدائه خير مثال على أن صناعة التاريخ المجيد لا تكون بسفك الدماء، وإنما عبر ممارسة القيم الإنسانية بأبهى الأشكال وفي أكثر الميادين عنفاً وشراسة.

ولم يكن صلاح الدين عظيماً لأنه كان سلطاناً فقط، وإنما لأنه كان الابن البارّ لشعوب شرقي المتوسط، عرباً وكرداً وتركاً، ومسلمين وأيزديين ومسيحيين ويهوداً، واستطاع بحكمته قيادة هذه الشعوب في واحدة من أخطر المراحل التاريخية، من غير تعصبٍ لقومية، ولا تحيّز لدين، فرسّخ بذلك حقيقة أن التعايش بين مكوّنات البيت الشرق متوسطي الكبير ممكن، وأن قوة شعوب هذه المنطقة إنما تكمن في تآلفها وتكاملها.

وكان صلاح الدين عظيماً لأنه كان الابن البارّ للإنسانية، لم يحمله عداؤه للفرنج على ارتكاب المجازر، وسفك الدماء البريئة، وإنما كان يقاتل بشرف، ويتصرف مع أعدائه بكرم أخلاق، ففي أحيان كثيرة كان يعفو عن الأسرى، وعلم في إحدى المعارك أن جواد خصمه الملك الإنكليزي ريتشار قلب الأسد قد صُرع، فأرسل له في قلب المعركة بجوادين، كما كان يهدي إلى ملوك الفرنج الفواكه النادرة، ويرسل لهم طبيبه الخاص إذا مرضوا.

ألا بهذه الرؤية الإنسانية تُصنع الأمجاد.

وبهذه القيم الرفيعة يُحاز التقدير والإجلال.

المراجع

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢/ ٩٦ - ٩٧.

٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/١٣٩ - ٢٠٧.

٣. أبو شامة: كتاب الروضتين، الجزء الأول، القسم الثاني، ص ٣٢٩.

٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٤/٢٩٨ - ٢٩٩.

٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٣٢٤.

٦. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/٥٥٨.

وانظر:

- أحمد بن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.
- ألبير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام.
- البنداري: سنا البرق الشامي.
- ابن جبير: رحلة ابن جبير.
- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.
- المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في مناقب بني أيوب.

(١٠)

السلطان العادل الأيوبي

(توفي سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)

خارج التاريخ!

كثير من القداسة.

قليل من الواقعية.

تلك هي المشكلة في قراءة التاريخ.

وذلك هو الخطأ الفادح في تفسيره.

أما وجه المشكلة فهو أن نتعامل مع الحدث بعيداً عن المناخ الذي تشكّل فيه، أقصد خارج جدلية الذاتي والموضوعي، وجدلية الداخل والخارج، وجدلية التحدي والاستجابة، وجدلية الحاجة والاختراع، وجدلية (التاجر) و(الكاهن) و(الجندي)، وبعبارة أخرى: المشكلة هي ألا نقرأ التاريخ كما هو، وإنما أن نقرأه كما نريد نحن دينياً، أو طائفياً، أو قومياً، أو قبلياً.

وأما وجه الخطأ فهو أن نفسّر التاريخ خارج (التاريخ)، ونتعامل مع ما هو واقعي بطرائق لاواقعية، ومع ما هو عقلاني بمنطق الخرافة، فيتحول الحدث التاريخي بين أيدينا إما إلى قصيدة فخر، أو قصيدة مدح، أو قصيدة هجاء، أو قصيدة رثاء، وإما أنه يتحول إلى نص مقدس، فنقرأه والعقل قد انقمع، وآليات التفكير قد تعطلت، وسيف التابو (التحريم) مشهور فوق رؤوسنا، وليس لنا إلا التسليم والإذعان، وهذه الحالة تذكّرني بقول أبي العلاء المعرّي:

تَلَوا باطلاً، وجَلَوا صارماً

وقالوا: صدقنا؟! فقلنا: نعم!

وهذا النهج في قراءة التاريخ وتفسيره نهج فيه الضرر كله.

ولك أن تقول: لماذا؟!

ولي أن أقول: لأننا بهذه الطريقة اللاواقعية في قراءة التاريخ ننشئ فكراً لاواقعياً، فكراً يتعامل خرافياً مع ما هو غير خرافي، فكراً يتعامل قداسياً مع ما هو غير مقدس، ولأننا بهذه الكيفية نروّض أنفسنا على التعامل مع الواقع (الحاضر) والممكن (المستقبل) برؤية لاواقعية، ونتخذ من ثَمّ قرارات لاواقعية، فنجرّ على أنفسنا المنغّصات، ونترك لأجيالنا إرثاً من المشكلات، لا، بل من المعضلات والخصومات.

ميكيافيلية

إذاً علينا نحن — معشر الشرقيين- أن نعقل.

وجدير بنا أن نحرر قراءة التاريخ من هالات الخرافة والتقديس.

وليقل من ارتزق- وما زال يرتزق- بتلك الهالات ما يشاء.

فلهم مستقبلهم ولنا مستقبلنا، ولهم دينهم ولنا ديننا.

وإذا فعلنا ذلك، أقصد إذا حررنا قراءة التاريخ من سطوة المقدّس وسوط المدنّس، اتضح أن الحدث التاريخي، من حيث النشأة، نتاج جدلية التحدي والاستجابة، وقد ساق المؤرخ البريطاني أرنولد تُوينبي كثيراً من الأدلة على صحة تلك الجدلية، ولاكتشفنا عندئذ أن الحدث التاريخي ليس محصّناً ضد النهج الميكيافيلي، وهو نهج يجسّد الواقعية السياسية، ويقوم في جوهره على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة).

وقد يُفهم أن المفكر الإيطالي الفلورنسي نيكولو مكيافيلي Niccolò Machiavelli (1469 - 1527 م)، صاحب كتاب (الأمير)، هو الذي ابتدع هذا المبدأ، والحقيقة أن الرجل لم يبتدعه، وإنما اكتشفه، وأكد أن الساسة الكبار إنما كانوا يطبقون هذا المبدأ من حيث يدرون ولا يدرون، وفسّر على أساسها سقوط تفاحة التاريخ من الشجرة نحو الأسفل، وليس نحو الأعلى.

وجوهر الميكيافيلية هو (المغالبة) كما سمّاها القدماء، وترجع (المغالبة) ذاتها إلى حقيقة (البقاء للأصلح/للأقوى)، وقد أشار المتنبي قديماً إلى نظرية (المغالبة) في قوله:

فالموتُ أعذرُ لي، والصبرُ أجملُ بي

والبَرُّ أوسعُ، والدنيـــا لمن غَلَبا

وصاغ أحمد شوقي النظرية نفسها في قوله:

وما نَيْلُ المَطــالب بالتمنّي

ولكن تُؤخذ الدنيـــا غلابا

و(المغالبة) أشكال كما أنها مستويات، فقد تكون بالسيف، وقد تكون بالكلمة، وقد تكون بالسيف والكلمة معاً، فتجمع بين القوتين العظميين، وقد تكون بالمكر والدهاء والمداورة والمناورة، وقد تلبس لبوس المقدس، سواء أكان المقدس ديناً أم كان مذهباً، وقد تلبس المغالبة لبوس القبلية أو القومية، كما أنها قد تجمع بين اللبوس الديني والقبلي والقومي.

وبعبارة أخرى إن المغالبة خلطة سحرية عجيبة، لا يفلح في إنتاجها كائن من كان، وإنما يجيد صنعها عباقرة السياسة، ومؤسسو الدول، وأصحاب المشاريع الإمبراطورية، وإنها لتذكّرني بنصيحة قالها كيميائي قديم لأحد تلامذته، وهي: " خذ كما ينبغي، وامزج كما ينبغي، تحصلْ على ما تريد".

مغالبات.. ومغالبات!

وما أكثر الشواهد على فن المغالبة عبر التاريخ!

فلك أن تُدرج تحت بند (فن المغالبة) استئثار الفريق العربي القرشي العدناني بالخلافة وبصنع القرار، يوم جرت جلسة سَقيفة بني ساعِدة في المدينة، بُعيد وفاة النبي محمد مباشرة، وزحزحة الفريق العربي المدني القحطاني وغيرهم من العرب جانباً، أما الفريق العجمي، ومنهم الحبشي بلال، والرومي صُهَيب، والفارسي سلمان، فمن باب أولى أن يبقوا على هامش الهامش.

ولك أن تدرج تحت البند نفسه معاوية بن أبي سفيان، وهو يرفع قميص عثمان بن عفّان على المنابر في دمشق تارة، ويرفع المصاحف على أسنة الرماح في معركة (صِفّين) تارة أخرى، لإزاحة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب عن طريقه، والاستئثار بالخلافة الإسلامية، وتحويلها إلى مُلك عَضوض.

ولك أن تدرج تحت بند (فن المغالبة) استيلاء الفرع العباسي على مقدّرات (دعوة آل البيت)، بعد انتصار تلك الدعوة على الأمويين، وقيام العباسيين بإزاحة الفرع العلوي/الفاطمي جانباً، ثم تدبير اغتيال أبي سَلَمة الخلاّل (وزير آل محمد) وصانع الخلافة العباسية ومهندسها، بتدبير من الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفّاح، وبتأييد من أبي مسلم الخراساني.

وأدرج تحت بند (فن المغالبة)، وأنت مطمئن، تدبير مقتل قاهر الأمويين، وأحد أكبر قائدين للجيوش العباسية، عبد الله بن علي، بتدبير من ابن الأخ أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، ثم شروع هذا الخليفة نفسه في اعتماد المكر والدهاء للفتك بأبي مسلم الخراساني، أقوى قادة العباسيين.

وأدرج تحت بند (فن المغالبة) أيضاً فتك الخليفة العباسي هارون الرشيد بوزرائه البرامكة، مع أنهم أوصلوه إلى منصب الخلافة، ووطّدوا له أركان الحكم، وأدرج تحتها أيضاً صراع ولديه الأمين والمأمون على الخلافة، ومقتل الأمين في النهاية، وأدرج تحتها مقتل الخليفة المتوكل على أيدي الضباط الترك، وسيطرة البويهيين الدَّيْلَم على مقاليد السلطة في غربي آسيا.

وأدرج تحت بند (فن المغالبة) قدوم السلاجقة التركمان من وسط آسيا، وإزاحة البويهيين عن السلطة، والحلول محلهم في السيطرة على بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ثم بزوغ نجم التركماني عماد الدين زَنكي مؤسس الدولة الزنكية، ثم بزوغ نجم الكردي صلاح الدين الأيوبي، وتأسيس الدولة الأيوبية.

ولك أن تدرج تحت بند (المغالبة) أيضاً بزوغ نجم كل من المملوكين التركيين قُطُز وبيبرس، وتأسيس دولة المماليك الأتراك، ثم بزوغ نجم المملوك الشركسي بَرْقُوق، وتأسيس دولة المماليك الشراكسة، ثم بزوغ نجم التركماني أُورْخان بن عثمان بن أَرْطُغرل شاه، وتأسيس الدولة العثمانية، بل إن العثمانيين سبقوا غيرهم في توظيف فن المغالبة، إذ جرّدوا العرب القرشيين من الخلافة، وجعلوها لأول مرة أعجمية.

والخلاصة أن المغالبة هي المحرّك الأعظم للتاريخ.

ونقف الآن عند أحد عباقرة فن (المغالبة).

إنه السلطان العادل أبو بكر الأيوبي.

فماذا عنه؟

العصر أولاً

كان عصر العادل عصر مغالبة بكل المقاييس الحربية والسياسية، وكان البقاء سياسياً هو للأصلح (الأقوى طبعاً)، وكانت عهود سلاطين السلاجقة الأقوياء (طُغْرُلْبَك، أَلْب أَرْسلان، مَلِكشاه) قد ولّت، ونشبت الخصومات العنيفة بين أبناء ملكشاه، ثم بين أحفاده، وكانت الخصومات بين زعماء البيت السَّلجوقي تتحول إلى صراعات حربية ضارية.

وقد استأثر بعضهم ببلاد فارس والأجزاء الشرقية من كردستان، وكان الصراع على العراق حامياً بين السلطان مسعود وأخيه السلطان سَلْجوق شاه، وهما حفيدا السلطان مَلِكشاه، كما أن أولاد دُقاق بن تُتُش بن أَلْب أرسلان كانوا قد بسطوا نفوذهم على سوريا، واتخذوا دمشق عاصمة لهم، ثم تولّى الأمر هناك أولاد أتابك هم تاج الملوك بُوري بن طُغْتِكين، وصحيح أن ورثة بُوري كانوا يتاخمون الفرنج، لكنهم كانوا أضعف من مواجهتهم.

وفي الوقت نفسه كان بعض مماليك السلاجقة قد بسطوا نفوذهم على أجزاء من غربي آسيا، فهيمن الأراتقة (بنو أُرْتُق أحد مماليك السلطان السَّلجوقي مَلِكشاه) على مناطق شمالي

كردستان في الرُّها (أُورفا)، وحِصن كَيْفا (حَسَنْكيف)، وماردِين، ونَصِيبين، وكان ذلك بدءاً من سنة (٤٩٥ هـ)، واصطلح بنو أرتق، في أوائل سنة (٥٠٢ هـ)، على أن يتقاسموا بلاد الجزيرة والمناطق الكردية السالفة الذكر فيما بينهم.

وكانت الدولة الفاطمية الشيعية تهيمن حينذاك على مصر، وكان نفوذها يمتد إلى أجزاء من جنوبي بلاد الشام، وكانت تدخل في صراعات شبه مستمرة ضد حكّام سوريا الشمالية، من أمثال الحمدانيين، ثم الزنكيين، وكانت حريصة أيّما حرص على أن تضع القدس تحت سلطتها، كما أن منافستها الخلافة العباسية كانت تهيمن على مكة والمدينة في الحجاز، لكن الفاطميين كانوا يمرون بدور الضعف، وكان خلفاؤهم المتأخرون أضعف من أن يقفوا في وجه جنودهم من المغاربة والسودان والأرمن.

وكان الفرنج القادمون من أوربا يبسطون نفوذهم على مناطق مهمة من غربي آسيا، وكانت سلطتهم تمتد على شكل قوس من الرُها في كردستان شرقاً، ومروراً بأنطاكيا غرباً، وبالساحل الشام (سوريا، ولبنان، وفلسطين)، وانتهاء إلى العريش على الحدود المصرية جنوباً أي في قلب المنطقة المعروفة باسم (الهلال الخصيب)، وكانوا قد أسسوا إمارة الرُّها، وإمارة أنطاكيا، وإمارة طرابلس، ومملكة القدس، وراحوا يشكّلون تهديداً دائماً لبلاد الشام ومصر.

دولة تركمانية بجغرافيا كردية

وفي الوقت نفسه كانت ثمة قوة سياسية وعسكرية تركمانية بدأت بالظهور في الموصل، والمناطق المتاخمة لها، هي القوة الزنكية، وكان المؤسس الأول لهذه الدولة هو عماد الدين زَنكي بن آقْ سُنْقُر، وكان آق سنقر قائداً تركمانياً مقرّباً من السلطان السَّلجوقي مَلِكشاه بن أَلْب أرسلان، ولكنه راح ضحية الصراعات بين أبناء العائلة السَّلجوقية الحاكمة سنة (٤٨٧ هـ)، وقد وُلّي زنكي الموصل، وبدأ بتأسيس دولته من هناك، وكانت الدولة الزنكية تركمانية القيادة، لكن بجغرافيا كردية، وأيضاً بموارد كردية، وبقدرات حربية تركمانية وكردية.

وقد يقال: كيف تكون الدولة تركمانية والجغرافيا والموارد كردية؟!

أما كون الدولة الزنكية تركمانية، لكن بجغرافيا كردية، فحسبنا دليلاً على ذلك قول أبي شامة في (عيون الروضتين):

" ثم أُقطع زنكي مدينة واسط، وشِحْنكية البصرة، ثم وُلّي الموصل، فأخذ جزيرة ابن عمر ﴿جزيرة بوتان﴾، وإربل، وسِنجار، والخابور، ونَصيبين ﴿متاخمة للقامشلي﴾، ودارا ﴿بين نصيبين وماردين﴾، وبلاد الهكّارية، وبنى قلعة العمادية، وملك من ديار بكر طَنْزَة، وإسْعَرْد ﴿سِيرت﴾، ومدينة المعدن، وحيزان ﴿لعلها خيزان﴾، وحاني ﴿لعلها: هاني بين موش وملطية﴾، وعانه، وغيرها، واستولى على قلاع الحميدية، وولاياتهم، من العَقْر، وقلعة شُوش ".

بلى، إن هذه الجغرافيا الشاسعة كردية، ما عدا عانه، فهي واقعة في غربي العراق، وفي هذه الجغرافيا أسس زنكي دولته التركمانية، ولولا سيطرته على الجغرافيا الكردية هناك لما استطاع الانطلاق غرباً نحو بلاد الشام، قال أبو شامة في (عيون الروضتين): " وعبر الفرات، فملك مَنْبِج، وحلب، وحماه، وحمص، وغيرها، وحاصر دمشق، ...".

وأما كون الدولة الزنكية نهضت بموارد كردية فتلك حقيقة تؤكدها الجغرافيا نفسها، فموارد الدول- سواء أكانت موارد زراعية أم صناعية أم تجارية- مستمدة في الأصل من الأرض التي تحكمها، ومن السكان القاطنين فيها، وكذلك كان شأن دولة عماد الدين.

وأما أن الدولة الزنكية كانت تركمانية، لكن بقدرات حربية تركمانية وكردية، فهذه حقيقة يعرفها كل من يتتبّع تفاصيل المعارك التي كان الزنكيون يخوضونها ضد الفرنج، فبعد أن سيطر زنكي على الأراضي الكردية كان من الطبيعي أن يوظف قدرات القبائل الكردية في مشروعه التوسعي، وفي حروبه ضد الفرنج وغيرهم.

وبانضمام الأسرة الأيوبية إلى زنكي كسب الزنكيون قدرات قتالية كردية فعّالة جداً، فالأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه لم يكونا شخصين عاديين، وإنما كانا ينتميان إلى أسرة عريقة في الميادين الإدارية، وتمتاز بقدرات وخبرات حربية متقدمة وفق معايير ذلك العصر، وكانا يمتازان بالبراعة في إدارة المعارك، وبالبسالة في ميادين القتال، هذا عدا أنهما لم يكونا شخصين اثنين فقط، وإنما كانا قادرين على حشد المقاتلين المتمرسين من أبناء قبيلتهم الرَّوادية الكبيرة والواسعة الانتشار، إضافة إلى قدرتهم على تجنيد المقاتلين من القبائل الكردية الأخرى.

في هذه الأجواء الإقليمية ولد العادل.

وكان العنصر الفاعل فيها، بل صار من يرسم سياساتها.

فماذا عن نشأته؟

نشأة العادل

أما اسمه فهو محمد بن أيوب بن شادي (شاذي) بن مروان.

وأما كنيته فهي أبو بكر.

وأما لقبه الأشهر فهو العادل سيف الدين.

وهو أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وثمة اختلاف في الأخبار الدائرة حول تاريخ ولادته ومكان الولادة، فذكر ابن خلّكان في (وفيات الأعيان) أنه ولد في دمشق سنة (٥٤٠ هـ)، أو في سنة (٥٣٨ هـ)، في حين ذكر ابن تَغْري بَرْدي في (النجوم الزاهرة) أنه ولد في بعلبك سنة (٥٣٤ هـ)، وأنه أصغر من صلاح الدين بسنتين، وأورد ابن تغري بردي أيضاً التاريخين اللذين ذكرهما ابن خلّكان، أقصد سنة (٥٣٨ هـ)، وسنة (٥٤٠ هـ)، وذكر أن العادل عاش (٧٦) سنة، وقد اعتمد خير الدين الزِّرِكلي في (الأعلام) سنة (٥٤٠ هـ) تاريخاً لولادة العادل، وهذا ما اعتمدناه أيضاً، إذ يبدو أنه الأرجح.

وأمضى محمد طفولته وصباه في وقت كانت فيه الدولة الزنكية تصبح أشد قوة وأكثر اتساعاً إذ هيمنت على سوريا من الشمال بالسيطرة على حلب، وامتدت إلى الجنوب بالسيطرة على دمشق، وانتقلت القيادة الزنكية إلى دمشق في عهد نور الدين زنكي، لتتاخم المواقع الفرنجية على امتداد الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، من أنطاكيا شمالاً إلى العريش جنوباً، إضافة إلى المناطق السورية المتاخمة لمنطقة حمص من الغرب، وإضافة إلى لبنان وفلسطين والأردن، وهذا يعني أن الدولة الزنكية أصبحت، على الصعيد الجيوسياسي، مرشحة، إلى جانب الدولة الفاطمية في مصر، لمواجهة القوات الفرنجية، ومن ورائها أهم دول أوربا.

وأمضى محمد شبابه في وقت كان فيه شأن أسرته الأيوبية يرتفع شيئاً فشيئاً، فقد أفلح الأخوان أيوب وشيركوه في ضم دمشق وجنوبي سوريا إلى الدولة الزنكية، وكان ذلك العمل كسباً إستراتيجياً في الغاية من الأهمية بالنسبة إلى نورالدين زنكي، حتى إنه نقل مركز قيادته من حلب إلى دمشق، واتخذها قاعدة لمواجهة الفرنج ومقارعتهم، ونتيجة لذلك الإنجاز منح نور الدين كلاً من الأخوين إقطاعات واسعة، وصلاحيات قيادية متميِّزة، قال أبو شامة في (عيون الروضتين):

" وصارا عنده في أعلى المنازل، لا سيما نجم الدين، فإنّ جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم، أو أحدهم بذلك، إلا نجم الدين، فإنه كان إذا دخل قعد من غير أن يؤمر بذلك ".

ولا ريب في أن الفتى محمداً تلقّى، بصحبة أخيه صلاح الدين، وبرعاية والده أيوب وعمه شيركوه، دروس القتال، وتعلّم مهارات الفروسية، ولا ريب في أنه تلقى أيضاً قسطاً وافياً من العلم، كما كان شأن معظم أبناء الطبقة القيادية حينذاك، إذ تفصح سيرته عن أنه كان رجلاً مثقّفاً، يميل إلى مجالسة العلماء.

الرجل الثاني

كان نجم الدين أيوب إدارياً قديراً، كما كان عسكرياً متمرساً، ولا أحسب أن أباً مثله يترك أبناءه للهو والدعة، ولا سيما في عصر كانت المغالبة فيه هي التي تصنع مستقبل الأفراد والجماعات، والأرجح أن الوالد كان يصطحب ولده سيف الدين معه للمشاركة في الحروب، وما كان أكثرها بين نور الدين زنكي والفرنج! والأرجح أيضاً أن سيف الدين كان يرافق أخاه صلاح الدين في مثل هذه الأحوال، لكنه كان في مقتبل العمر، ولم يكن حينذاك من القادة البارزين، مثل والده، ومثل عمه شيركوه.

أقول هذا لأن أول ظهور لسيف الدين، حسبما ذكر ابن خلّكان، كان في حملة شيركوه على مصر، ويبدو أنها كانت الحملة الثالثة سنة (٥٦٤ هـ/١١٦٨ م)، وكان عمره على الأرجح حوالي الرابعة والعشرين، ففي تلك السنة وصل الفتى سيف الدين إلى مصر بصحبة أخيه صلاح الدين وعمه شيركوه، وبطبيعة الحال لم يذهب إلى مصر للتنزه على شاطئ النيل، أو لرؤية الأهرامات، وإنما ذهب للمشاركة في مقارعة الفرنج، وحماية مصر من التهديد بالاحتلال.

ومرة أخرى لا نرى للفتى سيف الدين ذكراً في مصر كذكر أخيه صلاح الدين، لكن لا ريب في أنه كان مشاركاً في الحروب التي خاضها شيركوه هناك ضد الفرنج، وليس من المستبعد أن يكون شأنه قد ارتفع بعد أن أصبح عمه شيركوه وزيراً للدولة الفاطمية في مصر، وأيضاً بعد أن حلّ صلاح الدين في منصب الوزارة بعد وفاة شيركوه ، ثم قيام صلاح الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية، بطلب من الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وبأمر من نور الدين زنكي، وضم مصر إلى الدولة الزنكية.

أما علوّ شأن الفتى سيف الدين محمد في عهد أخيه السلطان صلاح الدين فذلك أمر أكّده كل من تناول سيرته، وتفيد الأخبار الواردة حول إنجازات صلاح الدين أن العادل كان الرجل الثاني في الدولة، وإليكم بعض الشواهد.

- في سنة (٥٧٠ هـ) ظهر التمرد على حكم صلاح الدين في أسوان (في صعيد مصر)، واجتمع خلق كثير من السودان لإعادة الدولة الفاطمية، " **فسيّر صلاح الدين إليهم جيشاً كثيفاً، وجعل مقدّمه أخاه العادل** "، فحاربهم فكسروه، ثم استقرت له الأمور (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).
- ولما ملك صلاح الدين مصر كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام، ويستدعي منه الأموال للإنفاق على الجند وغيرهم (انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان).
- في سنة (٥٧٢ هـ) قاد مقدّم السودان ثورة في صعيد مصر، ومعه مئة ألف أسود، لإعادة الدولة الفاطمية، فخرج إليه صلاح الدين ومعه العادل، وأبو الهيجاء الهكّاري، وعزّ الدين مُوسَك، وقُتل مقدّم السودان وأكثر من معه (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).
- بعد أن ملك الفرنج عكّا أبقى صلاح الدين أخاه العادل في قبالة الإفرنج، وذهب لتخريب عسقلان خوفاً من سقوطها في يد الفرنج وهي عامرة، فينقطع طريق مصر (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).
- في سنة (٥٧٨ هـ/١١٨٢ م) كان صلاح الدين في بلاد الشام، يهاجم الفرنج ويضيّق الخناق عليهم، فأقدم الأمير الفرنسي رينو دى شاتيون (البرنس أرناط)، حاكم الكَرك في جنوبي الأردن، على تنفيذ مخطط غزو الحجاز عبر البحر الأحمر، فأمر صلاح الدين أخاه العادل- وكان نائبه في مصر- بالتصدي للغزو، فأعدّ العادل أسطولاً قوياً، بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ، وألحق الفشل بالغزاة الفرنج في أرض الحجاز (انظر المقريزي: السلوك).
- وصل الخبر إلى العادل أن الفرنج يسعون في الصلح، وبسبب ضجر الناس والعساكر من القتال، وكثرة الديون، وافق صلاح الدين على الصلح، وفوّض الأمر إلى العادل، فقام العادل بالمهمة، وأصبح يعرف عند الفرنج بلقب Saphadin، بل إنه أقام صداقة وطيدة مع الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد، وكان ريتشارد أكثر ملوك أوربا بسالة، وأشدّهم بأساً، وكان من ثَمّ أشدّهم خطراً، وأُعجب ريتشارد بالعادل، حتى إنه اقترح على صلاح الدين أن يتزوّج- أي العادل- من أخته جان Jean تأكيداً للود بين الفريقين، لكن ريتشارد اعتذر بعدئذ بسبب

معارضة رجال الكنيسة (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة)، و(عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية).

وجملة القول أن صلاح الدين كان كثير الاعتماد على أخيه العادل، ولا سيما في المواقف الصعبة، وقال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة): **"وكان صلاح الدين يعوّل عليه كثيراً، واستنابه بمصر مدة "**.

وعبارة (استنابه بمصر مدة) تعني الكثير، إذ المعروف أن صلاح الدين ظل يحارب الفرنج على الجبهة الشمالية (بلاد الشام)، وهناك كانت أشد حروبه ضراوة، لكن مصر كانت الاحتياطي الإستراتيجي له، أو ما يسمّى في عصرنا بمصطلح (الدعم اللوجستي)، فالحروب بحاجة إلى الأسلحة والعتاد والأموال، وكانت مصر هي التي ترفد جيش صلاح الدين بهذه الحاجات المهمة، وقيام صلاح الدين بتعيين أخيه العادل نائباً عنه في مصر دليل على ثقته الشديدة به.

وقد ولّى صلاح الدين أخاه العادل على مواقع أخرى مهمة على الصعيد الإستراتيجي حينذاك، منها مدينة حلب، وقلعة الكَرَك في الأردن، وقبيل وفاة صلاح الدين كان العادل والياً على الجزيرة، والرُّها، وسُمَيْساط، والرقّة، وقلعة جَعْبَر، وديار بكر، ومَيّافارقين، وكان له في بلاد الشام الكَرَك والشُّوبَك (انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان)، و(ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).

وكان العادل على الدوام مخلصاً لأخيه صلاح الدين، يقف إلى جانبه بعقله الراجح، وبسيفه وحنكته الحربية، ويقول ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) موضحاً ذلك: **" وكان العادل يواظب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أول داخل وآخر خارج، وبهذا جلبه، وكان يشاوره في أمور الدولة لِما جرّب من نفوذ رأيه "**.

ألقاب.. وتساؤلات !

ولئلا تختلط علينا الأمور دعونا نقف عند بعض الألقاب القديمة.

فلقب (الخليفة) معروف، وكان خاصاً بالعرب من قريش، ومنهم كان الخلفاء الراشدون الأربعة، والخلفاء الأمويون في دمشق والأندلس، والخليفة عبد الله بن الزبير، ولا أدري لماذا لا يذكره المؤرخون في عصرنا ضمن عهود الخلفاء؟! علماً بأن خلافته دامت سبع سنين على أقل

تقدير، وشملت شبه الجزيرة العربية، والعراق، وبلاد فارس، ومن قريش أيضاً كان خلفاء بني العباس، والخلفاء الفاطميون.

أما لقب (ملك) فقد استُحدِث في العهد البُوَيهي، وهم أول من حمل هذا اللقب في تاريخ الإسلام، ومنهم الملك معزّ الدولة والملك عَضُد الدولة، ومع سيطرة السلاجقة على بغداد منحهم خلفاء بني العباس لقب (سلطان)، وهو فوق لقب (ملك)، ودون لقب (خليفة)، أما لقب (أمير) فكان يُطلق على القادة والضباط الكبار، وبناء على هذه الترتيبة اللقبية كان صلاح الدين يحمل لقب (سلطان) في حين كان أولاده وإخوته يحملون لقب (ملك).

ومعروف أن دولة صلاح الدين كانت واسعة الأرجاء، وكان نفوذها يشمل معظم مناطق كردستان جنوباً وشمالاً وغرباً، إضافة إلى بلاد الشام (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين) ومصر وما يتاخمها من السودان جنوباً، ومن ليبيا غرباً، كما كان نفوذها يشمل الحجاز (مكة والمدينة) واليمن.

وكان صلاح الدين قد ولّى أولاده الكبار، وبعض إخوته وأبناء إخوته، على أرجاء الدولة، فكان ولده الملك الأفضل علي، وهو أكبر أبنائه، والياً على دمشق وما يتبعها من جنوبي بلاد الشام، وكان ولده الملك العزيز عثمان والياً على مصر وما يجاورها من السودان وليبيا، وكان ولده الملك الظاهر غازي والياً على حلب وشمالي سوريا عامة، وكان أخوه الملك العادل والياً على الجزيرة وكردستان كما مر، وكان أخوه الملك ظهير الدين طُغْتِكين والياً على اليمن، إضافة إلى أنه كان قد ولّى عدداً من أبناء إخوته وأبناء عمه شيركوه على المدن والقلاع الهامة في بلاد الشام، مثل حمص وحماه وبعلبك.

ويلاحظ أن صلاح الدين كان قد أوكل أمر أهم أقسام دولته (مصر والشام) إلى أولاده، وعندما مرض ودنت وفاته كان في دمشق، وكان ولده الملك الأفضل هو الموجود إلى جانبه، وكان قد طلب من الأمراء وكبار القواد أن يقسموا للأفضل يمين الولاء، وهذا يعني أنه جعله ولياً للعهد بعده.

ولا ريب أن صلاح الدين كان يحسن الظن بأولاده، ويثق بالقاعدة الاجتماعية الكردية والشرق متوسطية عامة، أقصد حلول الابن الأكبر محل الوالد في حال غيابه أو في حال وفاته، وكان لا يشك في أن أبناءه سيأخذون بتلك القاعدة، وسينضوون جميعاً تحت لواء أخيهم الكبير الملك الأفضل، وخاصة أن الفرنج كانوا يستجمعون قواهم في فلسطين ثانية، وكانوا قد استردّوا عكّا، ويستعدون لاسترداد القدس وسواها من البلاد التي حررها صلاح الدين.

صراعات خطيرة!

توفي صلاح الدين سنة (٥٨٩ هـ)، وكان لـه مـن الأبنـاء سـبعة عـشر ذكراً، وابنـة واحـدة صغيرة، وكانت دولته الواسعة الأرجاء مقسّمة ضمناً إلى شبه فدراليات، لكـل حـاكم أن يتخـذ من القرارات والإجراءات الداخلية وفق ما يتناسب مع منطقة نفوذه، لكن الجميع ينضوون تحت لواء (الدولة الأيوبية)، وعدّ الملك الأفضل نفسه سلطاناً بعد أبيه، باعتباره الأكـبر بـين إخوتـه، وباعتبار أن الأمراء وكبار القادة كانوا قد أقسموا له يمين الولاء في حياة أبيه، قال ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

"ولما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علي، وكان قد حلّف له العساكر جميعها غير مرة في حياته ".

وسرعان ما نشبت المنافسات بين أبناء صلاح الدين، وكانت تلك المنافسات تتحـوّل إلى مـشكلات وخصومات وصراعات، وكانت بطانة كل ولد مـن أولاده تـصب الزيـت علـى النـار، كمـا يقـول المثـل، وتعمل جاهدة لإلحاق الهزيمة ببطانة الابن الآخر، والفوز من ثم بالمناصب والسلطة والثروات.

وحاول الأفضل الحصول على موافقة الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغـداد كمـا كانـت العادة حينذاك، فأرسل إلى دار الخلافة وفداً برئاسـة القاضـي ضـياء الـدين القاسـم بـن يحيـى الشهرزوري، **" ومعه عُدد والده وملابسه وخيلـه، وهديـة نفيـسة "** حـسبما ذكـر المقريـزي في (السلوك)، وكأنما كان الأفضل يقـول للخليفة ضمناً: لقد ائتمنني والـدي على ما هو خاص به، فأنا الأجـدر بأن أرث السلطنة أيضاً.

إلا أن الأمور لم تسر كما أرادها الملك الأفضل، فقد نافسه أخوه الملك العزيز في مـصر، قـال المقريزي في (السلوك):

" ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر، مقيم بالقاهرة، وعنـده جـلّ العـساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد، فلما بلغه موت أبيه جلس للعزاء، وأخـذ بـالحزم، وقرر أمور دولته، وخلع على الأمراء وأرباب الدولة بعد انقضاء العزاء ".

إن هذه التدابير توحي بأن الملك العزيز عدّ نفسه سلطاناً في مصر، ولم يقرّ للأفضل بالتبعية، بل للباحث المتأمل - وهو يقارن بين شخصية كل من الأفضل والعزيز- أن يخرج بالنتيجة الآتية:

كان الملك العزيز متصفاً بالحزم والعزم، متفوقاً على الأفضل في مباشـرة الأمـور ، وحـسن التدبير، وفي كيفية التعامل مع الرعية من الخاصة والعامة، وكان أكثـر فطنـة مـن الأفـضل في

استقطاب مراكز القوى من كبار الأمراء والضباط، وعلى الجملة كان يحظى بخصال قيادية لم تكن متوافرة في الأفضل، ثم لا ننس أنه كان الحاكم في المقر الأساسي للدولة الأيوبية، أقصد مصر بمواردها وكثافة سكانها، وبموقعها الإستراتيجي.

فلسفة المغالبة

لقد توجّس الملك الأفضل خيفة من التدابير التي اتخذها أخوه الملك العزيز في مصر، فحشد من حوله دعم ملوك بني أيوب له، ومن بينهم عمه العادل، وأراد في الوقت نفسه أن يقطع الطريق على العزيز، من خلال الفوز باعتراف الخليفة العباسي، ولم نجد ذكراً لنتيجة مساعي الوفد الذاهب إلى بغداد، والأرجح أن الأفضل لم يفز باعتراف صريح، وكان الخليفة الناصر- وهو من دهاة خلفاء بني العباس- أذكى من أن يمنح الاعتراف الصريح للأفضل، وهو يعرف أن العزيز ينافسه على السلطنة.

على أن سياسات الأفضل جرّت عليه المصائب، فقد اتخذ الأديب الناقد ضياء الدين ابن الأثير، صاحب كتاب (المثل السائر)، وزيراً له، " **وفوّض إليه أموره كلها، فحسّن له إبعاد أمراء أبيه، وأكابر أصحابه، وأن يستجدّ أمراء غيرهم** "، ففارقه كبار الأمراء، " **وكانوا عظماء الدولة، فصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة، فأكرمهم** "، وتبعهم القاضي الفاضل، المهندس الإداري الأول في عهد صلاح الدين، " **ولحق بالقاهرة، فخرج العزيز إلى لقائه، وأجلّ قدومه، وأكرمه** ". (انظر المقريزي: السلوك).

وكان الملك العادل يصلح بين الأخوين العزيز والأفضل، ويحاول لمّ شمل الأسرة الأيوبية، وحينما توجّه الملك العزيز إلى بلاد الشام، لإزاحة أخيه الأفضل، هبّ معظم أمراء بني أيوب لمساعدة الأفضل ضد العزيز، واستعان الأفضل بالعادل، فنصح العادل الملك العزيز بالعودة قائلاً له: " **لا تخرب البيت، وتدخل عليها الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب** ". فرجع العزيز إلى مصر. (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).

وقرر الملك الأفضل أكثر من مرة أن يتنازل عن السلطنة لأخيه الملك العزيز، لكن وزيره ابن الأثير كان يشير عليه بغير ذلك، ويدفعه إلى المواجهة والمخاصمة، وظلت أزمة الانفراد بالسلطنة قائمة بين الأخوين (الكامل والعزيز)، وفي البداية حاول العادل إزالة أسباب الخلاف، لكن يبدو أن نزعة (المغالبة) غلبته، ورأى أنه الأجدر بأن يكون السلطان، فهو الذي شارك أخاه صلاح

الدين في تأسيس هذه الدولة، وفي تحقيق الانتصارات المدوية، وهو صاحب باع طويل في الإدارة والقيادة، فلماذا يدع الأمر بين أيدي أولاد أخيه المتخاصمين؟

وبعد مناورات عديدة، والوقوف تارة إلى جانب الأفضل، وأخرى إلى جانب العزيز، أصبح الملك العادل هو السلطان غير المتوّج، إليه يحتكم الإخوة المتخاصمون، وبه يلوذ من يصبح في الموقف الأضعف.

وفي سنة (٥٩٢ هـ) كان العادل قد عقد سراً صفقة سياسية مع الملك العزيز، مفادها أن يساعد العزيز على إزاحة الأفضل، والسيطرة على دمشق، ويكون الثمن تعيينه نائباً للعزيز في مصر.

وكان العادل أكثر الناس معرفة بأهمية مصر على الصعيد الإقليمي، فمن يسيطر عليها هو المنتصر في لعبة (المغالبة)، لكن " لما ملك العزيز دمشق، وأخرج أخاه الأفضل منها، انكشفت له مستورات مكائد عمه، فندم على ما قرّره معه، وبعث إلى أخيه الأفضل سراً يعتذر إليه " (انظر المقريزي: السلوك). إلا أن الأفضل كان قد فقد الثقة بأخيه العزيز، وذهبت محاولات العزيز أدراج الرياح، فعاد إلى مصر، وأصبحت دمشق تابعة له اسماً، لكنها كانت تحت سلطة العادل في الحقيقة.

جيوبوليتيك

ومعروف أن الموقع الجيوبوليتيكي (الجغرافيا السياسية) لمنطقة ما يفرض على الحاكم، في أحيان كثيرة، القيام بمهامّ وأدوار معيّنة، وباجتماع الجيوبوليتيك مع تطلعات قائد طموح تصبح المهمات أكثر إلحاحاً وحدّة، وهذا الذي حدث للعادل، فبعد أن صار سيّد جنوبي سوريا، بات لزاماً عليه أن يدخل في مواجهات مع الفرنج المتاخمين لبلاده غرباً في لبنان، وجنوباً في فلسطين.

وقام العادل في سنة (٥٩٣ هـ) بمهاجمة يافا، وفتحها عَنوة، ثم توجّه إلى صيدا وبيروت فأخربهما، لكن الفرنج استجمعوا قواهم، وجاءهم المدد من أوربا، فهاجموا قلعة بيروت سنة (٥٩٤ هـ)، وسيطروا عليها، وهاجموا أطراف القدس، وأسروا وغنموا كثيراً، فاستنجد العادل بالعزيز في مصر، فأنجده العزيز بجيش، ثم سار العزيز إليه بنفسه ومعه العساكر لقتال الفرنج، ودارت معارك حامية بين الجانبين الأيوبي والفرنجي، كان النصر فيها للجانب الأيوبي، مما اضطر الفرنج إلى عقد هدنة مدتها ثلاث سنوات، وعاد العزيز إلى مصر، والعادل إلى دمشق. (انظر المقريزي: السلوك).

ومر أن العادل كان الحاكم في الجزيرة وكردستان، وبعد تحقيق الانتصارات على الفرنج، وتعزيز موقفه جنوباً، التفت إلى منطقة نفوذه شرقاً، فحاصر ماردين، وسيطر على أطرافها، وكانت في أيدي الأسرة الأُرتقية التركمانية، كما أنه قاتل جند المواصلة الذين كانوا بقيادة الزنكيين.

السلطان!

وفي سنة (٥٩٥ هـ) توفي العزيز في مصر، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة، وحلّ محلّه في السلطنة ابنه محمد، ولقبه المنصور، وهو صبي عمره تسع سنوات، واتفق كبار القادة على أن يكون عمه الملك الأفضل وصياً عليه، وسيطر الأفضل على مقاليد الأمور في مصر، واتفق مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب على انتزاع دمشق وجنوبي سوريا من يدي عميهما العادل، وحاصرا دمشق.

لكن العادل، وهو الرجل الخبير بفن إدارة المعارك، سياسية كانت أم حربية، أفلح في زرع الشقاق بين الأخوين، وعاد الأفضل إلى مصر، وما لبث العادل أن لحقه إلى هناك، واستمال إليه كبار القادة بالأموال، وكان سوء تدبير الأفضل خير معين للعادل في تحقيق النصر، ودخل العادل القاهرة سنة (٥٩٦ هـ)، ونصب نفسه وصياً على السلطان المنصور ابن العزيز.

وقام العادل بالانقلاب، وذكر المقريزي في (السلوك)، أن العادل أحضر الأمراء وكبار القادة، وقال لهم:

" إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي، مع الشيخوخة والتقدم، والمُلك ليس بالإرث، إنما هو لمن غلب، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين، غير أني تركت ذلك إكراماً لأخي، ورعاية لحقه، فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم، خفت أن يخرج المُلك عن يدي ويد أولاد أخي، فسستُ الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه، فلما ملكتُ هذه البلاد، وطّنت نفسي على أتابكية ﴿وصاية﴾ هذا الصبي، حتى يبلغ أشدّه، فرأيت العصبيات باقية، والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ عليّ ما طرأ على الملك الفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر، وما يُعلم ما يكون عاقبة ذلك، والرأي أن يمضي هذا الصبي إلى الكُتّاب، وأقيم له من يؤدّبه ويعلّمه، فإذا تأهّل وبلغ أشده نظرت في أمره، وقمت مصالحه ".

ووقفت فرقة الأسدية (مماليك أسد الدين شيركوه) إلى جانب العـادل في انقلابـه ذاك، ويبـدو أنها كانت الأقوى والأكثر نفوذاً، فلم ير الآخرون بداً من موافقته، فحلفوا له، وخلعـوا المنـصور ابن العزيز.

وهكذا انفرد العادل بالسلطنة في نهاية الأمر، وأقيمـت الخطبـة لـه في مـصر والـشام وحـرّان والرُّها وميّافارقين، وضُربت السكّة (النقود) باسمه، وكان ذكر الاسـم في الخطبـة وفي الـسكة مـن علامات السلطة قديماً، واستدعى ابنه الملك الكامل من كردستان، ونصبه نائباً عنه في مـصر، وجعله وليّ عهده، وحلف له الأمراء، ولا ريب أن نزاعات أولاد صلاح الـدين هـي الـتي حملتـه على اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة.

والسلطان العادل خرّيج ثقافة (المغالبة)، كما أنه رجل فن (المغالبة) بجدارة، ويعلم أن ثمة من لم يقر لـه بالحاكميـة إلا اضـطراراً، وأن هـؤلاء قـد يكيـدون لـه، ويـشكّلون مركـز خطـر عليـه، متذرّعين بحقوق المنصور في السلطنة، لذا لم يكتف بتنحية المنصور جانبـاً، وإنمـا أخرجـه، ومعـه والدته وإخوته، من مصر، ووجّههم بعيداً إلى الرُّها، وفرض عليهم الإقامـة الجبرية هناك.

وحدة الكلمة

ونشبت النزاعات ثانية بين الـسلطان العـادل مـن ناحيـة، والأخـوين الملـك الأفـضل والملـك الظاهر من ناحية أخر، وبعد مناوشات ومواجهات حامية داخل البيت الأيوبي، اصطلح الجميع، سنة (٥٩٨ هـ)، على أن يكون للعادل مصر ودمشق، والسواحل وبيت المقدس، وجميع مـا كـان تحت سلطته في الجزيرة وكردستان، وأن يكون للملك الظاهر حلب ومـا معهـا، وللملـك الأفـضل سُمَيْساط وتوابعها، وتكون كل من حماة وتوابعها، وحمص وتوابعها، وبعلبـك وتوابعهـا، لملـوك آخرين من الأسرة الأيوبية، على أن يكون الملك العادل سـلطان الـبلاد جميعهـا، وأقـسم الجميـع على ذلك. (انظر المقريزي: السلوك).

وفي السنة نفسها نصب العادل ابنه الملك الأشرف مظفّـر الـدين موسـى علـى بـلاد الجزيـرة، فتسلّم حرّان والرُّها وما معهما، ونصب ابنه الملك الأوحد أيوب علـى ميّافـارقين، ونـصب ابنـه الملك الحافظ نور الدين على قلعة جَعْبَر، ونصب ابنه الملك المعظّم عيسى على دمـشق، ضـامناً بذلك أن البلاد كلها تقع تحت سلطته المباشرة. (انظر المقريزي: السلوك).

ولم تقتصر سلطة العادل على هذه البلاد، وإنما استولى ولده الملك الأوحد أيوب، حاكم ميّافارقين، على خِلاط وبلاد أرمينيا سنة (٦٠٤ هـ)، فاتّسعت مملكته، كما أنه بسط سلطته على اليمن في سنة (٦١٢ هـ)، وسيّر إليها حفيده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفّر يوسف، المعروف بأطسيس (أتْسِيز) ابن الملك الكامل. وهكذا امتدت الدولة الأيوبية في عهد العادل من بلاد الكرج (جورجيا) إلى هَمَذان (عاصمة الميديين قديماً) في جنوبي كردستان، وضمت الجزيرة، والشام، ومصر، والحجاز، ومكة والمدينة، واليمن إلى حضرموت. (انظر وفيات الأعيان)، و(ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).

ولما ضم السلطان العادل إقليم أرمينيا إلى دولته أرسل وفداً إلى بغداد يطلب التقليد من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فسيّر إليه الخليفة الخِلعة، وكانت مؤلفة من " **جبّة سوداء بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب فيه جوهر، وقُلّد سيفاً محلّى جميع قِرابه بالذهب، وحصانٌ أشهب بمركب ذهب، وعلمٌ أسود مكتوب فيه بالبياض ألقاب الناصر لدين الله** ". وكان رسول الخليفة إلى العادل هو الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن محمد السّهْرَوَرْدي، ومُنح العادل لقب شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. (انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة).

مقارعة الفرنج

في ذلك الوقت ما كان الفرنج قد أخلدوا إلى الهدوء، وإنما كانوا يحاولون استعادة البلاد التي خسروها في حروبهم السابقة، وكان العادل يتصدّى لهم بالقوة العسكرية تارة، ويعمد إلى التفاوض معهم مرات أخرى، وكان أميل إلى حل الخلافات معهم بالطرق الدبلوماسية الهادئة، وعقد معهم الهدنة تلو الهدنة، على أنه اهتّم في الوقت نفسه ببناء القلاع، وإقامة التحصينات الدفاعية.

وشهد شرقي المتوسط في عهد السلطان العادل أخطاراً خارجية عديدة.

ففي سنة (٦٠٥ هـ) هاجم ملك الكُرْج (جورجيا) مدينة خِلاط، فنهبها وأسر كثيراً من أهلها، فتوجّه إليه السلطان العادل سنة (٦٠٦ هـ)، ومعه معظم ملوك بني أيوب بقواتهم، وأسر الملك الجورجي، ففدى نفسه بمئة ألف دينار، وبخمسة آلاف أسير.

هذا في الشرق.

وفي الغرب كانت الجبهة حامية مع الفرنج.

فقد توفي صلاح الدين والهدنة قائمة بينه وبين الفرنج، وكانت مدتها تنتهي في سنة (٥٩٢ هـ/١١٩٥ م)، وجدّد الملك العزيز ابن صلاح الدين تلك الهدنة سنة أخرى، لتنتهي سنة (٥٩٣ هـ)، وكان البابا أنوسنت الثالث يدعو حينذاك إلى حملة صليبية جديدة، فلم يلبّ الدعوة سوى هنري السادس ملك ألمانيا، لأن إنكلترا وفرنسا كانتا منشغلتين بالحرب المندلعة بينهما، وانطلقت حملة هنري السادس من شواطئ إيطاليا، ووصلت إلى عكّا في أواخر سنة (٥٩٤ هـ/١١٩٧ م)، لكن كان النزاع قد نشب بين الفرنج المستوطنين في الساحل السوري والفرنج القادمين، مما ساعد الأيوبيين على تحقيق الانتصار، ثم توفي الملك هنري السادس، وباءت الحملة بالفشل.

وشن الفرنج حملتين صليبيتين على الدولة الأيوبية في عهد العادل.

- الأولى هي الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨ – ٦٠١ هـ/ ١٢٠٢ – ١٢٠٤ م)، وشارك فيها عدد كبير من فرسان إنكلترا وفرنسا وألمانيا، واجتمعوا في جنوبي إيطاليا، على أن يساعدهم دوق البندقية (ڤينيسيا) على الإبحار إلى شرقي المتوسط، لكن العادل وظّف دبلوماسيته، فأرسل وفداً إلى كبار زعماء البندقية وتجارها، ومع الوفد هدايا ووعود بأن يكون لتجار البندقية امتيازات تجارية استثنائية في مدن الدولة الأيوبية الكبرى، على أن يستخدم دوق البندقية نفوذه لإبعاد الحملة عن مصر والشام، ونجحت خطة العادل، وعمل الدوق من وراء الستار إلى توجيه الفرنج نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. (انظر سحر السيد سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي).
- والثانية هي الحملة الصليبية الخامسة، وكان الفرنج قد غيّروا إستراتيجيتهم بشكل جذري، وبدل أن يشنّوا الحملات على بلاد الشام، بقصد استرداد القدس، قرروا الاستيلاء على مصر، لاعتقادهم بأنه ما دامت مصر منضوية تحت لواء الأيوبيين فلن يستطيعوا تحقيق هدفهم الأول (استرداد القدس)، وأن القيادة الأيوبية في مصر يمكن أن تلحق الفشل بكل انتصار يحققونه.

ووضع الفرنج خطتهم الجديدة هذه موضع التنفيذ سنة (٦١٥ هـ/١٢١٨ م)، وحينذاك كان السلطان العادل قد أناب عنه في مصر ولده الملك الكامل، وتوجّه إلى بلاد الشام لمحاربة الفرنج، وكان هؤلاء قد نقضوا الصلح الذي كان قد تجدد سنة (٦١٠ هـ/١٢١٢ م)، وكانوا يعملون لاسترداد بيت المقدس وسائر مدن الساحل السوري التي خسروها سابقاً، وكانوا يزدادون قوة،

وكانت أوربا تـزوّدهم بالإمـدادات الـوفيرة في الرجـال والعتـاد والأمـوال، في حـين كانـت الدولـة الأيوبية لا تزال تعاني من آثار الصراعات الداخلية، ومن نتائج تعدّد مراكز القوى.

وكان السلطان العادل قد خرج سنة (٦١٤ هـ) من مصر، متوجهاً إلى اللدّ في فلسطين، لكنـه عجز عن مواجهة الفرنج، لقلة من كان معه من الجند، فعـاث الفـرنج فساداً في المنـاطق التابعـة للأيوبيين من فلسطين، وهاجموا بيسان، وأعملوا السيف في أهلها، وحاصروا بانياس أياماً.

وخلال تلك المدة كـان الفـرنج يـستكملون العـدد والعـدّة اسـتعداداً للـشروع في شـنّ الحملـة الصليبية الخامسة، وكانت القيادة الفرنجية متمركزة في عكا، وكان القائد العام للحملة هو جـان دى برين، ملك مملكة المقـدس، وانطلقـت الحملـة في أسـطول ضـخم، يحمـل عـشرة آلاف فـارس، ومئتي ألف راجل، وكانت الوجهة مدينة دمياط، على الساحل المصري.

وكانت دمياط مدينة حصينة للغاية، تدور بها الأسوار، وتدعمها القلاع والأبراج الضخمة، ويدور بسورها خنـدق حُفـر في أواخـر عهـد صـلاح الـدين، ونـزل الفـرنج بـالقرب مـن دميـاط، واستماتوا في سبيل احتلالها، كما استبسل الجيش الأيـوبي، بقيـادة الملـك الكامـل، في الـدفاع عنها، وكان السلطان العادل يرسل الإمدادات تباعـاً مـن بـلاد الـشام، لتعزيـز موقـف الجـيش الأيوبي في دمياط، وبعد معارك عنيفة بين الجانبين الأيوبي والفرنجي، ورغـم لجـوء الكامـل إلى خطط حربية بارعة، أفلح الفرنج في الاستيلاء على برج ضـخم في مـدخل دميـاط يُعـرف باسـم (برج السلسلة)، مما جعلهم قاب قوسين أو أدنى من احتلال دمياط.

وكان السلطان العادل حينذاك في مرج الصُّفَّر بفلسطين، ولما وصله خبر سـيطرة الفـرنج علـى برج السلسلة تأثّر، وتأوّه تأوّهاً شديداً، ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض مـن سـاعته، ورحل من مرج الصّفّر إلى قرية عالِقين قرب دمـشق، واشـتد بـه المرض، وتـوفّي هنـاك، وكـتم أصحابه الخبر، وحُمل في محفّة لإيهام الناس بأنه مـا زال حيـاً، إلى أن أُدخـل إلى قلعـة دمـشق، ودفنه ولده الملك المعظم في القلعة وكان ذلك سنة (٦١٥ هـ)، وكانت السنة التاسعة عـشرة مـن حكم العادل، ثم نقـل إلى مدرسـته المعروفـة باسمـه، ودفـن في التربـة الـتي بهـا. (انظـر وفيـات الأعيان)، و(ابْن تغري بردي: النجوم الزاهرة).

وقام ابنه الملك المعظّم مقامه في مقابلة الفرنج، ليشغلهم عن دمياط.

واستكمل ولده الملك الكامل أمر مقارعة الفرنج في دمياط،

شخصية متميزة

يخرج المرء من قراءة سيرة السلطان العادل بأنه كان ابن عصر المغالبة، وممثّل ثقافتها، وأنه كان يجمع في شخصه صفات قيادية رائدة، وحسبه أنه الرجل الذي أنقذ الدولة الأيوبية من التفكك والتشرذم، ولمّ شتاتها، ووحّد كلمتها بعد طول تنافس وخصام، وأنقذ بذلك بلاد الشام ومصر، ومن ورائهما الشرق الإسلامي، من الوقوع في قبضة الاحتلال الفرنجي.

وإليكم بعض ما قاله المؤرخون في هذا الرجل.

قال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان):

" وكان ملكاً ذا رأي ومعرفة تامة، قد حنّكته التجارب، حسن السيرة، جميل الطوية، حازماً في الأمور، صالحاً، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متّبعاً لأرباب السنّة، مائلاً إلى العلماء، حتى صنّف له فخر الدين الرازي كتاب (تأسيس التقديس)، وذكر اسمه في خطبته، وسيّره إليه من بلاد خراسان، وبالجملة فإنه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعادته أنه خلّف أولاداً لم يخلّف أحد من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلوّ همّتهم، ودانت له العباد، وملكوا خيار البلاد ".

وأورد ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) ما يلي:

" كان أصغر الإخوة وأطولهم عمراً، وأعمقهم فكراً، وأبصرهم في العواقب، وأشدّهم إمساكاً، وأحبّهم للدرهم، وكان فيه حِلم وأناة وصبر على الشدائد، وكان سعيد الجَدّ ﴿الحظ﴾، عالي الكَعْب، مظفّراً بالأعداء من قبل السماء، وكان نَهِماً أكولا، يحب الطعام واختلاف ألوانه، وكان أكثر أكله بالليل كالخيل، ... وكان كثير الصلاة، ويصوم الخميس، وله صدقات في كثير من الأوقات، وخاصة عندما تنزل به الآفات، وكان كريماً على الطعام يحب من يؤاكله، وكان قليل الأمراض، قال لي طبيبه بمصر: إني آكل خير هذا السلطان سنين كثيرة، ولم يحتج إليّ سوى يوم واحد، ... وكان نكّاحاً يُكثر من اقتناء السّراري ﴿الجواري﴾، وكان غيوراً، لا يدخل في داره خَصِيّ إلا دون البلوغ، وكان يحب أن يطبخ لنفسه، مع أن في كل دار من دور حظاياه مطبخاً دائراً، وكان عفيف الفرج، لا يُعرف له نظر إلى غير حلائله ".

وقال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان):

" ولمّا قسم البلاد بين أولاده كان يتردّد بينهم، وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى، وكان في الغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة، ويشتّي في الديار المصرية، لاعتدال الوقت فيها وقلّة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيراً خارج المعتاد، حتى يقال: إنه يأكل خروفاً لطيفاً مشوياً، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتّعاً في دنياه".

وقال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة):

" وكان مع حرصه يُهين المال عند الشدائد غاية الإهانة ببذله... وكان ثَبَتاً خليقاً بالمُلك، حسن التدبير، حليماً صَفوحاً، مدبِّراً للمُلك على وجه الرضا، عادلاً، مجاهداً، ديِّناً، عفيفاً، متصدِّقاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، طهّر جميع ولاياته من الخمور والخواطئ والقمار والمُكوس والمظالم، وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى ".

وكان السلطان العادل مهتماً بشؤون رعيته، قال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة):**" ولقد فعل العادل في غلاء مصر عَقيب موت العزيز ما لم يفعله غيره، كان يخرج في الليل بنفسه، ويفرّق الأموال في ذوي البيوتات والمساكين".**

ومع ذلك لم تكن الرعية تحب العادل كما كانت تحب أخاه صلاح الدين، وقد فسّر ابن تغري بردي موقف الرعية منه تفسيراً واقعياً ومنطقياً، وكان جنده غير مخلصين له، وحاولوا قتله بأصناف من الحيل مرات كثيرة، لكن مؤامراتهم كانت تنكشف وتبوء بالفشل، وهذا يعني أن العادل كان سلطاناً يقظاً، لا يقع في قبضة الغفلة، وكان يدرك أنه في عصر المغالبة، وينبغي أن يكون في مستوى العصر، قال ابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة):

" لولا أولاده يتولّون بلاده لما ثبت ملكه، بخلاف صلاح الدين، فإنما حفِظ ملكه بالمحبة له، وحسن الطاعة، ... ولم يكن – رحمه الله- بالمنزلة المكروهة، وإنما كان الناس قد أَلِفوا دولة صلاح الدين وأولاده، فتغيّرت عليهم العادة دفعة واحدة، ثم إن وزيره ابن شُكْر بالغ في الظلم ".

وقد مدح عدد من الشعراء السلطان العادل بقصائد بليغة، نذكر منهم الشاعر ابن عُنَيْن (محمد بن نصر الحوراني الدمشقي)، يمدحه قائلاً:

وله البنونَ بكل أرضٍ منهمُ
ملكٌ يقود إلى الأعادي عسكرا
مِن كل وضّاح الجبين تخاله
بدراً، وإن شهد الوغى فغَضَنْفَرا
قومٌ زَكوا أصلاً، وطابوا مَحْتِداً
وتدفّقوا جوداً، وراقوا مَنظرا

(انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان)

وقال ابن عُنَيْن يمدحه أيضاً:

العـــادلُ الملك الذي أسماؤه

في كل ناحيـــة تشرِّف مِنبرا

نسختْ خلائقُه الحمـــيدة ما أتى

في الكتْب عن كسرى الملوك وقيصرا

ملكٌ إذا خفّت حُلــومُ ذوي النُّهى

في الرَّوْع زاد رصـــانةً وتوقّرا

ثَبْتُ الجَنـــان، تُراع من وثبـاته

وثبـــاته يومَ الوغى أسدُ الشَّرى

يعفو عن الذنب العظـــيم تكرّماً

ويصدّ عن قول الخَنـــا متكبّرا

(انظر ابن خلكان:وفيات الأعيان)

ويقول محمد ماهر حمادة في كتابه (الوثائق السياسية والإدارية):

" تطالعنا في الملك العادل شخصية قوية هي مزيج من القوة والدهاء، والواقعية والنظرة الرحيبة، فقد تعلم في مدرسة صلاح الدين، وكانت له باع طولى {الصواب: وكان له باع طويل} في الأعمال التي أنجزها صلاح الدين، وهو نفسه كان طموحاً وتوّاقاً إلى مُلك، ولم يكن بإمكانه تحقيق ذلك ما دام أخوه حياً، فتعلّم لجم مطامعه، ولكنه بدأ في تحقيقها بعد وفاة أخيه، وقد استغل ضعف أولاد أخيه وتفرقهم، فزادهم بدهائه وحنكته ضعفاً وتفرقاً، حتى تمكّن أن يحقق مطامعه، وقد يبدو لنا ذلك عقوقاً من جانبه تجاه أخيه، ولكن السياسة تقضي بذلك، والوحدة خير من التمزق، ومصلحة العباد والبلاد مقدمة على مصلحة الأفراد، وقد دلّت الأحداث على أن الملك العادل كحاكم أفضل من أولاد صلاح الدين، ولا سيما أن البلاد الإسلامية كانت مقبلة في أواخر عهده وعهد ابنه الملك الكامل على تطورات رهيبة، كانت بحاجة إلى شخص من طراز خاص، حتى يستطيع التعامل معها ودفعها ".

في الميزان

بلى، لنضع شخصية العادل في الميزان.

لكن في أي ميزان؟!

في ميزان الزعامة والقيادة.

في ميزان السلاطين والملوك.

في ميزان السياسة والمغالبة والميكيافيلية.

في ميزان المبادئ العليا والقيم السامية.

فكيف نراها؟!

أما أنه تشرّب قيم الفروسية في كنف أسرته العريقة فذلك أمر لا ريب فيه.

وأما أنه القيادي القدير والإداري الخبير فذلك أيضاً أمر لا ريب فيه.

وأما أنه صاحب الخلق الرفيع فذلك أمر شهد له به القدماء والمحدثون.

وأما أنه صاحب الرؤية السياسية الرحيبة فتلك حقيقة تدل عليها مواقفه.

وأما أنه صاحب الفكر السياسي الثاقب فتلك أيضاً حقيقة تشهد بها قراراته.

وأما أنه ابن ثقافة المغالبة ورجل الدهاء فذاك أيضاً أمران لا ننفيهما عنه.

لكن أي دهاء؟! وأية مغالبة؟!

إنه دهاء الإداري الحذر، والسياسي اليقظ، والقائد الحازم، وليس دهاء الانتهازي الجبان الماكر، فبدهائه وحّد العادل الصفوف بعد أن كانت متفرّقة، وقطع دابر الخصومات بعد أن كانت مستشرية، وانتقل بمراكز القوى من حال التنافس إلى حال التكامل، وانتقل بالدولة الأيوبية، قائدة غربي آسيا حينذاك، من التفكك والضعف إلى التماسك والقوة، ولولا ذلك الدهاء ماذا كان سيحلّ بشرقي المتوسط وبغربي آسيا عامة، في وقت كانت فيه قوة الفرنج تتنامى، وخططهم تتعدّد، وهجماتهم تتكرر؟!

وإنها مغالبة السياسي العامل للبناء، وليست مغالبة المغامر العامل للنهب، ولا مغالبة الحاكم الذي يسفك الدماء، ويقيم المذابح لخصومه في كل مكان، أو ينصب لهم فخاخ الغدر، ويجعلهم هم وأولادهم وأموالهم غنيمة لأطماعه.

إن الخليفة الأموي الشهير عبد الملك بن مروان اتخذ المغالبة نهجاً، فدعا منافسه الأموي، وأحد أبناء عمومته، عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بلقب (الأشْدَق، لسعة فمه)، إلى

قصره، ثم جرّده من سيفه بلطف، وأمر بالفتك به، وهذا ما لم يفعله العادل مع أحد من خصومه الأيوبيين وغير الأيوبيين.

وإن الخليفة العباسي الشهير أبا جعفر المنصور اتخذ المغالبة نهجاً، فاستقدم القائد أبا مسلم الخراساني من خراسان، واستضافه في قصره، ثم جرّده من سيفه، ثم راح يشتمه قائلاً له: " يا ابن اللَّخْناء !"، أي (يا ابن العاهرة!)، ثم أمر بالفتك به، وهذا ما لم يفعله العادل بأحد من قوّاده وأمراء جيشه.

وإن الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد، صاحب مئة ركعة صلاة كل يوم حسبما قيل، كان يمازح وزيره جعفر بن يحيى البرمكي في النهار، ويرسل له الهدايا، ويقدّم له الهبات، وفي الليل أصدر الأمر إلى مسرور السيّاف بقطع رأس جعفر، وإحضاره إليه، وما فعل العادل هذا بأحد من وزرائه.

وإن الملك البويهي عَضُد الدولة كان إذا جلس على سريره، أُحضرت الأسود والفيلة والنمور في السلاسل، وجُعلت في حواشي مجلسه، تهويلاً بذلك على الناس، وترويعاً لهم، وهذا ما لم يفعله العادل. (انظر ابن طباطبا: الفخري).

ودعونا ننتقل دفعة واحدة إلى العهد العثماني، عهد المغالبة الشرسة، ولنستشهد بما أورده الصدّيقي في كتابه (المِنح الربّانية في الدولة العثمانية).

إن السلطان سليم الأول خلع والده بايزيد الثاني، وطارد أخويه أحمد وقُورقد وخنقهما، وإن ابنه السلطان سليمان المشهور بلقب (القانوني) توهّم خروج ابنه الأكبر مصطفى عليه، فاستدعاه من مكان ولايته، ولما حضر الابن ممتثلاً أمر والده، أمر الوالد طائفة من التركمان بخنقه، فخُنق بين يديه، ولم يكتف بذلك بل أمر بخنق حفيده مراد ابن ولده مصطفى، فخُنق الحفيد أيضاً.

وإن السلطان محمد الثالث أمر في يوم تولّيه عرش السلطنة بقتل جميع إخوته، وكانوا تسعة عشر ولداً ذكراً، أكبرهم عمره (٢٤) أربع وعشرون سنة، وأصغرهم عمره دون خمس سنوات.

وكل هذا لم يفعله العادل.

إن أقسى ما فعله العادل أنه أمر بترحيل السلطان المنصور بن العزيز من مصر بعيداً إلى الرُّها، وأنه أمر بالقبض على اثنين من أبناء صلاح الدين، وهما الملك المؤيَّد والملك المعزّ، وبسجنهما في دار بهاء الدين قراقوش في القاهرة. (انظر المقريزي: السلوك).

فشتّان بين المغالبتين!

المغالبة الباطشة عند الآخرين، والمغالبة الحليمة عند العادل.

المراجع

١. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٤٧/٦، ٧٨، ١٢١، ١٢٢، ١٦٠– ٢٢٤.

٢. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م، ٧٤٣/١٠، ٧٥١.

٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٧٤/٥ – ٧٨.

٤. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٩٠م ٤٧/٦.

٥. الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ١٥٣ – ١٦٣.

٦. الدكتور السيد عبد العزيز سالم، الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٦١ – ١٧١.

٧. أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، القسم الثاني، ص ٣٢٤ – ٣٣٢.

٨. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص ٢٤.

٩. الدكتور عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية (التاريخ السياسي)، ص ٩٧، ١١٥، ١٣٨.

١٠. محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي: المنح الربانية في الدولة العثمانية، ص ٧٢، ٤٩، ١٠٦، ٢٤٧، ٢٤٨

١١. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، ص ٨٨، ٣٠٦ – ٣١٦.

١٢. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص ١٧٤ – ٢٣٠.

(١١)

السلطان الكامل الأيوبي

(توفي سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م)

أوراسيا

كي نفهم العالم القديم لا بد من فهم الجغرافيا السياسية حينذاك.

وكي نفهم الجغرافيا السياسية لا بد من فهم الجغرافيا البشرية والحضارية.

فالعالم القديم، من حيث الجغرافيا البشرية والحضارية، كان مؤلفاً من ثلاث قارات، هي آسيا وأوربا وإفريقيا، وكانت آسيا وأوربا هما مركز الثقل البشري والحضاري، أما قارة إفريقيا فكان الجزء الشمالي فقط (من مصر إلى دولة المغرب) هو المعروف حضارياً وسياسياً، باعتباره يتاخم آسيا شرقاً، ويطل على البحر الأبيض المتوسط، فيتاخم أوربا شمالاً. ومن الباحثين الإستراتيجيين من يطلق على آسيا وأوربا اسم (أوراسيا)، باعتبارهما قارتين متصلتين جغرافياً، ومتواصلتين حضارياً وبشرياً، وهو اسم مناسب.

أما آسيا فكانت المراكز الحضارية فيها هي: سوريا الكبرى القديمة، وآسيا الصغرى (غربي تركيا حديثاً)، وبلاد الرافدين (جنوب ووسط العراق حديثاً) ، وآريانا (كردستان وفارس وأذربيجان حديثاً)، والهند (بما فيها باكستان حديثاً)، والصين وامتداداتها الحضارية المتاخمة لها في دول شرقي آسيا حديثاً.

وأما أوربا فكان المركز الحضاري الأبرز فيها هو بلاد اليونان، ثم ظهر جيرانهم الرومان في إيطاليا. وأما في الزاوية الشمالية الشرقية من إفريقيا فكانت مصر هي المركز الحضاري المتميّز، ومن يتتبّع النشاط المصري السياسي والحضاري قديماً يكتشف أن مصر كانت تدخل في علاقات سياسية واقتصادية مع دول غربي آسيا وجنوبي أوربا، أكثر بكثير من علاقاتها مع المجتمعات الإفريقية، سواء أكانت تلك الواقعة في غربيها أم جنوبيها.

إذا أخذنا هذه الحقائق في الحسبان كنا أقدر على فهم حروب العالم القديم، فقيام دولة وإمبراطوريات قديماً كان يعني وجود كثافة بشرية معيّنة، وكان يعني من ثم وجود موارد اقتصادية، ووجود أسواق تجارية، وكانت الحرب تنشب لأن دولة ما أو إمبراطورية ما كانت تريد السيطرة على تلك الموارد، والوصول إلى تلك الأسواق، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتوافر طرق تجارية سالكة آمنة، ولا تكون تلك الطرق سالكة وآمنة إلا إذا كانت تمر في أرض صديقة، أو تمر في أرض تقع تحت السيطرة، وأرى من جانبي أن تحليل دوافع الحروب القديمة بعيداً عن هذه الحقائق هو جهد ضائع، وسير في الاتجاه الخاطئ.

مصالح.. وحروب

وكان في العالم الأوراسي القديم (نسبة إلى أوراسيا) طريقان تجاريان عالميان:

- <u>الأول هو طريق الحرير</u>: وكان يبدأ من الصين شرقاً، ويمر بوسط آسيا، ثم بآريانا، فبلاد الرافدين، ويصل إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط عبر آسيا الصغرى وسوريا، وكان هذا الطريق هو الأهم، لأنه يوصل إلى جغرافيا بشرية وحضارية أكثر أهمية وفعالية.
- <u>والثاني هو طريق البخور</u>: وكان يبدأ من موانئ اليمن، في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية، ويمر بمنطقة الحجاز في غربي شبه الجزيرة العربية، وكان فرع منه يتجه شرقاً إلى بلاد الرافدين فآريانا، ويتوجه فرع آخر شمالاً، فيدخل جنوبي سوريا الكبرى، ويصل من هناك إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وإلى مصر، فيربط بين المراكز الحضارية في جنوبي أوربا، والمراكز الحضارية في الهند وجنوب شرقي آسيا.

ولو تتبعنا مسارات الحروب القديمة لوجدنا أمراً مثيراً حقاً، فالطرق والاتجاهات والميادين التي كان يسلكها الجنود ويرتادونها هي نفسها التي كان التجار يسلكونها ويرتادونها، ولاكتشفنا أيضاً أن المنطقة الواقعة بين السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وآريانا كانت المنطقة الأكثر سخونة على الصعيد الحربي في العالم القديم.

فكي تتواصل دول بلاد الرافدين (الأكاديون، البابليون، الآشوريون) مع جنوبي أوربا غرباً كان لا بد من السيطرة على سوريا وآسيا الصغرى، وكي تتواصل مع وسط آسيا شرقاً، وتجعل الطريق سالكة إلى الصين، كان لا بد من السيطرة على آريانا (كردستان وفارس وأذربيجان)، وقل الأمر نفسه في التوسع الميتاني (الحوري) شرقاً وغرباً، وفي التوسع المصري شرقاً وشمالاً، وفي التوسع الميدي والأخميني والساساني غرباً وشرقاً، وفي التوسع اليوناني بقيادة الإسكندر شرقاً، ثم في التوسع الروماني والبيزنطي شرقاً، وكذلك في التوسع العربي الإسلامي شرقاً وشمالاً وغرباً.

وعلى ضوء هذه الحقائق الجغرافية، بمضامينها البشرية والحضارية، نفهم إصرار الترك السلاجقة على الامتداد من أفغانستان شرقاً، نحو آريانا وبلاد الرافدين (العراق)، ثم نحو سوريا الكبرى وآسيا الصغرى، والوصول إلى سواحل البحر المتوسط الشرقية، ونفهم امتداد الدولة الأيوبية الكردية من مصر غرباً إلى سوريا الكبرى فكردستان شمالاً وشرقاً.

وعلى ضوء هذه الحقائق نفهم أيضاً حرص الدولة الخوارزمية على السير في الاتجاه نفسه الذي سار فيه السلاجقة، ونفهم انطلاقة المغول من شرقي آسيا نحو البحر الأبيض المتوسط، وانطلاقة الحملات الفرنجية (الصليبية) من أوربا نحو آسيا الصغرى وكردستان وسوريا الكبرى

ومصر، بل لك أن تفسر على ضوء هذه الحقائق أيضاً التوسع الاستعماري الأوربي، في العصر الحديث، من سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى قلب القارة الهندية.

اخطار غربا.. واخطار شرقاً

في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت الدولة الأيوبية تمتد من حدود أذربيجان شرقا وشمالاً إلى ليبيا غرباً وجنوباً، وتضم كردستان، وبلاد الشام، والحجاز، واليمن، ومصر، وشمالي السودان، وأجزاء من ليبيا، وبعض أرمينيا، لكن الصراعات على السلطة كانت قد نشبت بين أبناء الأسرة الأيوبية، فحدّت من قوتها ونالت من هيبتها، وظهرت هذه الخلافات في وقت عصيب جداً، إذ كانت القوى الإقليمية المحيطة بالأيوبيين بين عدو متربص للانقضاض عليهم، ومنافس يعمل لإزاحتهم.

فمن الغرب كان الفرنج الشرقيون (فرنج بلاد الشام)، ومن ورائهم بابا الفاتيكان وملوك أوربا، ينتهزون كل فرصة ممكنة للانقضاض على الدولة الأيوبية، والإجهاز عليها، وكانوا يعلمون علم اليقين أن القضاء على القوة الأيوبية يعني إزالة أخطر عقبة تعترض طريقهم، واسترداد الممتلكات التي خسروها في حروبهم ضد السلطان صلاح الدين، وكان الغرض من الحملتين الصليبيتين الرابعة والخامسة هو تحقيق ذلك الهدف.

ومن الشمال كانت الدولة البيزنطية ما تزال قوية، ويمكنها أن تتعاون مع التحركات الفرنجية، لا بل كانت تتعاون مع الفرنج أحياناً كثيرة، وتشكل تهديداً للدولة في أي وقت، كما كان سلاجقة الروم، في آسيا الصغرى، منافسين خطيرين للأيوبيين، وكان يهمهم أن يبسطوا نفوذهم على مناطق شمالي كردستان (شرقي تركيا حالياً)، كما كان الجورجيون يقودون حملات صليبية من نوع آخر على الممتلكات الأوربية في أرمينيا وكردستان كلما سنحت لهم الفرصة.

على أن ثمة خطرين كبيرين آخرين كانا قادمين من الشرق:

- <u>الأول هو الخطر الخُوارزمي</u>: فقد كانت الدولة الخُوارزمية- وهي دولة تركية- تابعة للسلاجقة في البدء، وفي سنة (٥٩٦ هـ) تولّى محمد علاء الدين خُوارزم شاه السلطة، وحكم مستقلاً عن السلاجقة، ووسّع رقعة الدولة من تركمانستان الحالية شرقاً إلى تخوم كردستان والعراق غرباً، ويذكر المؤرخون أن خُوارزم شاه أراد الهيمنة على مقاليد الأمور في بغداد، كما فعل السلاجقة سنة (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)، لكن الخليفة الناصر لدين الله (ت ٦٢٢ هـ) أعرض عن مطالب خُوارزم شاه، فصمّم خُوارزم شاه على غزو بغداد سنة (٦١٤ هـ)، وأصبحت منطقة

نفوذه تتاخم الدولة الأيوبية شرقاً، مهدداً إياها على نحو مباشر. (انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ)، و(ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون).

والحقيقة أن خُوارزم شاه كان سيتجه إلى غربي آسيا للسيطرة عليها، ليس بدافع الانتقام من الخليفة العباسي، وإنما كانت الجغرافيا السياسية- وهي جغرافيا بشرية واقتصادية ضمناً- ستضطره إلى ذلك.

- والثاني هو الخطر المغولي: ويذكر المؤرخون أن تهديد خُوارزم شاه للخلافة العباسية في العراق حملت الخليفة الناصر لدين الله على الاستعانة بالمغول، وطلب منهم الدخول إلى البلاد الإسلامية، فهم كانوا جيران خُوارزم شاه شرقاً، وبذلك يصرف الخطر الخوارزمي عن بغداد، والعجيب أن كثيراً من المسلمين السُّنّة يذكرون قياماً وقعوداً صداقة الوزير مؤيَّد الدين العَلْقَمي الشيعي مع المغول، ويعدّونه سبب احتلال هولاكو بغداد سنة (٦٥٦ هـ)، ويلتزمون الصمت المطبق إزاء استعانة الخليفة السنّي الناصر بزعيم المغول الأكبر جنكيزخان، يقول المقريزي في كتابه (السلوك):

" وفي خلافته ﴿الناصر﴾ خرب التتر بلاد المشرق، حتى وصلوا إلى هَمَذان، وكان هو السبب في ذلك، فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد، خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه، لما همّ بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه كما كانت السَّلجوقية ".

ويذكر المؤرخون أيضاً أن هرب جلال الدين بن علاء الدين، آخر سلطان خُوارزمي، من وجه المغول، وتوجهه غرباً نحو فارس وكردستان وأذربيجان، هو الذي جعل المغول يتوجهون إلى غربي آسيا.

والذي نراه أن المغول كانوا سيغزون غربي آسيا في كل الأحوال، سواء هرب منهم جلال الدين أم لم يهرب، فالجغرافيا السياسية -وهي جغرافيا بشرية اقتصادية ضمناً- كانت ستضطرهم إلى ذلك.

في هذه الظروف السياسية البالغة الحرج كانت الدولة الأيوبية تشكّل القوة الإقليمية الأكثر نفوذاً في غربي آسيا، وكان يقودها حينذاك السلطان الكامل ابن السلطان العادل الأيوبي، وعلى كاهله وقع عبء حماية الدولة الأيوبية من أخطار تتهدّدها من الشمال والشرق، ومن الغرب على نحو أكثر خطورة.

فماذا عن سيرة الكامل؟

وماذا عن الأحداث الكبرى التي ساهم فيها؟

نشأة الكامل

هو أبو المعالي محمد بن السلطان العادل ابن أيوب، ولقبه الملك الكامل ناصر الدين، وترتيبه الخامس من سلاطين بني أيوب، إذا أغفلنا فترة تسلطن الفاضل ابن صلاح الدين، باعتباره لم يحكم مصر مقر الدولة الأيوبية، وترتيبه السادس باعتبار أن الفاضل ابن صلاح الدين أعلن نفسه سلطاناً في دمشق فترة من الوقت، معتمداً على أن والده كان قد عيّنه وليّاً للعهد، وبايعه عدد من ملوك بني أيوب، وكانت ولادة الكامل سنة (٥٧٦ هـ).

وكان العادل قد قسّم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الكامل محمداً، وبدمشق، والقدس، وطبريّة، والأردنّ، والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها، ابنه المعظّم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة، ومَيّافارقين، وخِلاط وأعمالها، لابنه الأشرف موسى، وأعطى الرُّها لولده شهاب الدين غازي، وأعطى قلعة جَعْبَر لولده الملك الحافظ أرسلان شاه، وكان يتردد بين أبنائه، ويتنقّل بين ممالكهم، ولعله كان يفعل ذلك للاطمئنان إلى أنهم يسوسون الأمور سياسة صائبة، ولتوجيههم الوجهة الصحيحة، وكأنما كان يدرّبهم على أصول الإدارة وشؤون سياسة الرعية، قال ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

" **فلمّا توفّي ﴿العادل﴾ ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه أبوه، واتفقوا اتفاقاً حسناً، لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كل منهم يثق بالآخر، بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره، ولا يخافه، فلا جَرَم زاد مُلكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم. ولعمري إنهم نعم الملوك، فيهم الحِلم، والجهاد، والذبّ عن الإسلام، وفي نوبة دمياط كفاية** ". (وانظر ابن خلّكان: وفيات الأعيان).

ويستفاد مما جاء في ترجمة السلطان العادل أنه كان كثير الاعتماد على ابنه الأكبر الملك الكامل، حسن الرأي فيه، فحينما انصب اهتمامه على دمشق وجنوبي بلاد الشام أناب عنه ابنه الكامل في حكم كردستان، وهذا يعني أنه وقع على الكامل عبء مواجهة الزنكيين في الموصل شرقاً، ومواجهة الأراتقة في الأناضول الشرقية غرباً، ومواجهة الجورجيين على حدود أرمينيا شمالاً.

وفي سنة (٥٩٦ هـ) كان الأفضل والظاهر ابنا صلاح الدين قد ضيّقا الخناق على عميهما العادل في دمشق، " **وقد خربت البساتين والدور، وقطعت الأنهار، وأحرقت الغلال، وقلّت القوات، وعزم العادل على تسليم دمشق لكثرة من فارقه** "، فاستدعى العادل ابنه الملك

الكامل من كردستان، فهبّ الكامل إلى نجدة أبيه بعسكر قوي، ووقع الوهن في عسكر الأفضل والظاهر (انظر المقريزي: السلوك).

وفي سنة (٥٩٦ هـ) نفسها عزل العادل السلطان الصبي المنصور ابن السلطان العزيز عن السلطنة، وتولّاها بنفسه، فكان أول ما قام به أنه استدعى ابنه الكامل من كردستان، " ونصبه نائباً عنه بديار مصر، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه، كما كانت إقطاعاً للعادل في أيام السلطان صلاح الدين، وجعله وليّ عهده، وحلف له الأمراء " (انظر المقريزي: السلوك).

على أن مواهب الكامل القيادية تجلّت على نحو أفضل بعد وفاة أبيه، حينما تولّى مقاليد السلطنة، ووجد نفسه يحل محلّ أبيه في مقارعة الحملة الصليبية الخامسة.

فماذا عن جهوده في رد تلك الحملة؟

الحملة الصليبية الخامسة

مر في ترجمة السلطان العادل أن الفرنج كانوا قد غيّروا إستراتيجيتهم، فبدل أن يهاجموا بلاد الشام، لاسترداد القدس، قرروا الاستيلاء على مصر، باعتبارها القوة الإقليمية الأكثر تأثيراً، وباعتبارها مركز الدولة الأيوبية، وشرعوا في تنفيذ خطتهم هذه سنة (٦١٥ هـ/١٢١٨ م)، وكان السلطان العادل قد أناب عنه في مصر ولده الملك الكامل، وتفرّغ في بلاد الشام لمحاربة الفرنج، وكان الفرنج قد نقضوا، في سنة (٦١٠ هـ/١٢١٢ م)، الصلح الذي كان قائماً بينهم وبين الأيوبيين، وكانوا يحشدون قواتهم في الساحل السوري، ولا سيما في عكا، بهدف استرداد القدس وسائر المناطق التي خسروها في عهد صلاح الدين.

ومر أن الحملة الصليبية الخامسة بدأت سنة (٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م)، وكان القائد العام لها هو جان دي برين، ملك مملكة المقدس، وانطلقت الحملة في أسطول ضخم، يحمل عشرة آلاف فارس، ومئتي ألف راجل، وكانت الوجهة مدينة دمياط، على الساحل المصري.

ومر أيضاً أن الجيش الأيوبي استبسل في الدفاع عن دمياط، وأصر الفرنج على احتلالها، وكان يتوسط الطريق إلى دمياط من جهة البحر برج ضخم مقام في وسط النيل، يدعى (برج السلسلة)، بسبب سلسلتين كانتا تمتدان منه: تتجه إحداهما إلى دمياط على الضفة الشرقية، وتتجه الأخرى إلى البر الغربي المقابل لدمياط، وكان البرج مشحوناً بالمقاتلين، وكان مفتاح الدخول إلى دمياط.

لذلك ركّز الفرنج جهودهم كلها للاستيلاء على ذلك البرج، وقاموا ببناء أبراج خشبية عالية، وأقاموها على سفنهم، وتقدموا بها إلى برج السلسلة لمحاربة حاميته، ولكن المقاتلين المتحصنين في البرج ردوا الفرنج على أعقابهم أكثر من مرة، وحطّموا سفنهم الحربية وآلاتهم، ومع ذلك لم يفقد الفرنج الأمل في السيطرة على البرج، وظلوا يحاصرونها مدة أربعة أشهر.

وخلال ذلك كان الملك الكامل قد توجّه بجنوده من القاهرة إلى دمياط، ونزل بقواته في العادلية، وهي مدينة كان والده العادل أسسها سنة (٦١٤ هـ) جنوبي دمياط، على الضفة الشرقية للنيل، وزوّدها بالمقاتلين، خوفاً من أن يقوم الفرنج بمهاجمة دمياط من جهة البحر.

وظل المدافعون عن البرج يقاومون هجمات الفرنج بشجاعة، لكن الفرنج بنوا برجاً عالياً آخر، ونصبوه على سفينة كبيرة، وأقلعوا به، إلى أن أسندوه إلى برج السلسلة، وراحوا يقاتلون الحامية الأيوبية داخل البرج، وانتهى القتال العنيف باستيلائهم على البرج عنوة.

وكان لسيطرة الفرنج على برج السلسلة نتائج عسكرية خطيرة، وكان السلطان العادل، وهو في الجبهة الشامية، أدرى الناس بتلك النتائج، ويعرف أن السيطرة على دمياط يعني أن الفرنج سينطلقون في المرحلة الثانية من حملتهم إلى القاهرة عاصمة السلطنة، وذكر المقريزي في (السلوك) أنه لما وصل خبر سيطرة الفرنج على البرج إلى العادل " تأوّه تأوّهاً شديداً، ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض من ساعته "، وانتهى ذلك المرض بوفاته هماً وغماً.

تكتيكات حربية

بوفاة السلطان العادل في سوريا وقع عبء مجابهة الفرنج في مصر على السلطان الكامل، وكان عبئاً ثقيلاً، فبعد سيطرة الفرنج على برج السلسلة، وتحطيم السلسلتين المتصلتين بالبرج، أصبح الطريق مفتوحاً أمام سفنهم للعبور نحو دمياط، فأمر الكامل بإقامة جسر من السفن في النيل، لمنع سفن الفرنج من التقدم، لكن الفرنج قاتلوا قتالاً شديداً، وتمكنوا من قطع الجسر واختراقه.

وهنا لجأ الكامل إلى خطة أخرى يمنع بها الفرنج من التقدم إلى دمياط، فأمر بإغراق عدد من السفن في عرض النيل، غير أن الفرنج اهتدوا بالمقابل إلى خطة حربية، يتغلبون بها على خطة الكامل، إذ عمدوا إلى خليج قديم كانت الرمال قد طمرته، فأعادوا حفره، ومرروا إليه المياه، وصعدوا فيه بسفنهم، إلى أن أصبحوا في مواجهة معسكر الكامل في العادلية.

وبعد أن أصبح الجيشان الأيوبي والفرنجي متقابلين، دارت بينهما معارك حربية طاحنة، تمكن خلالها الجيش الأيوبي من أسر سفينة فرنجية حربية كبيرة، مصفحة بالحديد، وظلت المعارك قائمة بين الفريقين أشهراً عديدة، في حين كانت مدينة دمياط تنعم بالأمن، وكانت أبواب سورها مفتوحة لتلقي الإمدادات والقوات من الجانب الأيوبي، فقد كان نهر النيل يفصل بينها وبين الفرنج.

وقد نهج الكامل نهج السلطان صلاح الدين في حربه ضد الفرنج، إذ كان صلاح الدين يوظف كل الإمكانات المتاحة لتحقيق النصر، ومنها استثمار براعة البدو (العربان حسبما يسميهم المقريزي) في السطو، وفعل الكامل الأمر نفسه، فسلّط البدو على معسكر الفرنج، فكانوا يتسللون إلى خيامهم ليلاً، بل صاروا يدخلونها نهاراً أحياناً، ويختطفونهم من كل جانب، الأمر الذي بث فيهم الذعر، ودفعهم إلى التحارس وعدم النوم ليلاً (انظر المقريزي: السلوك).

وكانت إستراتيجية صلاح الدين تقوم أيضاً على حشد شعوب شرقي المتوسط، كرداً وعرباً وتركاً، كلها في خندق المقاومة، وهذا ما فعله الكامل أيضاً، قال المقريزي في (السلوك):

" وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولاً، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم، ويخوّفهم من تغلّب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها، فسارت الرسل في شوّال، فقدمت النجدات من حماه وحمص ".

صراع كردي- كردي

إلى هذا الحين كانت الجبهة الأيوبية متماسكة وفاعلة، ولم يستطع الفرنج التقدم نحو دمياط، لكن سرعان ما ظهرت بوادر التفكك بعد وفاة السلطان العادل، وطمع في السلطان الكامل من طمع، فمن ناحية أثار البدو الاضطرابات في أرض مصر، وقاموا بالعصيان والتمرد " وكثر خلافهم، واشتد ضررهم "، كما قال المقريزي، الأمر الذي أضرّ بجهود الكامل الحربية في أكثر من ميدان.

ومن ناحية أخرى برزت خلافات مراكز القوى، ومعروف أن مراكز القوى في الدولة- أية دولة- تتوارى حينما يكون الحاكم قوياً، وسرعان ما تنشط حينما يضعف الحاكم أو يتوفى، ويحل محله حاكم جديد لمّا يرسّخ سلطته بعدُ، وبطبيعة الحال تكون الجهة الخاسرة هي الراغبة في تغيير الواقع السياسي، وهي الساعية لإحلال واقع يكون لها النصيب الأوفى فيه.

والملاحظ أن معظم المؤرخين المسلمين القدماء يكتفون بسرد الحدث التاريخي، ولا يولون الاهتمام الكافي لتحليل العوامل التي أنتجت ذلك الحدث، وقد يذكرون بعض العوامل، لكنهم يغفلون العوامل الأخرى، وتجد نفسك في النهاية أنك عرفت الحدث، لكنك تجهل المناخ الذي أنتجه، وبعبارة أخرى: إن المؤرخ القديم يجيد السرد، لكنه يقصر في التحليل، وخير مثال بين أيدينا على ذلك هو الخبر الآتي الذي أورده المقريزي، فبعد أن ذكر الاضطرابات التي أثارها البدو في مصر، قال في (السلوك):

" واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبي الحسين علي بن أحمد الهكّاري، المعروف بابن المشطوب، وكان من أجلّ الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية، ينقادون إليه ويطيعون، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك، معدوداً بينهم كواحد منهم، معروفاً بعلو الهمة، وكثرة الجود، وسعة الكرم، والشجاعة، تهابه الملوك، وله وقائع مشهورة في القيام عليهم، ولما مات أبوه، وكانت نابلس إقطاعاً له، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها، فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية، فاتفق عماد الدين مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل، وتمليك أخيه الفائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم في المملكة، ووافقه على ذلك الأمير عز الدين الحميدي، والأمير أسد الدين الهكاري، والأمير مجاهد الدين، وعدد من الأمراء. فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون، وبين أيديهم المصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه تفرقوا، فخشي على نفسه منهم، وخرج ".

ويستفاد من هذا الخبر أنه كان في الدولة تيار معارض لأن يكون الكامل هو السلطان بعد أبيه العادل، ويستفاد أيضاً أن قادة ذلك التيار هم من الأمراء الكرد، وينتمي أولئك الأمراء إلى قبيلتين كرديتين كبيرتين هما (هكّاري) و(حميدي)، ولم يكونوا حديثي النعمة في الدولة الأيوبية، وإنما كان لهم فيها تراث عريق، يرجع إلى عهد صلاح الدين وانتصاراته الكبرى على الفرنج.

والسؤال هو: لماذا وقف هؤلاء الأمراء الكرد ضد الكامل؟

كان تفسير المقريزي هو أن الأمراء أرادوا إزاحة الكامل عن سدة الحكم، و" تمليك أخيه الفائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم في المملكة ". وهذا يعني أن هذا التيار- وهو كردي كما مر- كان قد خسر نفوذه في الدولة ليس في عهد الكامل فقط، وإنما في عهد والده العادل أيضاً، والدليل أنهم باشروا حركة التغيير بعيد وفاة العادل بمدة قصيرة، ويفيد هذا الخبر أيضاً أن قادة

ذلك التيار كانوا يحاولون القيام بانقلاب داخل هرم السلطة الأيوبية، لإيصال الفائز ابن العادل إلى منصب السلطنة، وليستعيدوا من ثم نفوذهم في مركز صناعة القرار.

وثمة سؤال آخر: من الذي كان قد سيطر على مركز صنع القرار؟

وبعبارة أخرى: من الذي كان يتحكّم في الدولة الأيوبية؟

هذا أمر لا يقف عنده المؤرخون القدماء برؤية وباهتمام كاف، ولا ندري هل كان السبب هو طريقتهم الانتقائية في اختزال سرد بعض الأحداث، والاسترسال في سرد أحداث أخرى؟ وإذا كان هذا هو السبب فلنا أن نتساءل مرة أخرى: ما هي المعايير التي كانوا يبنون عليها طريقتهم الانتقائية؟ هل كان من تلك المعايير معيار (الدنيا مع القائمين) مثلاً؟ وهل كان استفحال النفوذ المملوكي في الدولة الأيوبية، وهيمنتهم على الأمور كلية بعدئذ، من العوامل التي جعلت المؤرخين يغيّبون بعض المعلومات، ويفرجون عن بعضها الآخر؟ كل ذلك ممكن، ومع ذلك لا يمكننا معرفة الأسباب الحقيقة بجلاء ما لم نعد إلى الوراء بضعة عقود، ونبدأ في تفحّص الأمر منذ نشأة الدولة الزنكية نفسها.

تنافس كردي - تركماني

كانت الدولة الزنكية تركمانية لكن بجغرافيا كردية، وبموارد كردية، وبقدرات عسكرية نصفها كردية على أقل تقدير، ولا سيما بعد أن انضمت الأسرة الأيوبية إلى صف عماد الدين زنكي، ووظفت قدراتها وقدرات من معها من فرسان الكرد في الخطط الحربية الزنكية، وفي تحقيق الانتصارات، وتوسيع حدود الدولة شمالاً في كردستان، وغرباً في بلاد الشام، بل لولا جهود الأخوين أيوب وشيركوه لما وصل نور الدين إلى الحكم بعد مقتل والده عماد الدين سنة (٥٤١ هـ/١١٤٦ م)، ولما تمكن بعدئذ من السيطرة على دمشق، واتخاذها قاعدة في حروبه ضد الفرنج.

ولولا سيطرة الزنكيين على دمشق وجنوبي بلاد الشام عموماً، بجهود كردية طبعاً، لما استطاعت القوة الزنكية أن تتحول إلى قوة إقليمية فاعلة، تماثل كلاً من القوى الإقليمية الأربع الأخرى في المنطقة حينذاك، وهي: الدولة البيزنطية وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، والفرنج في ساحل بلاد الشام، والفاطميون في مصر.

ويكفي للتدليل على النشاط الكردي في الدولة الزنكية أن نور الدين أوكل إلى شيركوه مهمة قيادة الجبهة الغربية (منطقة حمص) في مواجهة الفرنج، وكانت من أخطر الجبهات حينذاك، يقول البُنْداري في (سنا البرق الشامي):

" ولما كان ثغر حمص أخطر الثغـور تعيّن أسـد الدين لحمايته وحفظه ورعايته، لتفرّده بجدّه واجتهـاده وبأسـه وشجاعته ".

والدليل أيضاً أن نور الدين كلّف القائد الكردي شيركوه، وليس قائداً تركمانياً، بقيادة ثلاث حملات على مصر، لإيقاف الخطر الفرنجي، وأن فارساً كردياً، وليس تركمانياً، هـو الـذي ضـحّى بنفسه سنة (٥٥٨ هـ)، وأنقذ السلطان نور الدين زنكـي مـن مـوت محقـق علـى أيـدي الفـرنج، حينما فاجأت قوة فرنجية معسكره قرب حصن الأكراد في منطقة حمص السورية (انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ).

وبعد وفاة نورالدين، وقيام الدولة الأيوبية بجهود صلاح الدين، كان مـن الطبيعـي أن يـزداد النفوذ الكردي في الدولة، وخاصة على صعيد صناعة القرارات الكبرى، وهذا أمر لم يكن يرضي القادة التركمان، ولو تتبعنا الظروف التي تلت وفـاة شيركوه في مـصر، وتنـصيب صـلاح الـدين خليفة له في قيادة الجند الشامي، وفي تولّي منصب الوزارة للدولـة الفاطميـة، لوجـدنا أن كبـار قادة التركمان كانوا معارضين أشد المعارضة لتلك الإجراءات، بل إن بعضهم ترك مصر غاضباً، وعاد إلى بلاد الشام.

ولو تتبعنا ما كان يدور خلف الستار حينـذاك، لوجـدنا أن الفقيـه الكـردي المقاتـل ضـياء الدين عيسى الهكّاري هو الذي وحّد الفريق الكردي في مواجهـة الفريـق التركمـاني، وهـو الـذي أقنع كبار أمراء الكرد المنافسين لصلاح الدين بضرورة التخلي عن موقف المعارضـة، والوقـوف إلى جانب صلاح الدين باعتباره كردياً مثلهم، وإلا لخرج الأمر من أيدي الكرد، وخسر الجميع.

ما أريد قوله هو أن أكبر قوتين ضاربتين، في العهدين الزنكي والأيوبي، كانت القوة الكردية والقوة التركمانية، وكان ثمة صراع خفي يدور بين الفريقين، وكان ذلك الصراع يتجلى في مواقـف كبار الأمراء والقادة، وكان يشتد تارة ويخفّ تارة أخرى، لكـن شخـصية نـور الـدين التوفيقيـة والمهيبة كانت كفيلة بتخفيف حدة التنافس.

على أن نور الدين نفسه لم يستطع الاحتفاظ بموقفه التوفيقي إلى النهايـة، فقـد نجـح الفريـق التركي في أن يجعله طرفاً في ذلك التنافس، ولا سيما حينما تمكّن الكرد منَ الهيمنة على مـصر بقيادة البيت الأيوبي، وأحسب أن نور الدين لو عاش بضع سـنوات أخـرى لنـشب الـصراع بـين المعسكرين الأيوبي والزنكي، ولتغير مجرى التاريخ، ولما تم استرداد القدس من أيدي الفرنج.

وبعد وفاة نور الدين نشبت الخلافات داخل الفريق الزنكي، وسيطر صلاح الدين على مقاليد الأمور في مصر والشام، وأسس الدولة الأيوبية، واستكمل مشروع تحرير بلاد الشام من الفرنج، ولم يشأ إخراج القوة التركمانية المقاتلة والمتمرسة من دائرة الصراع.

وصحيح أنه حشد أبناء القبائل الكردية، ودفعهم إلى الانخراط في الصراع الإسلامي الفرنجي، وزجّ بهم في خط الدفاع الأول، لكنه كان أذكى من أن يهمل القدرات القتالية الرفيعة للمقاتلين التركمان، واستطاع بشخصيته التوفيقية أن يقيم نوعاً من التوازن بين الفريقين الكردي والتركماني، " **وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد** " حسبما قال بعض كبار قادة المماليك الترك سنة (٥٨٨ هـ) (انظر أبو شامة: عيون الروضتين).

سيكولوجيا الجبال

إن روح التمرد الكامنة في قرارة النفس الكردية، والنزوع إلى التنافس، إضافة إلى سيكولوجيا الجبال المتأصلة في شخصية الكردي، ومن مظاهرها: العناد، والتمترس في الموقف، والاعتداد بالذات، وروح الصلف، وصعوبة انقياد الكردي للكردي، أقول: إن هذه العوامل جميعها كانت تجعل التعامل مع المقاتلين الكرد صعباً، وثمة أكثر من موقف يؤكد أن بعض الأمراء الكرد، ومنهم الجَناح أخو سيف الدين المشطوب الهكّاري، كانوا يعاملون صلاح الدين معاملة الند للند، وكانوا يخاطبونه بكلام خشن، ويواجهونه بما لا يجرؤ الآخرون على مواجهته به، فيأخذهم بالحلم، ويغضّ النظر عن تطاولهم عليه (انظر أبو شامة: عيون الروضتين).

أما الترك فهم أبناء ثقافة سهوب آسيا الوسطى، ثقافة الجغرافيا المفتوحة، الجغرافيا التي تسهّل السيطرة على الآخر بالقوة، وهي الجغرافيا التي لا بد فيها من التكتل القبلي، والانقياد للزعيم حفاظاً على الوجود، إن سيكولوجيا السهوب هذه أصّلت في الشخصية التركية روح طاعة القائد، وإن هذه المزية في المقاتلين الترك جعلت الجهات الحاكمة، ومنها الدولة الأيوبية، تجنّدهم على شكل مماليك، وقد شكّل شيركوه، فرقة المماليك الأسدية، نسبة إلى لقبه (أسد الدين)، وشكّل صلاح الدين فرقة المماليك الصلاحية، نسبة إلى لقبه (صلاح الدين).

وكان المماليك الترك يلتزمون طاعة سادتهم، ما دام أولئك السادة أقوياء، لكنهم كانوا يتسلطون على مقاليد الأمور، بعد أن يكثر عددهم ويزداد نفوذهم، وخاصة في عهود القادة الضعفاء، ففي العصر العباسي كان المماليك الأتراك ملتزمون جداً في عهد كل من المأمون

والمعتصم والواثق، لكنهم سرعان ما تآمروا على المتوكل، وفتكوا بـه، وتسلّطوا على شؤون الخلافة.

وحدث الأمر نفسه في الدولة الأيوبية، فبعد وفاة صلاح الدين ازداد اعتماد ملوك بني أيوب على المماليك الأتراك، واستعان به كل فريق لإزاحة الفريق الآخر عن طريقه فهذا الملك الأفضل ابن صلاح الدين يخرج من مصر، وكان وصياً على ابن أخيه السلطان المنصور ابن السلطان العزيز، متوجهاً إلى بلاد الشام، لمواجهة عمه العادل، " **واستخلف على القاهرة سيف الدين يازكج الأسدي** "، ويازكج هذا مملوك تركي، واستخلاف مملوك تركي بدل من أمير كردي في عاصمة السلطنة دليل واضح على تنامي قوة الترك، وتراجع قوة الكرد (انظر المقريزي: السلوك).

وإن قادة المماليك الصلاحية والمماليك الأسدية هم الذين رجّحوا كفة الملك العادل خلال صراعه ضد ابن أخيه الملك الأفضل بن صلاح الدين، وإن قادة فرقة الأسدية هم الذي أيّدوا الملك العادل في خلع السلطان الصبي المنصور ابن السلطان العزيز، والحلول محله في منصب السلطنة وثمة شواهد أخرى عديدة على رجحان كفة المماليك الأتراك، وهبوط كفة التيار الكردي.

وكان من الطبيعي أن ينقم الأمراء الكرد على سياسة ملوك بني أيوب هذه، ولا سيما أن الكرد هم الذين أسهموا في تأسيس الدولة الأيوبية، وكانوا وقود المعارك الأكثر ضراوة ضد الفرنج، وهم الذين قدموا العدد الأكبر من الضحايا في حروب صلاح الدين الكثيرة ضد الفرنج.

ثم إن أمراء الكرد كانوا يعلمون أن إبعادهم عن مركز صناعة القرار، وتغليب المماليك، يعني في النهاية سيطرة الترك على كل مفاصل الدولة، وتؤكد الأحداث اللاحقة في عهد السلطان الصالح نجم الدين، وعهد ولده السلطان توران شاه، أن الزعماء الكرد كانوا على صواب كبير في تحليلهم هذا، فقد تآمر كبار قادة المماليك الترك على السلطان توران شاه، وقتلوه غدراً، وقضوا على الدولة الأيوبية، وأسسوا دولة المماليك الأتراك.

قراءة أخرى

أحسب أن هذه الإضاءات جعلت المشهد السياسي متكاملاً، والرؤية واضحة، فالحركة التي قام بها الفريق الكردي بقيادة ابن المشطوب، بغية إزاحة السلطان الكامل عن الحكم، وإحلال أخيه الفائز محله، لم تكن مؤامرة عابرة، وإنما كانت حركة تصحيحية داخل البيت الكردي،

وكانت الغاية إعادة الكرد إلى مركز صناعة القرار في الدولة الأيوبية، والحؤول دون سيطرة المماليك الترك على أمور الدولة، وعدم تمكينهم مستقبلاً من إسقاط الدولة، وهذا ما فعله المماليك سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)، أي بعد ثلاثة عقود فقط.

ويثير هذا الحدث أكثر من علامة استفهام، ومهما يكن فقد أخذ الكامل الأمر مأخذ الجد، وخشي على نفسه من أن يفتك به القادة الكرد، وكان أول خطوة قام بها هي أنه انسحب ليلاً من مركز القيادة في العادلية، وانتقل إلى أشْمُوم طَنّاح، فدبّت الفوضى في الجيش الأيوبي، قال المقريزي في (السلوك):

" وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولم يأخذ كل أحد إلا ما خف حمله، فبادر الفرنج عند ذلك، وعبروا دمياط وهم آمنون، من غير منازع، وأخذوا كل ما كان في عسكر المسلمين، وكان شيئاً لا يقدَّر قدره ".

وإنه لأمر غريب حقاً أن يقوم الكامل بهذه الخطوة المفاجئة، وهو السلطان الراجح العقل، والقائد الطويل التجربة، إذ كيف يهرب من ساحة المعركة، ويترك جيشه بلا قيادة، وهو يعلم أن ذلك معناه انتقال الفرنج من ضفة النيل الغربية إلى الضفة الشرقية، والنزول أمام دمياط مباشرة؟! وكيف يفعل ذلك وهو يعلم أن سيطرة الفرنج على دمياط معناه أن الطريق إلى القاهرة، عاصمة السلطنة، بات مفتوحاً، وأن دولته كلها ستنهار؟!

إن وراء الأكمة ما وراءها كما يقول المثل، وللمؤرخين أن يعرضوا الحدث بالكيفية التي يرونها، ولنا أن نكون أكثر رويّة ونتساءل: لماذا حدث الأمر على هذا النحو؟ أيعقل أن يعمد سلطان إلى الفرار من معسكره بهذه الطريقة الفجّة؟! أما كان من المنطقي - والحال هذه - أن يتقوّى بجنوده والمناصرين له من كبار القادة؟!

بلى، هذه تساؤلات جديرة بأن تثار.

والذي نراه أن قادة الجناح التركي استكملوا اللعبة، أقصد لعبة السياسة والسلطة، فبعد أن أوهموا السلطان بأنه مهدد بالعزل، وربما بالقتل من قبل الفريق الكردي، اقترحوا على السلطان الابتعاد عن مسرح المؤامرة، والأرجح أن السلطان أوكل إليهم أمر قيادة الجيش، لكن قادة الجناح التركي انسحبوا أيضاً من مركز القيادة، ليبقوا على مقربة من السلطان، وليرصدوا كل حركة من حركاته.

أقول هذا ترجيحاً، وأبني هذا الترجيح على دليل من تاريخ المماليك أنفسهم في معركة المنصورة، فبعد حوالي خمسة وثلاثين سنة (٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) شن الملك الفرنسي لويس التاسع الحملة الصليبية السابعة على مصر، وعلى دمياط تحديداً، وكان السلطان الصالح ابن السلطان الكامل مريضاً، فاضطر إلى أن ينسحب إلى أشموم طنّاح، فشرع قادة المماليك يتسقّطون أخباره، ولما توهّموا أنه مات انسحبوا بالجيش إلى أشموم طنّاح، سعياً إلى السلطة، وتركوا الجسر كما هو، فعبر عليه الفرنج بسهولة، ولما رأى أهل دمياط أن الجيش السلطاني قد انسحب فروا من مدينتهم حفاة، لا يلوون على شيء، وحلّت الكارثة الكبرى.

ترتيبات جديدة

ولنعد إلى متابعة أحداث حصار دمياط.

فبعد أن عبر الفرنج نهر النيل، وسيطروا على المعسكر الأيوبي، أصبح موقف السلطان الكامل ضعيفاً جداً، ووصف المقريزي ذلك قائلاً: " **فتزلزل موقف الملك الكامل، وهمّ بمفارقة مصر، ثم تثبّت** "، فالتحق به الجنود، ووافاه أخوه الملك المعظّم حاكم دمشق، فقويت شوكته به، واتفق الأخوان على إبعاد كل من الملك الفائز والأمير ابن المشطوب، أما الفائز فأُبعد إلى كردستان، باعتباره رسولاً من الكامل إلى أخيه الملك الأشرف، يطلب منه النجدة، وأما ابن المشطوب فأفلح المعظّم في عزله من أنصاره الكرد، وإبعاده إلى بلاد الشام، (انظر المقريزي: السلوك).

أما الفرنج فأقاموا معسكرهم في الجانب الشرقي، وحصّنوه تحصيناً متيناً، وحفروا حوله خندقاً، وبنوا له سوراً، وحاصروا دمياط من البر والبحر، وضيّقوا على من فيها، وكانوا حوالي عشرين ألف مقاتل، إضافة إلى السكان، ومنع الفرنج وصول الإمدادات إليهم، ومع ذلك صبروا وقاتلوا أشد قتال، رغم قلة القوات وغلاء الأسعار، وشرع الكامل في محاربة الفرنج من جانبه، لكنه ظل عاجزاً عن التواصل مع المحاصَرين داخل دمياط، إلا بوساطة سبّاح حَمَوي يدعى (شمايل)، كان ينقل الأخبار بين السلطان والمحاصَرين في الداخل.

ودخلت سنة (٦١٦ هـ) ودمياط محاصرة، والحرب قائمة بين الكامل والفرنج، وقد هبّ بعض ملوك بني أيوب إلى نجدة الكامل، فقدم الملك المظفّر ملك حماة بعسكر كثيف، إلا أن الفرنج طوّروا الهجوم على دمياط، فقلّت المؤن، وحلّت المجاعة بين السكان، وبعد حصار دام ستة عشر

شهرا، تسوّر الفرنج سور المدينة، واقتحموها، ووضعوا السيف في أهلها، وأسرفوا في القتل، قال المقريزي في (السلوك):

" وحصّن الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثّوا سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب، واشتد البلاء، وندب السلطان الناس، وفرّقهم في الأرض، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس، لاستنقاذ أرض مصر من أيدي الفرنج ".

وراح كل فريق يعزز موقعه العسكري، ويعدّ للخطوة التالية.

أما السلطان الكامل فإنه شرع يجمع المقاتلين، ويطلب النجدات والإمدادات من بلاد الشام وكردستان، وأقام في الوقت نفسه معسكراً جديداً في الموقع الذي سُمّي بعدئذ باسم مدينة (المنصورة)، وزوّده بالمرافق اللازمة للإقامة الطويلة، مثل الدور، والفنادق، والحمّامات، والأسواق.

وأما الفرنج فإنهم كانوا يعزّزون موقفهم العسكري باستمرار، وكان المقاتلون ينضمون إليهم قادمين من بلدان أوربا، وقد خرجوا من دمياط يريدون احتلال القاهرة عاصمة السلطنة، ونزلوا مقابل معسكر السلطان الكامل، ولم يبق أمامهم إلا تحقيق النصر على جند الكامل، وإزاحتهم من الطريق، والوصول إلى القاهرة، بل إنهم كانوا واثقين من السيطرة على مصر، حتى إن ملكهم كان قد وزّعها مسبقاً على قادة جنده بصورة إقطاعات، قال المقريزي في (السلوك):

" وخرجت أمم الفرنج من داخل البحر، تريد مدد الفرنج على دمياط، فوافى دمياط منهم طوائف لا تحصى، فلما تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها، في حدّهم وحديدهم، وقد زيّن لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها ".

ولم يكتف الفرنج بالهجوم على مصر، وإنما فتحوا الجبهة الشرقية في بلاد الشام ضد الأيوبيين، ليشتتّوا قواهم وجهودهم، وحاولوا مهاجمة القدس واحتلالها ثانية، وكانت الخطط الحربية تقضي بألا تدع العدو يستفيد من دفاعاتك وتحصيناتك ومعدّاتك الحربية حينما تجد نفسك مضطراً إلى التراجع، وهذا ما فعله الملك المعظّم حاكم دمشق، فأمر بتخريب سور القدس وأبراجها كلها، عدا برج واحد في غربي البلد، ونقل ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال، وخرج معظم الناس من المدينة، خوفاً من الفرنج، " فشقّ على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط ". (انظر المقريزي: السلوك).

المعركة الفاصلة

والأدهى أن الجبهة الداخلية في مصر تعرّضت مرة أخرى لانتكاسة خطيرة، فقد استغل أهل الأرياف ضعف موقف السلطان أمام الفرنج، فأثاروا الاضطرابات في وجهه، قال المقريزي في (السلوك): " **فإنه كان قد كثر تسلّطهم، وطمعوا في أمر السلطان، واستخفّوا به، لشغله بالفرنج عنهم** " وهنا أعلن السلطان النفير العام في البلاد، وطلب من الجميع أن يهبّوا للدفاع عن مصر، فانضم إلى صفه عدد كبير من المقاتلين.

وفي الوقت نفسه هبّ إلى نجدة الكامل جميع ملوك بني أيوب في بلاد الشام وكردستان: الملك المنصور صاحب حما، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد بَهْرام شاه صاحب بعلبك، وأخوه الملك الأشرف حاكم كردستان والمناطق المتاخمة لها من أرمينيا، وكان يدعى (شاه أرمن)، وسبق القول بأن أخاه الملك المعظّم صاحب دمشق كان قد جاء إلى نجدته بجنوده، وبلغ عدد فرسان الجيش الأيوبي نحو أربعين ألفاً.

وحلّت سنة (٦١٨ هـ) والحرب على قدم وساق بين الأيوبيين والفرنج، بل يمكننا القول: إنها كانت حرباً كبرى بين الشرق ممثلا في القيادة الأيوبية، وبين الغرب (أوربا) ممثلاً في الفرنج، وقد وصف المقريزي في (السلوك) ضخامة عدد المقاتلين من كل فريق بقوله: " **واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله** ".

وكان السلطان الكامل قد استثمر التعزيزات التي وصلته، فوضع خطة حربية جديدة، كانت نتيجتها قطع المؤن والإمدادات عن الفرنج من البر والبحر، والانقضاض على سفنهم الحربية، وهي التي كانت تنقل إليهم الإمدادات، وأسروا منهم ألفين ومئتي مقاتل، " **ثم ظفروا أيضاً بثلاث قطع** ﴿ربما هي قطع حربية، أو كتائب﴾، **فتضعضع الفرنج لذلك، وضاق بهم المقام، وبعثوا يسألون في الصلح** " (انظر المقريزي: السلوك).

وفي أوج احتدام القتال كان الفرنج يرسلون وفودهم للمباحثة في الصلح، وكان من شروطهم أن يستردوا القدس وعسقلان وطبرية في فلسطين، وجَبلة واللاذقية على الساحل السوري، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين سابقاً.

وقد وافق الجانب الأيوبي على ذلك، ما عدا قلعتي الكَرَك والشُّوبك، باعتبار أن سيطرة الفرنج على هاتين القلعتين في جنوبي الأردن كان يعني قطع طرق المواصلات بين جناحي الدولة الأيوبية، الجناح الغربي ممثلاً بمصر، والجناح الشرقي ممثلاً ببلاد الشام وكردستان، قال المقريزي (السلوك):

" فأبى الفرنج، وقالوا: لا نسلّم دمياط حتى تسلّموا ذلك كله. فرضي الكامل، فامتنع الفرنج، وقالوا: لا بد أن تعطونا خمسمئة ألف دينار، لنعمر بها ما خرّبتم من أسوار القدس، مع أخذ ما ذكر من البلاد، وأخذ الكرك والشوبك أيضاً ".

وهكذا كان الفرنج يتشدّدون في شروطهم، ويطلبون كل شيء مقابل انسحابهم من دمياط، لكن الفريق الأيوبي لم يرضخ للفرنج، واستمر في القتال والمصابرة، ولجأت القيادة الأيوبية إلى تكتيك جديد ما كان الفرنج قد أعدّوا العدّة لمواجهته، ألا وهو إغراق الأرض المحيطة بمعسكر الفرنج بمياه النيل، وإعاقة تحركاتهم، وقد نجح فريق من الجيش الأيوبي في فتح ثغرة كبيرة في النيل، وكان الوقت وقت الفيضان، قال المقريزي في (السلوك):

" والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل، فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرّق أكثر الأرض التي هم عليها، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط، وأصبحوا ليس لهم جهة يسلكونها، سوى جهة واحدة ضيقة ".

وقد أحكم السلطان الكامل خطة محاصرة الفرنج، وعزلهم براً وبحراً، فأمر الجند بنصب الجسور، والعبور للسيطرة على الطريق الضيق التي كانت تصل الفرنج بدمياط، وفي الوقت نفسه وصلت سفينة حربية ضخمة جداً إلى ساحل دمياط، تحمل الميرة والسلاح إلى الفرنج، وتحرسها حرّاقات (زوارق حربية) عديدة، فهاجمتها السفن الحربية الأيوبية، وسيطر الفريق الأيوبي على السفينة وعلى ما فيها وما معها من الحرّاقات، الأمر الذي خيّب آمال الفرنج، وأوقع في نفوسهم الرعب، وأصبحوا محاصرين من جميع الجهات.

ورغم هذا الموقف العسكري الصعب جداً لم يستسلم الفرنج، واجتمع رأيهم على مناهضة الجيش الأيوبي، والوصول إلى دمياط، " فخرّبوا خيامهم ومجانيقهم، وعزموا على أن يحطموا ﴿يهجموا﴾ حطمة واحدة، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، لكثرة الوحل والمياه التي قد ركبت الأرض من حولهم، فعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم، ولاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا يسألون الملك الكامل، وإخوته الأشرف والمعظّم، الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلّمون دمياط بغير عوض " (انظر المقريزي: السلوك).

إنه لانقلاب كبير في الموقف العسكري ولا ريب، تطلّب من القيادة الأيوبية اتخاذ قرار حاسم، وكان من الطبيعي أن تختلف الآراء، وكان رأي السلطان الكامل هو الموافقة على ما طلبه الفرنج، ورأى إخوته الاستمرار في القتال، " واجتثاث أصلهم البتّة "، فلا تقوم لهم قائمة بعدئذ.

لكن العبقرية الحربية والسياسية لا تقع تحت تأثير شهوة الانتقام، وإنما تأخذ جميع الظروف والاحتمالات بعين الاعتبار، أفلم يكن الفرنج في موقف قوي؟! أولم يكن الفريق الأيوبي على وشك الهزيمة؟! إذاً ما الذي يمنع من أن يستعيد الفرنج زمام المبادرة ثانية؟! ولا سيما أن لهم أعداداً غفيرة من المقاتلين في دمياط، وأن الإمدادات تنهمر عليهم من أوربا، وأن الغضب يأكل ملوك أوربا بسبب مقتل كثير من كبرائهم؟

ثم أليس من واجب السلطان أن يأخذ أحوال جنوده في الحسبان أيضاً؟ فقد ظل هؤلاء المقاتلون يخوضون المعارك العنيفة طوال ثلاث سنين وأشهراً، فهل من العجب أن يتسلل الضجر إلى نفوسهم؟! أليس من حقهم الفوز ببعض الراحة، والعودة إلى أهليهم؟!

لقد نظر الكامل إلى الموقف نظرة دقيقة وشمولية واعية، مراعياً معطيات الداخل وظروف الخارج، وآخذاً في الحسبان الجوانب المادية والمعنوية، ووضع كل هذه الحقائق أمام القيادة الأيوبية العليا، فوافقه إخوته على طلب الأمان الذي سعى إليه الفرنج، شريطة أن يرسلوا رهائن من ملوكهم وليس من أمرائهم، واشترط الفرنج بالمقابل أن يرسل السلطان ابنه الملك الصالح نجم الدين رهينة عندهم إلى أن تعود رهائنهم، " **فتقرر الأمر على ذلك، وحلف كل ملك من ملوك المسلمين والفرنج**".

وأرسل الفرنج عشرين ملكاً من ملوكهم رهائن، منهم يوحنّا صاحب عكا، ونائب البابا، وأرسل السلطان ابنه الملك الصالح إليهم، وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة، ومعه جماعة من خواصه، واستقبل السلطان ملوك الفرنج الرهائن في مجلس مهيب، وإخوته الملوك واقفون بين يديه، الأمر الذي دهش له الفرنج، ثم جاء قساوسة الفرنج ورهبانهم لتسليم دمياط، وتسلّمها الأيوبيون.

وسرعان ما ظهرت صحة وجهة نظر السلطان الكامل، وتأكّدت عبقريته الحربية والسياسة، ففي اليوم الذي تسلّم فيه الجيش الأيوبي دمياط وصلت نجدة عظيمة إلى الفرنج قادمة من أوربا، وكانت تتألف من حوالي ألف مركب، ولا ريب أنها لم تكن مراكب فارغة، وإنما كانت مشحونة بالرجال والأسلحة وسائر الإمدادات، ثم إن المسلمين، بعد دخولهم دمياط، وجدوا أن الفرنج كانوا قد قاموا بتحصينها تحصيناً شديداً جداً، إلى درجة أنه كان يستحيل استردادها بالقوة، فكيف كان سيصبح الموقف العسكري الفرنجي بعد وصول تلك المراكب؟! أما كان من الممكن أن يستعيدوا قوتهم، ويجعلوا الجيش الأيوبي في موقف أشد صعوبة مما سبق؟!

وبعد استرداد دمياط بعث الكامل بمن عنده من رهائن الفرنج، ورجع ابنه الملك الصالح ومن كان معه من عند الفرنج، قال المقريزي في (السلوك):

" وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثماني سنين، على أن كلاً من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى، وحلف السلطان وإخوته، وحلف ملوك الفرنج، على ذلك، وتفرق من كان قد حضر للقتال، فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله، وكان لدخوله مسرة عظيمة وابتهاج زائد، ثم سار الفرنج إلى بلادهم ".

وهنّا الشعراء السلطان الكامل بقصائد بديعة، فقال شرف الدين ابن عُنَيْن (محمد بن نصر) في قصيدة له:

سلوا صَهَوات الخيل يومَ الوغى عنا
إذا جهلت آياتنـا والقنـــا اللُّدْنا
غداةَ التقينا دون دميـــاط جَحْفَلاً
من الروم لا يُحصى يقيناً و لا ظنّا
قد اجتمعوا رأياً وديناً وهمّـــةً
وعزمـاً، وإن كانوا اختلفـوا سنّا
فما برحتْ سُمْرُ الرماح تُنوشهمْ
بأطرافها، حتى استجاروا بنـا منّا
بدا الموت من زُرق الأسنّة أحمراً
فألقوا بأيديهـم إلينـــا، فأحسنّا

الحملة الصليبية السادسة

ذات مرة قال القاضي الفاضل في الأيوبيين:

" الآباء اتفقوا فملكوا، والأبناء اختلفوا فهلكوا "

والحقيقة أن هذا القول يصح على قادة الكرد وزعمائهم عبر كل العصور، فقد اتفق أبناء السلطان العادل على التصدي للحملة الصليبية الخامسة، فألحقوا بها الفشل، لكن سرعان ما " عادت حليمة إلى عادتها القديمة "، كما يقول المثل العربي القديم، ونشبت الخلافات من جديد

بين الإخوة الثلاثة: السلطان الكامل صاحب مصر، والملك المعظّم صاحب دمشق، والملك الأشرف صاحب كردستان وما يجاورها من بلاد أرمينيا، وكان الخلاف الرئيس بين كل من المعظم والأشرف يدور حول حما وحلب الواقعة بين منطقتي نفوذيهما، وكان لا بد للسلطان الكامل من التدخل كل مرة، للوقوف إلى جانب الطرف المظلوم.

ومع سنة (٦٢٣ هـ) كان الشقاق بين الإخوة الثلاثة قد بلغ الذروة، ووقف الملكان المعظم والأشرف معاً ضد الكامل، وشرع المعظم صاحب دمشق يراسل السلطان جلال الدين خُوارزم شاه، طالباً منه النجدة ضد أخيه السلطان الكامل، **"ووعده أن يخطب له، ويضرب السكّة باسمه، فسيّر إليه جلال الدين خِلعة لبسها، وشقّ بها دمشق، وقطع الخطبة للملك الكامل"** (انظر المقريزي: السلوك)، وكان جلال الدين حينذاك قد تراجع أمام الزحف المغولي، ووصل إلى أذربيجان وكردستانى، وهو يعيث فيهما فساداً وتدميراً.

وبالمقابل بحث الكامل عن نصير يستعيد به توازن القوى ضد أخويه، فوجد بغيته في صديقه فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فشجّعه على مهاجمة سواحل بلاد الشام، حيث ممتلكات أخيه الملك المعظم.

أما في الجانب الأوربي فكان الألماني فردريك الثاني قد تعهّد للبابوية، إبّان وصوله إلى السلطة سنة (١٢١٤ م)، أن يقوم بحملة صليبية لاسترداد القدس، وفي سنة (١٢٢٠ م) تُوّج إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة في كنيسة القديس بطرس بروما، بعد أن جدّد العهد للبابوية بشنّ الحملة المتفق عليها.

ويبدو أن فردريك لم يكن جاداً في مشروعه الصليبي، فهو رجل واسع الاطلاع على الفلسفة، والعلوم، والطب، والتاريخ الطبيعي، ويجيد من اللغات الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، واللاتينية، واليونانية، والعربية، وكانت له تعليقات مثيرة حول الأديان، ولم يكن متحمساً للحروب الدينية، في حين كانت البابوية تتوق إلى إرسال حملة صليبية سادسة على وجه السرعة لإصلاح الموقف الناجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة، وأدّت مماطلة الإمبراطور، وخلافاته مع البابا، إلى إصدار قرار الحرمان ضده سنة (١٢٢٧ م).

ونتيجة لتأزّم الموقف أدرك الإمبراطور فردريك أن مصلحته السياسية تقتضي القيام بحملة صليبية، يفوّت بها على البابا إظهاره بمظهر المسيحي العاق، وبدأ حملته سنة (٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م) متوجّهاً إلى عكا، وكان قد وضع ثقته في حليفه السلطان الكامل، وكان الملك المعظم قد توفي سنة

(٦٢٤ هـ)، وبوفاته زالت عقبة كبرى من طريق السلطان الكامل، فخرج بجيشه إلى بلاد الشام، وهدفه أن يسيطر على دمشق والقدس وغيرها من البلاد التي كانت تابعة لأخيه الملك المعظم.

ونتيجة للواقع الجديد لم يعد الكامل بحاجة إلى قدوم الإمبراطور فردريك، لكن كانت الفرصة قد فاتته، ولم ير فردريك بداً من القيام بالحملة الصليبية السادسة، تحت ضغوط البابا، وتمكّن بعد مفاوضات طويلة ومضنية مع الملك الكامل من استرداد القدس سنة (٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) سلماً وعلى نحو شكلي، ووصلت المفاوضات إلى حد أن الإمبراطور كان يبكي متوسّلاً إلى صديقه الملك الكامل أن يحقق له رغبته هذه، فقط ليردّ مكر البابوية إلى نحرها، وفي اللحظات الأخيرة اصطلح الكامل وأخوه الأشرف ثانية، قال ابن الأثير في (الكامل في التاريخ):

" فلما اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين الأنبرور ﴿الإمبراطور﴾، ملك الفرنج، دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلّموا إليه البيت المقدس، ومعه مواضع يسيرة من بلاده، ويكون باقي البلاد، مثل الخليل، نابلس، والغَور، ومَلَطْية ﴿كذا، ولعلها: سَبَسْطية﴾، وغير ذلك بيد المسلمين، ولا يسلّم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه، ... وتسلّم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه ".

وأورد المقريزي أخبار المحادثات بين وفد السلطان الكامل والإمبراطور فردريك على نحو أكثر تفصيلاً مما أورده ابن الأثير، وخلاصة ما أورده أن رئيس الوفد المفاوض من الجانب الأيوبي كان فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ومعه الشريف شمس الدين الأموي قاضي العسكر، وقضت الاتفاقية أن الإمبراطور يأخذ القدس، لكن يبقيها على حالها، ولا يجدد سورها، وأن تكون سائر قرى القدس في أيدي المسلمين، لا حكم للفرنج فيها، وأن الحرم، بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى، يكون في أيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولّى المسلمون شؤونه، ويقيمون فيه الأذان والصلاة.

وكانت مدة الاتفاقية عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً، وقال المقريزي في (السلوك):

" واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا انكسار جاهه ما كلّف السلطان شيئاً من ذلك، وأنه ما له غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج ".

وبعد توقيع الاتفاقية استأذن الإمبراطور في دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلب، وكلّف قاضي نابلس بمرافقته، وطاف الإمبراطور في أرجاء المسجد الأقصى، وأعجب به، ورأى قسيساً بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن دخل

أحد من الفرنج المسجد بغير إذن ليقتلنه، وقال: " فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدّق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام، فلا يتعدّى أحد منكم طوره "، فانصرف القس وهو يرتعد خوفاً منه (انظر المقريزي: السلوك).

زمنان مختلفان

وصحيح أن اعتراف الكامل بدخول القدس في حكم الإمبراطور كانت صفقة سياسية شكلية الطابع، وأنه كان مكرهاً على ذلك بسبب ضعف موقفه، وقوة الإمبراطور ومن ورائه قوة أوربا، وصحيح أيضاً أن الإمبراطور نفسه لم ينظر إلى الأمر على أنه انتصار للمسيحية على الإسلام، ويبدو من سيرته الذاتية أنه كان علماني الرؤية، لا يتعصّب لدين ضد آخر، ومع ذلك فقد وقع خبر دخول القدس في حكم الفرنج على المسلمين كالصاعقة، " فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيّم الكامل، وأذّنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعزّ عليه ذلك، ... واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار " (انظر المقريزي: السلوك).

ولسنا الآن بصدد تبرير تنازل السلطان الكامل عن القدس للإمبراطور فردريك، فثمة عوامل عديدة ساهمت في إيصال الكامل إلى اتخاذ ذلك القرار، أهمها تشرذم الأيوبيين وتخاصمهم، وتفرق قيادات شعوب شرقي المتوسط، وانشغال كل فئة بما يواجهها من تحديات، وبما يراودها من مصالح ومطامع، ولا يمكن بأي حال من الأحوال قياس الواقع العام في عهد الكامل بما كان عليه في زمن نور الدين وصلاح الدين، فقد أفلح هذان الزعيمان في تعبئة شعوب شرقي المتوسط، وتوظيف مواردها ضد الغزو الفرنجي، فكانا غير مضطرين إلى الخضوع لنهج الواقعية السياسية، وإنما كانا في موقف هجومي يصنعان من خلاله الواقع السياسي.

أما الكامل فإنه كان ينتمي إلى زمن الموقف الدفاعي، وليس إلى زمن الموقف الهجومي، وكان مضطراً من ثم إلى أن يأخذ بنهج الواقعية السياسية، ويرتّب الأولويات من جديد، ويضحّي بالقليل للاحتفاظ بالكثير، وينتظر الفرصة المناسبة لاسترداد ما فرّط فيه. وكانت الصداقة قد توثقت بينه وبين فردريك، وقطف ابنه الملك الصالح ثمرة تلك الصداقة بعدئذ، إذ كانت الأخبار التي يوصلها فردريك إلى السلطان الصالح سراً، حول تحركات الحملة الصليبية السابعة، من أكبر العوامل في فشل تلك الحملة، ونجاة مصر وشرقي المتوسط عامة من خطر كبير.

وقد أمضى السلطان الكامل الأعوام التالية في القضاء على المشكلات الداخلية، وأفلح في لملمة شمل أطراف الدولة الأيوبية قدر المستطاع، فشرّق وغرّب، وعاد أخيراً إلى دمشق، فمرض وتوفي فيها سنة (٦٣٥ هـ) وعمره نحو ستين سنة.

وتعبيراً عن وفاء الإمبراطور فردريك لصديقه السلطان الكامل أمر بالإفراج عمن عنده من الأسرى المسلمين، قال ابن خلّكان في (وفيات الأعيان): " **فأحضرهم الأمبراطور بين يديه، وقال لهم: يا حجّاج، قد أعتقتكم عن الملك الكامل، وسيّرهم مع قصّاد تقودهم إلى عكا، وأمرهم بحل قيودهم عند قبره، وإطلاق سبيلهم** ".

شخصية الكامل

تجمع كتابات المؤرخين على أن السلطان الكامل كان شخصية لا تخلو من التميّز في كثير من الميادين، وأول ما تميّز به هو ثقافته الواسعة، وحبه للعلم وأهله، ومشاركته في المناقشات العلمية، ورعايته للعلماء، وتوفير حياة كريمة لهم، قال المقريزي في (السلوك):

" **وكان يحب أهل العلم، ويؤثر مجالستهم، وشغف بسماع الحديث النبوي، وحدّث بالإجازة من أبي محمد بن بَرّي، وأبي القاسم البُوصِيري، وعدة من المصريين، وتقدم عنده أبو الخطّاب بن دِحْيَة، وبنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وجعل عليها أوقافاً، وكان يناظر العلماء، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها، فمن أجاب عنده قدّمه وحظي عنده، وكانت تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم، كالجمال اليمني النحوي، والفقيه عبد الظاهر، وابن دحية، والأمير صلاح الدين الإربلي- وكان أحد الفضلاء- فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره، ليسامروه، فنفقت الآداب والعلوم عنده، وقصده أرباب الفضائل، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الدارّة**".

رجل دولة قدير

أما على صعيد الإدارة والقيادة فقال ابن خلّكان (وفيات الأعيان): " **خطب له إخوته وأهل بيته في بلادهم، وضربوا السكّة باسمه، وكان محبوباً إلى الناس، مسعوداً مؤيّداً في الحروب** ".

وقال المقريزي (السلوك):

" **وكان مهيباً، حازماً، سديد الآراء، حسن التدبير لمماليكه، عفيفاً عن الدماء، وبلغ من مهابته أن الرمل – فيما بين العريش ومصر- كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير، والأحمال من**

الثياب، من غير خوف، وسُرق مرة فيه بساط، فأحضر الكامل العربان الذين يخفرون الطريق، وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه، فبذلوا عوضه شيئاً كثيراً وهو يأبى إلا إحضار السارق، أو إتلاف أنفسهم وأموالهم بدله، فلم يجدوا بداً من إحضار السارق والبساط ".

وأضاف المقريزي أيضاً في (السلوك):

" وكان يباشر أمور الملك بنفسه، من غير اعتماد على وزير ولا غيره، واستوزر أولاً الصاحب صفيّ الدين بن شُكْر ست سنين، ... فلما مات الصاحب لم يستوزر بعد أحداً، بل كان يستنهض من يختار في تدبير الأشغال، ... وصار يباشر أمور الدولة بنفسه، ويُحضر عنده الدواوين، فيحاققهم ويحاسب، وإذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه، وكشف الجسور، ورتّب في كل جسر من الأمراء من يتولاه، ويجمع الرجال لعمله، فمتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقوبة، فعمرت أرض مصر في أيامه عمارة زائدة ".

ألا إنه لا مجاملة في حكم التاريخ.

وإن شخصية قيادية متميّزة تعني قدرات قيادية متميّزة.

وبقدراته القيادية المتميّزة فتح السلطان الكامل طريقه إلى قمم التاريخ.

المراجع

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤٧٧/١٢، ٤٧٩. ٣١٦،

٢. البُنداري: سنا البرق الشامي، ص ٢٤.

٣. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م، ٧٦٧/١٠ – ٧٦٨، ٧٧١ -٧٧٢.

٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٧٩/٥ -٩٠.

٥. الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ١٦٢ -١٧٥.

٦. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٦٩/٣ – ٣٠٣، ٣٠٥ – ٣٣٠

٧. الدكتور السيد عبد العزيز سالم، الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٦٨ – ١٧٧.

٨. أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، القسم الثاني، ص ٣١٧، ٣٢٤ – ٣٣٢.

٩. الدكتور عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، ص ٥١٤ – ٥١٥.

١٠. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الأول، ص ٢٣٠ -٣٠٢.

(١٢)

السلطان الصالح الأيوبي

(توفي سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م)

شرق وغربا

" الشرق شرق، والغرب غرب.

ولن يلتقيا أبداً ".

هكذا قال الشاعر البريطاني روديارد كبلنغ في إحدى قصائده ذات مرة.

ونفهم من عبارة (لن يلتقيا) أن لكل من الشرق والغرب رؤيته ومبادئه وقيمه وثقافته وحضارته، ولن يتوصلا إلى قاسم مشترك بينهما، ولن يتفاهما على نقاط الاختلاف، وإنما ستظل روح الخصام والاحتراب قائمة بينهما إلى الأبد، تارة يتجه الشرق إلى الغرب غازياً، وأخرى يندفع الغرب إلى الشرق مستعمراً.

وما كان كبلنغ يثرثر وما كان يهذي، وإنما كان قد رجع إلى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب قبل عشرات القرون، وتفحّص مساراتها ومداراتها، فوجد أن الفينيقيين، سكان الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، كانوا في خصومة مع الإغْريق، سكان جنوبي اليونان. وأن ميديا الكردية خاضت حروباً طاحنة ضد ليديا الإغريقية، في القرن السابع قبل الميلاد، وصحيح أن ليديا كانت تقوم في آسيا الصغرى (تركيا حديثاً) لكنها كانت إغريقية إثنولوجياً وثقافياً.

ولعل كبلنغ وجد أيضاً أن الفرس الأخمين شنّوا حملاتهم ضد بلاد يونان بقيادة دارا الأول وابنه أحشويرش الأول Xerxes، في القرن السادس والخامس قبل الميلاد، وهاجم الفرس أثينا عاصمة اليونان، وألحقوا بها الدمار، فجاء الرد الغربي بقيادة الإسكندر المكدوني، في القرن الرابع قبل الميلاد، فهاجم عاصمة الفرس پرسُوپ وليس (إصْطَخْر في جنوب غربي إيران)، ودمّرها تدميراً.

واستمر الصراع بين الشرق والغرب بعد الميلاد، وكان زمام المبادرة في أيدي الرومان وأقاربهم البيزنطيين، ممثلي الثقافة الغربية، وظلوا يحكمون شعوباً شرقية قروناً عديدة، وجاء الرد على أيدي الفرس الساسانيين أكثر من مرة، ثم ظهر العرب المسلمون في القرن السابع الميلادي، فقذفوا بالغرب إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط، بل لاحقوهم إلى إسبانيا، وجنوبي كل من فرنسا وإيطاليا، وحاولوا مراراً إخراجهم من آسيا الصغرى، واحتلال عاصمتهم القسطنطينية، فلم يفلحوا في ذلك.

وهل التزم الغرب الصمت؟

لا، وإنما جاء الرد الغربي على أيدي الفرنج (الصليبيين) في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، إذا هاجموا الشرق، وتحديداً شرقي المتوسط، ومصر، وأسسوا إمارة الرُها في شمال غربي

كردستان (جنوب غربي تركيا)، وإمارة أنطاكيا، وإمارة طرابلس، وسيطروا على القدس، وأسسوا مملكة بيت المقدس، وتطلّعوا من بعد إلى احتلال مصر عدة مرات.

ونهض الشرق ثانية بقيادة السلاجقة الترك أولاً، ثم بقيادة الزنكيين الترك، ثم بقيادة الأيوبيين الكرد، وردّ على الغرب، لكن كان الرد هجومياً محلياً، وتحول على أيدي العثمانيين الترك إلى رد هجومي داخل أوربا نفسها، فاجتاح العثمانيون قسماً كبيراً من أوربا الشرقية، واحتلوا أجزاء من أوربا الغربية، وحاصروا فيّنّا عاصمة النمسا مرتين.

واستلم الغرب زمام الرد الهجومي في العصر الحديث، فسيطرت إنكلترا وفرنسا وإيطاليا، وإلى حد ما إسبانيا على جميع البلدان الواقعة في شمالي إفريقيا، وفي شرقي المتوسط، بل اندفعت إنكلترا إلى العمق الشرقي، حتى الهند وأفغانستان ضمناً.

وما زالت المبادرة في أيدي الغرب منذ ثلاثة قرون.

من أنتج الحروب الدينية؟

وجدير بالملاحظة أن حروب الشرق والغرب، قبل القرن السابع الميلادي، لم تكن دينية الطابع، ولم نجد في المصادر التاريخية أن كيخسرو هاجم ليديا اليونانية لنشر الدين الميثرائي، وأن دارا الفارسي غزا بلاد اليونان لنشر الزردشتية، وكانت العقيدة الرسمية للدولة الأخمينية، ولم نجد أن الإسكندر المكدوني غزا بلاد فارس لنشر عقيدة زِيُوس إله اليونان الأكبر، بل على العكس من ذلك كان كل غاز من هؤلاء يتصرف وفق قاعدة (لكم دينكم ولي ديني)، وكانت التبعية السياسية والاقتصادية هي التي تهمّهم في الدرجة الأولى.

إن بوادر دخول الدين في الصراع بين الشرق والغرب ظهرت- لكن بشكل محدود- بعد أن اعتنق الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية، وأعلنها ديانة رسمية للدولة سنة (٣١٣ م)، ولا يخفى أن المسيحية ديانة شرقية المنشأ، أو لنقل: إنها ديانة شرق أوسطية، فقد ظهرت في فلسطين أولاً، ثم انتقلت إلى جنوبي أوربا وسائر العالم.

وتكرّس الطابع الديني للصراعات، سواء أكانت شرقية – شرقية، أم كانت شرقية – غربية، وبصورة حادّة، مع انطلاقة الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، ولا يخفى أن الإسلام ديانة شرقية المنشأ، أو لنقل: إنها ديانة شرق أوسطية، ظهرت في شبه الجزيرة العربية.

وبعبارة أكثر دقة: إن الحروب الدينية الطابع، سواء أكانت إسلامية بقيادة شرقية، أم كانت مسيحية بقيادة غربية، هي في الحقيقة إنتاج شرق اوسطي، ومن شرقي المتوسط صُدِّرت إلى الشرق والغرب، وهذه ظاهرة جديرة بالدرس الجادّ، وبالتحليل الموضوعي، بعيداً عن الأحكام المطلقة والمسبقة.

وللتوضيح دعونا نرجع بالذاكرة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حينما قاد العبرانيون حرباً دينية طاحنة في شرقي المتوسط، وتحديداً في فلسطين، ومنحوا لأنفسهم، وفق صك مزعوم من الإله يَهْوَه، بلاداً تمتد من وادي العريش غرباً إلى نهر الفرات شرقاً، وقرروا احتلال أراضي عشرة شعوب كانت تسكن تلك المنطقة حسبما جاء في التوراة، وهم: الْقَيْنِيونَ وَالْقَنِزِّيونَ وَالْقَدْمُونِيُّونَ، وَالْحِثِّيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ، وَالرَّفَائِيُّونَ، وَالأَمُورِيُّونَ، وَالْكَنْعَانِيُّونَ، وَالْجِرْجَاشِيُّونَ، وَالْيَبُوسِيُّونَ. (العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١٥، الآيات ١٨ – ٢١).

وما يهمنا الآن هو أمر الحروب الصليبية.

إن هذه الحروب كانت حلقة في سلسلة الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو في جوهره صراع على الموارد الاقتصادية والبشرية، وصراع على الأسواق التجارية والطرق التي توصل إليها، وبعبارة أخرى: إنه صراع على (المكان) و(الإنسان).

ومن الطبيعي أن تخاض تلك الحروب تحت راية أيديولوجيا (ثقافة، دين) معينة كل مرة، فتحقيق النصر في حرب ما يتطلّب، على الدوام، تجنيد أكبر عدد ممكن من المقاتلين المتحمسين، كما يتطلّب رغبة قصوى في التنازل عن الحياة (الشهادة)، والأيديولوجيا هي الأكثر فاعلية في توفير هذين العاملين.

ويقع تاريخ الحروب الصليبية بين عامي (١٠٩٥ – ١٢٩١ م)، أي أنها استمرت (١٩٦) مئة وستة وتسعين عاماً، وقد جرت العادة على أن يبدأ الحديث عن هذه الحروب من سنة (١٠٩٥ م)، وتحديداً من تاريخ الخطاب الذي ألقاه البابا أُورْبان الثاني في مؤتمر كليرمُونت بفرنسا في تلك السنة، ودعا فيه أوربا حكاماً وشعوباً إلى غزو شرقي المتوسط، وخوض الجهاد الديني، تحت راية الصليب، لإنقاذ القدس من المسلمين.

بلى، هذا ما توحي به كتابات معظم من تناول أمر الحروب الصليبية، ووجه الخطر في هذه الكتابات وأمثالها أنها تقدم المشهد التاريخي منقطعاً عما قبله وعما بعده، وتجعلنا نعتاد قراءة الأحداث التاريخية على أنها جزر منفصلة، لا يربط بينها رابط، ولا علاقة لهذا الحدث بذاك، وهي توصلنا في النهاية إلى استخلاص نتائج غير منطقية وغير موضوعية، بل دعوني أقل: إنها تجعلنا نبحث في التاريخ خارج التاريخ.

الشرارة الأولى

وترى قلة من الباحثين أن الشرارة التي أشعلت الحروب الصليبية هي معركة منازكرد (ملازكرت، مانزكرت)، بشمالي كردستان، سنة (١٠٧١ م)، وكي ندرك الأحداث بدقة أكثر لابد من العودة إلى الوراء زماناً ومكاناً:

* أما زماناً فإلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).
* وأما مكاناً فإلى سهوب وسط آسيا، قرب بحيرة أُورال، وشرقي بحيرة قَزْوين (الخَزَر).

فحينذاك كان الترك السلاجقة- وهم طائفة من الغُز (الأُوغُوز)- قد هاجروا من أقاصي تركمانستان لسوء الأحوال الاقتصادية، أوتحت ضغط قبائل أقوى، وسكنوا أيام الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) بجوار بحيرة أُورال، وفي السواحل الشرقية لبحر قزوين (الخزر)، واعتنقوا الإسلام.

وفي البداية عمل السلاجقة مرتزقة في الجيش الغزنوي، ثم انقلبوا على سادتهم، واستطاعوا في النهاية القضاء على الدولة الغزنوية، وفي سنة (٤٢٩ هـ) اتخذوا طُغْرُلْبَك محمد بن مِيكائيل بن سَلْجُوق ملكاً لهم في نيسابور، ثم ازدادت قوتهم، فتقدموا غرباً نحو إيران فكردستان والعراق، واستعان بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ) للخلاص من تسلّط البويهيين الشيعة، ودخل طغرلبك بغداد سنة (٤٤٧ هـ)، وقضى على الحكم البويهي، ومنحه الخليفة لقب (سلطان)، وهو أول مرّة يُستحدَث فيها هذا اللقب في تاريخ الإسلام.

وعلى الدوام كان هدف الفاتحين القادمين من الشرق هو الوصول إلى السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وعلى الدوام كانت كردستان هي المعبر الذي لابد أن يسيطر عليه الفاتحون، وينطلقوا منه لتحقيق ذلك الغرض، وهذا ما فعله السلاجقة، ففي سنتي (٤٤٨، ٤٤٩ هـ) استكملوا احتلال كردستان الشرقية، واحتلوا شمالي كردستان، وقضوا على الدول الكردية التي كانت قائمة آنذاك، وهي الدولة الرَّوادية في أذربيجان، والدولة الشَّدادية في جزء من أرمينيا وآخر من أذربيجان، والدولة الدوستكية (المروانية) في شمالي كردستان.

واستكمل السلطان السَّلجوقي أَلْب أرسلان مشروع السيطرة على كردستان شمالاً وغرباً، ومن كردستان أطل السلاجقة على آسيا الصغرى غرباً، وبلاد الشام غرباً وجنوباً، ومن ورائهما السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، ووجدت الإمبراطورية البيزنطية على حدودها الشرقية غازياً طموحاً صلب الشكيمة، شديد المِراس، فحق لها أن تقلق وتبادر إلى وقف تقدم السلاجقة.

وفي سنة (٤٦٣ هـ/١٠٧١ م) جرد الإمبراطور أرمانوس (رومانوس) جيشاً جراراً، وتوجه شرقاً لصد الزحف السَّلجوقي، فالتقاه السلطان السَّلجوقي ألب أرسلان- ومعه خمسة آلاف من التركمان وعشرة آلاف من الكرد- قرب منازكرد الواقعة شمالي بحيرة وان، وحقق ألب أرسلان نصراً حاسماً، ووقع الإمبراطور في الأسر، وأصبحت الطريق سالكة إلى آسيا الصغرى، ولم يخلد السلاجقة إلى الراحة، فراحوا يتوسّعون غرباً، ومع سنة (١٠٨١ م كانوا السادة الحقيقيين في آسيا الصغرى حتى بحر مَرْمَرة.

وفي ذلك الوقت كانت الكنيسة الشرقية (كنيسة بيزنطا الأرثوذكسية) قد فقدت حيويتها، وكانت الكنيسة الغربية (كنيسة روما الكاثوليكية) قد أنجزت حركة إصلاحية شاملة، وأصبحت البابوية قوة محركة للأحداث في أوربا، وتطلعت من ثم إلى بسط زعامتها على العالم المسيحي بأسره.

وعلى أثر كارثة ملازكرد استنجد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع بالبابوية، طالباً فرقاً عسكرية لمقاومة السلاجقة، وسرعان ما لبّت البابوية الطلب، فقد كان العالم المسيحي الغربي يعدّ القسطنطينية خط دفاعها الأول من جهة الشرق، لذلك هبّ البابا جريجوري السابع إلى تشجيع الأوربيين على نجدة بيزنطا، ولقيت هذه الدعوة بعدئذ تصعيداً شديداً على يدي البابا أوربان الثاني.

انطلاقة الحملات الصليبية

وقد بدأت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة (١٠٩٥ م)، ودخلت مرحلة التنفيذ سنة (١٠٩٦ م)، وكانت النتيجة إقامة إمارة الرُّها سنة (١٠٩٧ م)، وإمارة أنطاكيا (١٠٩٨ م)، واحتلال القدس سنة (١٠٩٩ م)، وتأسيس مملكة بيت المقدس التي كانت تحكم فلسطين وجزءاً كبيراً من الأردن، وتأسست إمارة طرابلس (في لبنان) سنة (١١٠٩ م).

ومع سنة (١٠٩٥ م) كان التوسع السَّلجوقي غرباً قد وصل إلى مداه الأقصى، ونشبت الصراعات داخل البيت السَّلجوقي نفسه بعد مقتل السلطان مَلِكشاه سنة (٤٨٥ هـ)، وكانت القوة الزنكية، في عهد عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين، هي الناهضة والناشطة في شرقي المتوسط، وهي التي أخذت راية التصدي للغزو الفرنجي، وأسقط الزنكيون إمارة الرُّها الفرنجية سنة (١١٤٤ م) في عهد عماد الدين، ثم للمرة الأخيرة سنة (١١٤٦ م) في عهد نور الدين،

وسيطروا على شمالي سوريا وجنوبيها، وأصبحوا يهددون الإمارات الفرنجية الأخرى، ومملكة بيت المقدس.

وأحدث سقوط إمارة الرُّها الفرنجية ردود فعل حادّة عند الفرنج، واستغاثت مملكة بيت المقدس الفرنجية بالبابا يوجين الثالث سنة (١١٤٥ م)، فدعا خليفته البابا أُورْبان إلى شنّ الحملة الصليبية الثانية، وتم تنفيذ الحملة سنة (١١٤٧ م)، بمشاركة كل من الملك الفرنسي لويس السابع، والإمبراطور الألماني كونراد الثالث، وأقصى ما حققته هو أن الفرنج هاجموا دمشق وحاصروها سنة (١١٤٨ م)، وأخفقوا في احتلالها.

ومنذ سنة (١١٧٤ م) حمل الكرد الأيوبيون راية الدفاع عن الشرق ضد الفرنج، واستعاد صلاح الدين القدس سنة (١١٨٧ م)، بعد ثمانية وثمانين سنة من الحملة الصليبية الأولى، كما استرد قسماً كبيراً من فلسطين ومن سوريا الساحلية، فثارت ثائرة أوربا، وكانت النتيجة هي الحملة الصليبية الثالثة سنة (١٠٨٩ م)، وقادها ثلاثة كانوا كبار قادة أوربا حينذاك، وهم: فردريك برباروسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وانتهت الحملة سنة (١٠٩٢ م)، عاجزة عن تحقيق هدفها الأساسي وهو استرداد القدس.

ثم كانت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤ م)، وقد أحبطها السلطان العادل بدبلوماسيته الحكيمة، وتلتها الحملة الصليبية الخامسة على مصر بين سنتي (١٢١٨ – ١٢٢١ م)، وقد تصدّى لها السلطان الكامل، وألحق بها الهزيمة. ثم كانت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ – ١٢٢٩ م)، بقيادة فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا والمملكة الرومانية المقدسة، وحققت مكاسب محدودة بتبعية القدس للإمبراطور.

وأخيراً كانت الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ – ١٢٥٤ م)، وكانت بقيادة ملك فرنسا المتحمّس دينياً لويس التاسع، وكان قدر البيت الأيوبي أن يتصدى لهذه الحملة بقياد السلطان الصالح نجم الدين ابن السلطان الكامل.

فمن هو الرجل؟

وما هي أبرز الأحداث التي اصرها وساهم فيها؟

وكيف أدار دَفّة الحرب الصعبة ضد الحملة الفرنسية؟

السلطان والدولة

السلطان الصالح هو أبو الفتوح نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل ابن السلطان العادل ابن أيوب، أمه جارية سودانية اسمها ورد المنى، ولد سنة (٦٠٣ هـ)، وكان السلطان الكامل ابن السلطان العادل يحب ولده الأصغر العادل، كما كان يحب أمه حباً زائداً، وكانت أم العادل حريصة على تنفير السلطان من ابنه الأكبر نجم الدين، فولاّه السلطان على حصن كيفا في كردستان سنة (٦٣٠ هـ)، وحقق بذلك هدفين:

- الأول ضمان سيطرته على كردستان والحدود الشرقية الشمالية.
- والثاني إبعاد الصالح عن مركز النفوذ في القيادة العليا.

وقام السلطان الكامل في السنة نفسها بتنصيب ابنه الأصغر العادل سلطاناً بعده، وأركبه بشعار السلطنة، وشق به القاهرة، ليعلن ذلك على الجماهير، وعمر العادل يومئذ إحدى عشرة سنة فقط.

وفي سنة (٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م) توفّي الملك الكامل، فتولّى السلطة بعده ابنه العادل سيف الدين أبو بكر، ومولده سنة (٦١٧ هـ)، واستقر الأمر له في حكم مصر ودمشق، وهما الجناحان الرئيسان للدولة الأيوبية، وسمع الملك الصالح نجم الدين بوفاة والده وهو في شرقي الدولة، وتحديداً في الرَّحْبة (على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد)، فترك الرحبة، وكان يحاصرها، وتوجّه غرباً نحو دمشق، وهو يرى أنه أولى من أخيه العادل بالسلطنة.

وقد لعبت مراكز القوى دورها في موضوع الخلافة بعد الكامل، فاستقطب الصالح معظم المماليك الترك وبعض الأمراء الكرد، واستقطب العادل آخرين، ويبدو أن معظم الترك كانوا قد انصرفوا عنه، وبقي مع بعض الكرد، وذكر المقريزي أن الصالح سيطر على دمشق؛ " فبطق ﴿أرسل رسالة﴾ العادل إلى من بقي معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر ﴿تآمر﴾ عليه ببلبيس ﴿بمصر﴾، قبل قدوم هؤلاء عليهم، فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس، وانكسر الأتراك المخامرون﴿المتآمرون﴾، وأُخذ منهم أمير، وانهزم الباقون " (انظر المقريزي: السلوك)، وهذا يعني أن الأمراء الكرد لم يكونوا كلهم مع الصالح، وإنما كان فريق منهم مع العادل أيضاً.

وكان العادل شاباً مراهقاً غير لائق بالحكم ولا قادراً عليه، ولا خبرة له بأمور الدولة، فأدار ظهره لكبار القادة وذوي الرأي والمشورة، وأسرف في إنفاق المال على اللهو والعبث، وقرّب الشباب، وأعطاهم الأموال والإقطاعات، واقتدى بآرائهم، واشتغل باللهو عن مصالح الدولة،

وأفاد المقريزي في (السلوك) أن العادل **" أكثر من تقديم الصبيان والمساخر وأهل اللهو، حتى حُسبت نفقاته في هذا الوجه خاصة، فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف درهم"** أي ستة ملايين وعشرين ألف درهم.

وبعد فترة من الصراع على السلطة بين الأخوين الصالح والعادل، وبعد تدخل من الخليفة العباسي، وكثير من المناورات والمناوشات بين زعماء البيت الأيوبي، وبين الجناحين الكردي والتركي، سارت الأمور لمصلحة الصالح، فقد اتفق الفريق الأكبر من المماليك الترك وقليل من الكرد على خلع العادل، والوقوف إلى جانب الصالح، وحاول فريق من الكرد الدفاع عن العادل، لكنهم هزموا على أيدي الترك، وفي النهاية هيمن الصالح على الحكم سنة (٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م)، واعتقل أخاه العادل.

قال المقريزي في (السلوك):

" أحضر الملك الصالح إليه الملكَ العادلَ، وسأله عن أشياء، ثم كشف بيت المال والخزانة السلطانية، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، وقيل له عما أتلفه أخوه. فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا في القبض على أخيه، وقال لهم: لأي شيء قبضتم على سلطانكم؟ فقالوا: لأنه كان سفيهاً. فقال: يا قضاة، السفيه يجوز تصرّفه في بيت مال المسلمين؟ قالوا: لا. قال: أقسم بالله، متى لم تحضروا ما أخذتم من المال كانت أرواحكم عوضه. فخرجوا وأحضروا إليه سبعمئة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار، وألفي ألف (مليونين) وثلاثمئة ألف درهم. ثم أمهلهم قليلاً، وقبض عليهم واحداً بعد واحد ".

وهكذا فقد باشر السلطان الصالح الأمور بحزم.

وأول ما قام به هو استرداد الأموال المنهوبة من خزينة الدولة، فلا سلطة قوية مع خزينة فارغة. وكانت الخطوة الثانية هي الحصول على اعتراف الخليفة العباسي في بغداد، وكان ذلك الاعتراف ضرورياً لكل حاكم في ذلك الوقت، وقد وصل ابن الجَوْزي موفد الخليفة إلى القاهرة، وهو يحمل الخلعة، **"فلبسها الملك الصالح، ونصب منبراً صعد عليه ابن الجوزي، وقرأ تقليد الملك الصالح، والملك الصالح قائم بين يدي المنبر على قدميه، حتى فرغ من قراءته"** (انظر المقريزي: السلوك).

وفي سنة (٦٣٨ هـ) تفرّغ السلطان الصالح للنظر في شؤون دولته، وترسيخ قواعد مملكته، ووضع الخطط لعمارة أرض مصر، وكان من الحزم في الوقت نفسه أن يضمن استقرار الدولة، فأمر بالقضاء على من تحدثه نفسه بإثارة المتاعب، إما بسجنهم، وإما بعزلهم وتجريدهم من سلطاتهم

ومزاياهم، وفوّض الأمور إلى من يثق بهم ويعتمد عليهم من مماليكه، " فتمكّن أمره، وقوي جَأشه " حسبما قال المقريزي.

وما كانت سلطة الصالح في مصر لتكتمل إلا بفرض نفوذه على بلاد الشام أيضاً، لكن بعض كبار زعماء البيت الأيوبي رفضوا الخضوع له، وهذه ظاهرة واضحة في تاريخ الشعب الكردي، أقصد صعوبة انقياد الكردي للكردي، ولا سيما على صعيد القيادة والزعامة، فاضطر السلطان إلى خوض الصراعات ضدهم، وبذل في تحقيق ذلك جهوداً كبيرة ووقتاً طويلاً.

بل إن خوف الصالح من انقضاض المنافسين عليه جرّه إلى قتل أخيه العادل، وهذه ظاهرة جديدة في البيت الأيوبي، ما كانت معهودة عند الآباء المؤسسين، ففي سنة (٦٤٤ هـ) عزم السلطان الصالح على التوجه إلى الشام، لبسط نفوذه عليها، ويبدو أنه خاف أن يقوم أنصار أخيه العادل بانقلاب في غيابه، فأمر العادلَ- وكان مسجوناً في برج بقلعة الجبل في القاهرة- بالتوجه إلى قلعة الشوبك في الأردن، ليُعتقل فيها، فامتنع العادل عن ذلك، وقيل: بعث إليه السلطان من خنقه في محبسه، وأشاع أنه مات (انظر المقريزي: السلوك).

وأمر آخر مهمّ قام به الصالح، وهو اهتمامه بشراء المماليك الترك، وتخصيص قلعة الروضة مقراً لإقامتهم، فسمّوا باسم (المماليك البحرية)، واعتمد عليهم في توطيد سلطته، وردع منافسيه، وهذا دليل قوي على أنه كان قد فقد الثقة بالمماليك الترك السابقين، أما أمراء الكرد فقد سبق أن قام والده الكامل باستبعاد رؤسائهم من مركز القرار في الدولة، ولم يبق منهم إلا العدد القليل، وما كانوا يشكّلون قوة مكافئة لقوة المماليك الترك الكثيري العدد.

والآن ماذا عن الأحداث السياسية والعسكرية؟

مشكلات ثلاث

حينما تسلطن الصالح على الدولة في مصر كان تنتظره ثلاث مشكلات:

- **الأولى هي الخطر الفرنجي:** فقد كان الفرنج يسيطرون على مناطق مهمة من الساحل الشامي في سوريا ولبنان وفلسطين، ولا ننس أنهم أعادوا بسط سيطرتهم على القدس نفسها، من خلال اتفاقية بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثاني (٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م)، وصحيح أن تلك السيطرة كانت محدودة، لكنها عُدّت نصراً كبيراً للفرنج، وانتكاسة كبرى للمسلمين، بل إن استعادة القدس كانت حافزاً للفرنج، فراحوا يعملون، كلما أتيحت لهم الفرصة،

لاستعادة سائر المناطق التي خسرها أسلافهم في عهد صلاح الدين وأخيه العادل، وكانت البابوية على استعداد لأن تحشد القوى الأوربية، وتجنّدها في خدمة الطموحات الفرنجية.

- **الثانية هي الخطر الأيوبي المنافس:** فقد كان بعض ملوك بني أيوب، من أشد معارضي الصالح، ووضعوا كثيراً من العراقيل في طريق وصوله إلى السلطة، حتى إنهم استطاعوا في مرحلة من مراحل الصراع اعتقاله في قلعة الكرك سنة (٦٣٧ هـ)، قبل أن يصبح سلطاناً الأمر الذي فرح له أخوه العادل حينذاك، فأمر بالزينات في القاهرة، وأقام للعامة سماطاً عامراً بأنواع الحلوى والمشروبات والمشويات، كل ذلك على شرف اعتقال أخيه الصالح.

وكان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان العادل، من أقوى المعارضين لابن أخيه الصالح نجم الدين، وبلغت حدّة الصراع بين الزعيمين الأيوبيين أن الصالح إسماعيل هادن الفرنج في بلاد الشام، كي يتفرغ لمقارعة الصالح، قال المقريزي في (السلوك)، مستعرضاً أحداث سنة (٦٣٨ هـ):

" وأذن الصالح إسماعيل للفرنج في دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحربية من أهل دمشق، فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ﴿من أصل مغربي﴾ بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح... وكان الصالح غائباً عن دمشق، فكوتب بذلك، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة، واعتقاله هو والشيخ أبي عمرو بن الحاجب".

- **الثالثة هي الخطر الخُوارزمي:** فبعد مقتل السلطان جلال الدين خُوارزم شاه سنة (٦٢٨ هـ/١٢٣١ م)، وغزو المغول لأذربيجان وأرمينيا وشمالي كردستان، هامت جموع الخُوارزمية الترك على وجوهها في شمالي كردستان (جنوب غربي تركيا) وشمالي بلاد الشام، واستقر جزء كبير منهم في جنوبي كردستان حول الرُّها وحَرّان ونَصيبين، وكانوا على استعداد لأن يبيعوا قدراتهم الحربية لكل من يدفع لهم، ولم يتردّدوا في شنّ الغارات على مدن بلاد الشام، وممارسة أبشع أنواع السلب والنهب وارتكاب المجازر، ففي هجوم لهم على مدينة حلب، قال المقريزي في (السلوك) ما يلي:

" فامتنع الناس بمدينة حلب، وانتُهبت أعمال حلب، وفُعل كل قبيح من السبي؛ والقتل والتخريب، ووضعوا السيف في أهل منبج، وقتلوا فيها ما لا يحصى عده من الناس، وخرّبوا وارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال، وعادوا وقد خرب ما حول حلب".

فكيف السبيل إلى مواجهة هذه المشكلات؟!

استرداد القدس

لقد تفتقت ذهنية الصالح نجم الدين السياسية عن حل عبقري حقاً، ألا وهو معالجة المشكلة بمشكلة أخرى، بلى، إنه وجد في مشكلة الخوارزمية حلاً للمشكلتين الأخريين، ووظّف قوتهم المدمرة لمواجهة منافسيه الأيوبيين من ناحية، ولتصفية الحسابات مع أعدائه الفرنج من ناحية أخرى، فوجّه الدعوة إلى قادة الخُوارزمية للتوجّه غرباً، وسلّطهم على بلاد الشام من نهر الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط.

وفي سنة (٦٤٢ هـ) قطع الخُوارزمية نهر الفرات، وتوجّهوا غرباً إلى بلاد الشام، وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل، يقودهم أربعة من القادة، فسارت فرقة منهم إلى مناطق البقاع التابعة لمدينة بَعلبك، وسارت فرقة أخرى إلى غوطة دمشق، ومارسوا عمليات النهب و السبي والقتل حيثما حلّوا وارتحلوا، " **فاجفل الناس من بين أيديهم** " كما قال المقريزي، ووجد الصالح إسماعيل نفسه في شغل شاغل، وفي خطر داهم، فتحصّن بدمشق، وضمّ إليه عساكره.

ثم توجّه الخُوارزمية إلى المناطق التي كانت تحت سلطة الفرنج، وأولها القدس، قال المقريزي في (السلوك):

" **وهجم الخُوارزمية على القدس، وبذلوا السيف في من كان به من النصارى، حتى أفنوا الرجال، وسبوا النساء والأولاد، وهدموا المباني التي في قُمامة ﴿كنيسة القيامة﴾، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا رممهم، وساروا إلى غزة فنزلوها، وسيّروا إلى الملك الصالح نجم الدين، في صَفَر، يخبرونه بقدومهم، فأمرهم بالإقامة في غزة، ووعدهم ببلاد الشام، بعدما خلع على رسلهم، وسيّر إليهم الخلَع والخيل والأموال** ".

إن هذا الخبر لا يدع مجالاً للشك في وجود التنسيق بين الصالح والخوارزمية، وأن الخوارزمية كانوا ينفّذون خطة رسمها لهم الصالح لقاء ثمن، وقد ورد في المصادر التاريخية أن أحد كبار ضباط القائد الفينيقي هانيبال- قاهر الرومان في معركة كانا قرب روما سنة (٢١٦ ق.م)- قال له ذات مرة: " **إنك تجيد تحقيق النصر، لكن لا تجيد استثماره** ".

والحق أن الصالح كان يعرف كيف ينتصر وكيف يستثمر النصر، فجهّز جيشاً من مصر بقيادة ركن الدين بيبرس أحد مماليكه المقربين، ووجّهه إلى حيث القوة الخُوارزمية، وانضمت إلى الجيش القادم من مصر قوة من الكرد القَيْمرية (نسبة إلى قلعة قَيْمَر في شمالي كردستان، وإلى أحد أعيانهم تنسب المدرسة القيمرية وحارة القيمرية في دمشق)، كما انضمت إلى الخُوارزمية قوة مقاتلة بقيادة الأمير الكردي حسام الدين أبو علي الهَذْباني.

وفي الطرف الآخر جهّز الصالح إسماعيل جيشاً من دمشق، بقيادة الملك المنصور صاحب حمص، فسار المنصور إلى عكّا، وأخذ معه قوة من الفرنج، وتوجه إلى غزة، وانضم إليه هناك الملك الناصر داود صاحب قلعة الكرك.

ونشبت المعركة بين الفريقين، " **وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص** "، ودارت رحى حرب طاحنة، وفي النهاية دارت الدائرة على الجند الشامي والفرنج " **وأحاط الخوارزمية بالفرنج، ووضعوا فيهم السيف، حتى أتوا عليهم قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم إلا من شرد، فكان عدّة من أُسر منهم ثمانمئة رجل** "، وعاد الملك المنصور إلى دمشق بنفر يسير من جيشه، وهو يجرجر أذيال الهزيمة (انظر المقريزي: السلوك).

وكانت نتائج تلك المعركة باهرة، ومن أبرزها أمران:

- **أولهما** تحرير القدس ثانية من أيدي الفرنج في (١١ يوليو/تموز ١٢٤٤م)، وكان ذلك إنجازاً مهماً على الصعيد المعنوي.

- **وثانيهما** السيطرة على دمشق بعد صعوبات وصراعات مع الملك الصالح إسماعيل، وتعيين الأمير حسام الدين أبو علي الهذباني نائباً عليها، وكانت السيطرة على دمشق تعني الكثير على الصعيد الإستراتيجي في ذلك الوقت.

حسناً، ها قد وظّف السلطان الصالح مشكلة الخُوارزمية لحل المشكلتين الأخريين، أقصد الانتصار على الفرنج، والانتصار على منافسيه الأيوبيين، وبقي أن يتدبّر أمر الخُوارزمية، فإنهم كانوا يسترسلون في غطرستهم وفسادهم، وفي شن عمليات السلب والنهب، بل إن الخُوارزمية كانوا قد بيّتوا في أنفسهم أمراً، قال المقريزي في (السلوك). يوضّح الأمر:

" **وأما الخُوارزمية، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد، فلما مُنعوا من دمشق، وصاروا في الساحل وغيره من بلاد الشام، تغيّرت نيّاتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان** ".

وحاول الخُوارزمية تعزيز موقفهم، وإضعاف موقف السلطان، تهيئة للانقضاض عليه، فكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس، وكان من كبار مماليك السلطان المقربين منه، واستغلوا في هذا الصدد كونه تركياً مثلهم، " **وحسّنوا له أن يكون معهم يداً واحدة، ويزوّجوه منهم، فمال إليهم** ". كما أنهم عقدوا في الوقت نفسه تحالفاً مع بعض ملوك البيت الأيوبي المنافسين للسلطان، ومنهم الملك المنصور صاحب حمص.

لكن السلطان لم يقف مكتوف الأيدي، وإنما باشر الأمور بحنكة ودهاء، وعمل الحيل والتدبير لإفشال مخطط الخُوارزمية، فكسب الأيوبيين إلى جانبه، وجرّد جيشاً، وانطلق من مصر إلى بلاد الشام لمقاومة الحلف الخُوارزمي، وفي الوقت نفسه أرسل القاضي نجم الدين محمد بن سالم النابلسي إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس، وقال المقريزي في (السلوك):

" فما زال يخدعه ويُمنّيه، حتى فارق الخوارزمية، وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتُقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به ".

وفي سنة (٦٤٤ هـ) **" عظمت مضرّة الخُوارزمية ببلاد الشام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات "** حسبما ذكر المقريزي.

أما حلف السلطان فكان يتعزّز بالمزيد من القوات، وقد قاد الملك المنصور صاحب حمص معركة التصدي للخُوارزمية، وانضم إليه عساكر حلب، وعرب وتركمان كثيرون، والتقي الفريقان الأيوبي والخُوارزمي قرب حمص، قال المقريزي في السلوك):

" فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخُوارزمية هزيمة قبيحة، وتبدد شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة، وقُتل مقدّمهم بركه خان وهو سكران، وأُسر كثير منهم، واتصل من فرّ منهم بالتتار ".

الحملة الصليبية السابعة

بعد استرداد القدس من الفرنج سنة (٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م) ثارت ثائرة الفرنج شرقاً وغرباً، وأرسل بطريرك القدس وفداً إلى أوربا، لإطلاع البابوية وملوك أوربا وأمرائها على خطورة موقف الفرنج بالشام، وطلب منهم العون العاجل، وأدّت جهود الوفد إلى انعقاد مجمع ليون في صيف سنة (١٢٤٥ م)، واتخذ المجمع قراراً بضرورة إرسال حملة جديدة إلى الشرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان.

وكان ملك فرنسا لويس التاسع الملقّب بالقديس لتقواه أصيب بمرض شديد في أواخر سنة (١٢٤٤ م)، فنذر أن يقوم بحملة صليبية على الشرق إذا شفي، ولما شفي وجد في دعوة المجمع فرصة للوفاء بنذره، وظل ثلاث سنوات يعدّ للحملة، ثم أبحر من فرنسا في آب/أغسطس (١٢٤٨ م) قاصداً الشرق، ومعه زوجته وأخواه روبرت دي أرتو، وشارل دي أنجو، وعدد كبير من الأمراء.

وكان لويس التاسع يعرف أن الطريق إلى استرداد القدس يمر عبر مصر، وأنه لا فائدة من احتلال القدس وحدها، إذ سرعان ما ستندفع الجيوش الأيوبية من مصر لاستردادها، وإعادة الأمور إلى نصابها. وأخيراً وصل لويس على رأس جيشه إلى دمياط أوائل سنة (٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م)، وبدأت حرب الأعصاب بين الطرفين، فبعث لويس إلى السلطان الصالح رسالة تهديد ووعيد، يفخر فيها بالهوان الذي لحق بالمسلمين في الأندلس على أيدي الفرنج، وجاء في رسالته:

" وإنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل الرجال، ونرمّل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدّامي الشمع طاعةً للصلبان، ما ردّني ذلك عن الوصول إليك، وقتلك في أعزّ البقاع عليك ... وقد عرفتك وحذّرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، عددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا " (انظر المقريزي: السلوك).

والحق أن السلطان الصالح كان يعلم نوايا الملك الفرنسي قبل وصوله إلى مصر، فقد مرّ أن الإمبراطور الألماني فردريك الثاني كان صديقاً حميماً لوالده السلطان الكامل، ولم يكن الإمبراطور على وفاق مع كل من البابوية وملك فرنسا، لذا أرسل رسولاً متخفّياً في زيّ تاجر إلى السلطان نجم الدين، يخبره بما عزم عليه الملك الفرنسي.

إن الأمر الذي كان السلطان نجم الدين يجهله هو مقصد لويس التاسع تحديداً، أهو الشام أم مصر؟ وعندما تأكد له أن مصر هي الهدف انتقل إليها من الشام، على الرغم من مرضه، وعسكر في مقابلة الجيش الفرنسي الذين وصلوا إلى دمياط، وأمر بتحصين دمياط، وشحنها بآلات حربية عظيمة وبالذخائر الوافية، وعهد إلى الأمير فخر الدين بالوقوف على رأس قوة في البر الغربي لفرع دمياط، كي يمنع الفرنسيين من النزول على ذلك البر.

ولما وصلت رسالة لويس التاسع إلى السلطان ردّ عليها برسالة يفخر فيها بجند الإسلام، وينذر الملك الفرنسي بالعواقب الوخيمة، ويذكّره بالانتصارات التي حقّقها المسلمون على الفرنج في ظل القيادة الأيوبية، قائلاً:

" أما بعد: فقد وصل كتابك، وأنت تهدّد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قُتلَ منّا قِرن إلا جدّدناه، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمّرناه، فلو رأت عيناك- أيها المغرور- حدّ سيوفنا، وعِظم حروبنا، وفَتْحَنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابَنا منكم

ديـارَ الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعضّ على أناملك بالنـدم، ولا بد أن تزلّ بك القـدم، في يوم أوّله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون " (انظر المقريزي: السلوك).

احتـلال دمـياط .. ووفاة السلطان

حينما وصل لويس التاسع إلى دمياط وجدها مدينة حصينة، وأمامها الجيش الأيوبي يحول دون نزول القوات الفرنسية إلى البر، فقرّر النزول على الضفة الغربية للنيل ، كي يواجه دمياط، وبدأت عملية إنزال الجيش الفرنسي في (٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م)، فتصدّى لهم الجيش الأيوبي، ودارت معركة حامية بين الفريقين على الشاطئ؛ لكن الفرنسيين تفوّقوا بفضل كثرة عددهم، واستـشهد عدد من أمراء الجيش الأيوبي.

أما فخر الدين القائد الميداني للجيش الأيوبي فعبر برجاله النيل ليلاً إلى الضفة الشرقية، حيث تقع مدينة دمياط، ولكنه لم يجرؤ على الوقوف عند دمياط، فاتجه إلى الجنوب نحو أشموم طنّاح.

والحق أن المؤرخين القدامى، وخاصة ابن واصـل (ت ٦٩٧ هـ)، اتّهمـوا الأمـير فخـر الـدين بالتفريط في دمياط، ولو ثبت في الدفاع عنها لامتنعت على الفرنـسيين، وفسّروا فـرار الأمـير فخر الدين بأطماعه في السلطة، وكان قد أرسل رسالة إلى السلطان، فتأخّر عليه الجواب، فظـن أن السلطان توفّي، فأسرع ليحقق أطماعه، تاركًا دمياط لقمة سائغة للفرنج.

وبفرار الأمير فخر الدين استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بما فيها بعد أن أشعلوا النيران في سوقها، وولّوا هاربين، بل إن بعض عـرب كنانـة الـذين عهـد إلـيهم الـسلطان بالدفاع عن المدينة ولّوا الأدبـار، وتركوا أبواب المدينة مفتوحة، وفاتهم عند الفـرار أن يقطعـوا الجسر الذي يربط دميـاط بالضفة الغربية للنيـل، وهكـذا صـارت دميــاط خاليـة مـن وسـائل الدفاع، فدخلها جيش لويس التاسع بسهولة في (٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م)، ووجد الفـرنج فيهـا قـدراً كبيراً من المؤن والذخائر، وعملوا بـسرعة لتحويلـها إلى مدينـة فرنجيـة، وحوّلـوا جامعهـا إلى كنيسة باسم نُوتِرْدام.

وكان احتلال دمياط نكسة كبرى للجانب الأيوبي، فعاقب السلطان أمراء بني كنانة عقابـاً شديداً على فرارهم من دميـاط، وإهمال أمر الدفــاع عنهـا، وأعـدم بعـضهم، ووبّـخ المماليـك الأتراك وقائدهم فخر الدين أشد توبيخ، وكاد يفتك ببعضهم، فشرع هؤلاء يفكّرون في الفتك به،

لكن فخر الدين طلب منهم الصبر، مؤكداً لهم أن السلطان مريض وهو في أيديهم، يفتكون به حين تأتي الفرصة المواتية، قال المقريزي في (السلوك):

" وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم من سطوة السلطان، وهمّوا بقتله، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبيّن أمر السلطان، فإنه على خُطّة ﴿مريض﴾، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم ".

واشتد مرض السلطان، ولم يعد يقوى على النهوض من الفراش، فحُمل إلى قلعة المنصورة، وظل وهو على فراش الموت ينظّم شؤون الدفاع، ويطلب الإمدادات من القاهرة، و توفّي في السنة نفسها (٦٤٧ هـ)، وبقي الجيش الأيوبي من غير قائد أعلى يدير دفّة الأمور، هذا في الوقت الذي وصلت فيه تعزيزات جديدة إلى الفرنج (الفرنسيين)، وراحوا يعدّون العدّة للزحف نحو القاهرة.

وتولّى ابنه السلطان المعظّم توران شاه قيادة الصراع.

وسنوضّح ذلك في ترجمته هو بعد صفحات قليلة.

سلطان .. وسيرة

كلما تأملت سير الحكام قديماً وحديثاً خرجت منها بالعجب العُجاب، وقلت لنفسي: من أين للحكام هذا القدر الهائل من صلابة الأعصاب وشدة المراس؟! وإن أحدنا ليعجز أحياناً عن إدارة نفسه، وإدارة أهله المقربين، فكيف يدير الحكام جماهير مختلفة الأهواء والآراء والنزعات والطموحات؟!

وإذا كانت إدارة شؤون الدولة والمجتمع بهذه الصعوبة في الأوقات العادية، إذ لا قلاقل ولا مشاكل، فكيف يكون الأمر إذا كان المجتمع يعاني من الصراعات الداخلية، وكانت الدولة تتعرض للعدوان الخارجي؟!

إن قدرة السلطان الصالح على إدارة دفة الدولة الأيوبية، رغم الزوابع الداخلية التي ثارت في وجهه، ورغم الأخطار الخارجية التي تهددت دولته، تؤكد أن الرجل كان يتحلّى بخصال قيادية رفيعة، إضافة إلى خصال خلقية متميّزة، ولندع المقريزي يعرض الخطوط الرئيسية لشخصية السلطان، قال في (السلوك):

" وكان ملكاً شجاعاً حازماً مهيباً، لشدة سطوته، وفخامة ناموسه ﴿نظامه﴾، مع عزة النفس وعلوّ الهمة، وكثرة الحياء، والعفّة وطهارة الذيل عن الخَنا ﴿الفحش في الكلام﴾، وصيانة اللسان من الفحش في القول، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية، وشدة الوقار ولزوم الصمت، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه أخذتهم الرِّعدة عندما يشاهدونه، خوفاً منه، ولا يبقى أحد منهم مع أحد، وكان إذا جلس مع ندمائه كان صامتاً، لا يستفزه الطرب، ولا يتحرك، وجلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا تكلم مع أحد من خواصّه كان ما يقوله كلمات نَزْرة وهو في غاية الوقار، وتلك الكلمات لا تكون إلا في مهمّ عظيم، من استشارة أو تقدّم بأمر من الأمور المهمة، لا يعدو حديثه قط هذا النحو، ولا يجسر أحد يتكلم بين يديه إلا جواباً، وما عُرف أبداً عن أحد من خواصّه أن تكلم في مجلسه ابتداء البتّة، ولا أنه جَسَر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة، ما لم يكن ذلك ابتداء من السلطان، فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد، وكانت القصص ﴿القضايا﴾ ترِد إليه مع الخدّام، فيوقّع عليها، ويخرج بها الخدّام إلى كاتب الإنشاء، ولا يستقلّ أحد من أرباب الدولة بانفراد بأمر، بل يراجع بالقصص مع الخدّام. ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه، حياء وخَفَراً، ولم يُسمع منه قط في حق أحد من خدمه لفظة فحش، وأكثر ما يقول إذا شتم أحداً: (متخلّف!)، لا يزيد على هذه الكلمة، ولا عرف قطّ من النكاح سوى زوجته وجواريه ".

وقال المقريزي في (السلوك) أيضاً:

" وكانت البلاد في أيامه آمنة مطمئنة، والطرق سابلة، إلا أنه كان عظيم الكِبر زائد الترفع، بلغ من كِبره وترفّعه أن ابنه الملك المُغيث عمر، لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده، لم يسأله فيه ولا طلبه منه، حتى مات في محبسه، وكان يحب جمع المال، بحيث أنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل، إلى أن أخذ منها مالاً عظيماً وجواهر نفيسة...، وقبض على جميع أمراء الدولة، وأخذ أموالهم وذخائرهم، ومات في حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس، سوى من قتل وغرّق من الأشرفية ﴿صنف من المماليك﴾ في البحر. ولم يكن له مع ذلك ميل إلى العلم، ولا مطالعة الكتب، إلا أنه كان يُجري على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات ﴿الرواتب﴾ من غير أن يخالطهم، ولم يخالط غيرهم، لمحبّته في العزلة، ورغبته في الانفراد، وملازمته للصمت، ومداومته على الوقار والسكون، وكان يحب العمارة، ويباشر الأبنية بنفسه، وعمّر بمصر ما لم يعمّره أحد من ملوك بني أيوب ".

كلمة حق

إن أقوال المقريزي من جانب، وسيرة السلطان الصالح بشكل عام من جانب آخر، تضع بين أيدينا خريطة متكاملة لشخصية هذا الرجل، وتوصلنا إلى أنه كان يتحلّى بخصال متميّزة، وأبرز ملامح شخصيته هي:

- الشجاعة والحزم والمهابة، والثقة بالنفس، وشدة السطوة.
- الصلابة في الموقف، والصبر على الشدائد، والثبات في الملمّات.
- الحنكة في مباشرة الأمور، والدهاء في حل المشكلات المعقدة.
- نشر الأمن والأمان بين الرعية، والاهتمام بالعمارة.
- الحرص على تحقيق القوة الاقتصادية للدولة.
- عزة النفس وعلوّ الهمة، والهيبة والوقار، والكِبْر والترفّع.
- الحياء، وعفّة النفس، والنفور من الفحش في القول.
- كثرة الصمت والسكون، وحب الانفراد والعزلة.
- الحرص على تقدير أهل العلم.

وهذه الخصال لا تدع مجالاً للشك في أن الصالح كان قائداً متميّزاً حقاً.

أما في ميادين السياسة فهو الحاكم القدير، والسياسي الخبير بتحديد الأولويات، البارع في إدارة الأزمات، الماهر في المناورات الدبلوماسية، يبني خططه بإحكام، وينفّذها بعناد، ولا يتردد في مراجعتها وتعديلها حسبما يقتضي الظرف والموقف.

وأما في ميادين الإدارة فهو الإداري الحازم، والاقتصادي البارع، يعرف أن ترك الأمور فوضى يدمر البلاد، وأنه لا قوة للدولة من غير اقتصاد قوي، ويُعنى بتعمير البلاد، كما أنه الراعي الحريص على أمن العباد، فيباشر الأمور بنفسه، ويضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولا يكثر الاعتماد على غيره، ولا ينصرف إلى ملذاته، ولا ينشغل بشهواته.

وأما في ميادين الحروب فهو المقاتل الشجاع، والقائد المحنّك، لا يستكين ولا يتهاون، لا يرعبه التهديد، ولا ينال منه الوعيد، يستعد للمعارك قبل وقوعها، ويجيد رسم الخطط الحربية، ويحسن توظيف القدرات القتالية، ولا يتردّد في محاسبة كل متهاون، وفي معاقبة كل متقاعس.

وأما على الصعيد الشخصي فهو الرجل غير الثرثار، وهو العفيف الحيّ المجلل بالوقار، يؤثر العزلة، ويترفّع عن الصغائر، له في النفوس هيبة، وفي القلوب إجلال.

وبهذه الخصال قاد الصالح سفينة الدولة إلى بر الأمان سلماً وحرباً.

المراجع

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/٦٠٩. ١٠/٢٧.
٢. أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص ٢١.
٣. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م، ١/٧٧٣ — ٧٧٤، ٧٨١ — ٧٨٢.
٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٥/٨٤ — ٨٦.
٥. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٣/٤٣٩ — ٤٦٢.
٦. الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص ١٧٦- ١٨٩.
٧. عباس إقبال الآشتياني: الوزارة في عهد السلاجقة، ص ٢٩.
٨. الدكتور عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، ص ٣١٦ — ٣١٧، ٥١٤ — ٥٢٢.
٩. الدكتور عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٣٩ — ١٤٠.
١٠. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول، القسم الثاني، ص ٢٨٤ - ٣٤٢.

وانظر:

- أرنست باركر: الحروب الصليبية.
- ر. سي. سميل: الحروب الصليبية.
- رنيه گروسية: الحروب الصليبية.
- ابن واصل: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب.
- وليم الصوري: الحروب الصليبية.

(١٣)

السلطان المعظَّم توران شاه الأيوبي

(قتل سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م)

منحدرات .. وقمم!

ها قد أمضيت نصف قرن من الزمان مع القراءة والمطالعة.

وها قد شرّقت مع المراجع قديمها وحديثها وغرّبت، بل: واستمتعت.

وها أنا ذا أتساءل: من هذه الرحلة الطويلة ماذا استفدت؟ وبماذا خرجت؟

الحق أني استفدت الكثير الكثير، وخرجت بالكثير الكثير.

عرفت أن المرء بالثقافة يهتدي إلى إنسانيته، ويتغلّب على نزعات التوحش.

وبالثقافة يكفّ عن أن يكون عَدَمياً، فيحدّد هويته، ويتحرر من كونه مِسخاً.

وبالثقافة يكفّ عن أن يكون جباناً، فيمتلك شجاعة الدفاع عن وجوده.

وعرفت أيضاً أن الأمم بالثقافة تنتقل من المنحدرات إلى القمم.

وبالثقافة تتغلّب الشعوب على الهزائم وتصنع الانتصارات.

وبالثقافة تتخلص من الضياع، وتصبح في مواقع الريادة.

بل عرفت أكثر...

عرفت أن قراءة التاريخ نصف الثقافة، وأنه لا ثقافة رفيعة من غير قراءة متأنّية للتاريخ، فكثيراً ما قرأت الأدب شعراً ونثراً، ولم أدرك حقيقة الأدب إلا بعد قراءة تاريخ الأدب والأدباء. وكثيراً ما قرأت الدين، فلم أفهمه على حقيقته إلا بعد قراءة تاريخ الأديان والدعاة. وكثيراً ما قرأت الفلسفة، فلم أفهمها حق الفهم إلا بعد أن قرأت تاريخ الفلسفة والفلاسفة، وقرأت العلوم فلم أفهمها على نحو صائب إلا بقراءة تاريخ العلم والعلماء، وقس على ذلك.

وتبيّن لي بعد هذه التجربة أن لقراءة التاريخ أربعة مستويات متكاملة:

- الأول هو معرفة الأحداث التي تتالت، أو تواكبت، في مراحل تاريخية معيّنة.
- والثاني هو ملاحظة الأحداث التي تكررت أو تماثلت في أزمنة وأمكنة مختلفة، وباتت تشكّل ظاهرة معيّنة تلفت الانتباه.
- والثالث هو القيام بتحليل موضوعي وواقعي شامل لتلك الظاهرة، ودراسة المناخات التي تشكلت فيها، سواء أكانت تلك المناخات بيئية، أم اقتصادية، أم اجتماعية، أم ثقافية، أم سياسية، أم إقليمية، أم عالمية.
- والرابع هو توظيف نتائج التحليل في توجيه مسيرة الحاضر، وتصحيح مساراته، ووضع البرامج والخطط للمستقبل.

وأعلم يقيناً أن الجمع بين هذه المستويات الأربعة، على الدوام، أمر صعب المنال، لكن كم يكون رائعاً أن نحرص- نحن قرّاء التاريخ- على ذلك قدر المستطاع! بلى، قد نُوفَّق، وقد لا نُوفَّق، ليست تلك هي المشكلة، وإنما المشكلة أن نبقى على الدوام دائرين في فلك المستوى الأول، وأراني مضطراً إلى القول بأننا حينئذ نكون هائمين على هامش التاريخ، ليس غير.

لماذا الشمال؟!

ولعلي أشرت سابقاً إلى بعض الظواهر التاريخية في شرقي المتوسط، منها على سبيل المثال أن كل فاتح وغاز قادم من الشرق كان يهمه أن يسيطر على كردستان، ليستطيع الاندفاع بعدئذ نحو آسيا الصغرى غرباً، ونحو بلاد الشام ومصر جنوباً. كما أن كل فاتح وغاز قادم من الغرب كان يهمّه أن يسيطر على كردستان، ليندفع من ثَمّ نحو قلب بلاد فارس، فالهند ووسط آسيا.

وقل الأمر نفسه في حركات الغزو من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، فالغزوات الآشورية، قبل الميلاد بعشرة قرون وأكثر، انطلقت من بلاد الرافدين، اخترقت كردستان، لتصل من بعدُ إلى أرمينيا ومناطق القوقاز الأخرى في الشمال، كما أن الفتوحات العربية الإسلامية، في القرن السابع الميلادي، سارت في الاتجاه نفسه، وعملت بكل وسيلة للهيمنة على كردستان، ولما انحدر السكيث من شمالي البحر الأسود، وغزوا الهضبة الآريانية في الجنوب، حوالي القرن التاسع قبل الميلاد على الأرجح، كان عليهم أن يمروا بكردستان، ويحتلوا أجزاء منها، وهذا ما فعله الملك الأرمني دي گران الثاني (حكم بين سنتي ٩٤ - ٦٩ ق.م)، حينما أنشأ إمبراطورية تمتد من القفقاس شمالاً إلى فينيقيا (لبنان) جنوباً.

وقد يقال: ما السبب في ذلك؟

ها هنا من الحكمة ألا نقع في فخ الغرور، ولا نزعم مثلاً أن كل خيرات العالم كانت متمركزة في كردستان ظهراً وبطناً، وأنه ما كان لجميع هؤلاء أن يستمروا في الحياة إلا بالسيطرة على كردستان، فالسبب الأبرز والأهم هو الجغرافيا السياسية (الجيوبوليتيك) ليس أكثر، وخلاصته أن موطن الكرد كانت تمتد من نهر الرَّسّ (آراس/ أراكس) على تخوم القوقاز شمالاً، إلى لُورستان وجبال بَخْتياري جنوباً، أما أمر وجود مواطن الكرد على تخوم القفقاس فهو حقيقة شهد بها أكسنوفان، قائد المرتزقة الإغريق العشرة آلاف، سنة (٤٠١ ق.م)، وشهدت به أحداث الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

ولو نظرنا في خريطة غربي آسيا، لأتضح أن موطن الكرد هذه لا تتاخم البحر الأسود شمالاً، ولا الخليج العربي جنوباً، لكنها تقترب من هذا وذاك، ولتبيّن أنها تمثل ثلاثة أرباع هذه المنطقة الشاسعة، وهذا يعني أن القسم الأعظم من سلاسل جبال زاغروس وجبال طوروس يقع في بلاد الكرد، بل إن هاتين السلسلتين تلتقيان معاً في شمالي كردستان، وفيهما تقع الممرات والمعابر التي تصل غربي آسيا (آسيا الصغرى، وبلاد الشام، وشبه الجزيرة العربية، والعراق) بقلب بلاد فارس، وبما وراء بلاد فارس من شعوب آسيا الوسطى، وشعوب شبه القارة الهندية، وشعوب الشرق الأقصى، من ناحية أخرى.

ذلك هو السبب وراء تلك الظاهرة التاريخية فيما نعلم.

والمعروف أن الدولة الزنكية التركمانية ورثت الدولة السَّلجوقية التركمانية، وأن الدولة الأيوبية الكردية ورثت الدولة الزنكية، ثم توسّعت في جميع الاتجاهات، ثم أطاح المماليك الأتراك بالأيوبيين، وانتشرت دولتهم تقريباً في الجغرافيا نفسها التي انتشرت فيها الدولة الأيوبية، حتى في اليمن، فالدولة الرسولية التي حكمت اليمن بعد الأيوبيين كان مؤسسوها أتراكاً من المماليك الأيوبيين، ثم حلّت دولة المماليك الشراكسة محل دولة المماليك الأتراك، ثم جاء دور الدولة العثمانية التركية.

والظاهرة التي أريد الوقوف عندها تتعلق بكردستان، فعلى امتداد ثمانية قرون، بدءاً من دخول السلاجقة إلى بغداد سنة (٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م)، وانتهاء بسقوط الدولة العثمانية حوالي سنة (١٩٢٢ م)، كان ما يهمّ حكّام هذه الدول الثلاث المتعاقبة على الدوام أمران اثنان:

- السيطرة غرباً وجنوباً على بلاد الشام مصر.
- السيطرة شرقاً وشمالاً على كردستان، جميعها أو بعضها.

وثمة ظاهرة ثانية تتفرع من الظاهرة السابقة، ألا وهي حرص السلاطين الأيوبيين على أن يكون الرجل الثاني في الدولة، على الأغلب، هو الذي يتولّى حكم كردستان شمالاً وشرقاً، في حين كان السلطان يتنقّل بين القاهرة دمشق.

وإليكم الأمثلة.

في عهد السلطان صلاح الدين كان أخوه الملك العادل هو حاكم كردستان معظم الأحيان، وظل كذلك في عهد كل من الملك الفاضل والملك العزيز ابني صلاح الدين حينما تنافسا على السلطنة، وفي عهد السلطان العادل نفسه أسند حكم كردستان إلى ابنه ووليّ عهده الملك

الكامل، وفي عهد السلطان الكامل أسند حكم كردستان إلى ابنه الملك الصالح، وفي عهد السلطان الصالح أوكل حكم كردستان إلى ابنه الملك المعظّم تَوْران شاه. ومرة أخرى نقول: كانت الجغرافيا السياسية وراء تكرار هذه الظاهرة، ولا شيء غير ذلك.

ودعونا نتوقف الآن عند المعظّم تَوْران شاه.

وصحيح أنه لا يرقى إلى مستوى جدوده وآبائه الأيوبيين في العبقرية السياسية والإدارية، لكنه لم يكن يخلو من العبقرية الحربية على أقل تقدير.

فماذا عنه؟

ظروف جديدة

كان للسلطان الصالح أربعة أبناء، لم يبق منهم حياً في حياته إلا تَوْران شاه، وهو معروف بلقب الملك المعظّم غياث الدين، وقد عيّنه السلطان الصالح نائباً عنه في حصن كَيْفا وديار بكر بكردستان، ومرّ في ترجمة السلطان الصالح أن السلطان العادل الثاني كان قد تولّى مقاليد السلطة في الدولة الأيوبية بعد وفاة والده السلطان الكامل سنة (٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م)، لكنه كان غِراً طائشاً لاهياً، فأزاحه أخوه الأكبر الصالح نجم الدين سنة (٦٣٧ هـ)، وتولّى حكم الدولة الأيوبية، وتصدّى في أواخر حياته للحملة الصليبية السابعة، وقد بدأت سنة (٦٤٧ هـ/١٢٤٨ م)، وكانت بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع.

ومرّ أيضاً أن السلطان الصالح ظل يدير دفّة القتال ضد الفرنج وهو على فراش الموت، وتوفي ليلة الاثنين نصف شعبان سنة (٦٤٧ هـ)، " **بعدما عهد لولده الملك المعظّم توران شاه، وحلّف له فخر الدين ابن الشيخ، ومُحسن الطواشي، ومن يثق به، وبعدما علّم قبل موته عشرة آلاف علامة، يُستعان بها في المكاتبات على كتمان موته، حتى يَقدم ابنه توران شاه من حصن كَيْفا** " (انظر المقريزي: السلوك).

إذاً لقد تدبّر السلطان الصالح الأمور حتى بعد وفاته، وهيّأ كل الظروف ليتولّى ابنه الوحيد مقاليد الأمور، فأخذ له البيعة من كبار القادة أولاً، ووقّع عشرة آلاف مرسوم على بياض، لاستعمالها عند اللزوم، كي لا يعلم أحد بوفاته، إلى حين قدوم المعظّم من حصن كيفا، وحرصاً على مزيد من الكتمان قام بغسله طبيب كان يتولّى أمر علاجه، وحُمل في تابوت إلى قلعة الروضة في القاهرة، وأُخفي خبر وفاته عن الناس، ونُقل جثمانه بعدئذ إلى تربته بجوار المدارس الصالحية في القاهرة.

وكان السلطان الصالح متعلقاً بزوجته الأثيرة شجر الدُرّ، حسبما يسمّيها المقريزي، وهي تركية، وقيل: أرمنية، ولما توفّي السلطان أحضرت شجر الدرّ الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشي جمال الدين محسن، وكان هذا الأخير أقرب الناس إلى السلطان، ويقوم بأمر مماليكه وحاشيته، وأعلمتهما بوفاة السلطان، وأوصتهما بالكتمان خوفاً من الفرنج، واتفق الثلاثة على القيام بتدبير أمور الحكم إلى حين قدوم الملك المعظّم. ولم تكتف شجر الدر بهذه الخطوة، وإنما أحضرت الأمراء الذين في المعسكر، قال المقريزي في (السلوك):

" وقالت لهم: إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظّم غياث الدين توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطاناً بعده، وللأمير فخر الدين يوسف شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر، والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة. فقالوا كلهم: سمعاً وطاعة، ظناً منهم بأن السلطان حيّ، وحلَفوا بأسرهم، وحلّفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية ".

وكانت الخطوة الثالثة هي أن القيادة المشتركة- وهي تركية صرف- أحضرت مرسوماً من المراسيم التي سبق للسلطان الصالح أن وقّعها، وكتبت فيه على لسان السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي الهَذْباني، نائب السلطان على القاهرة، أن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها في العاصمة، فأشرف كل من قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن السّنجاري، والقاضي بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء، على تحليف الأعيان، وكانت القيادة المشتركة تصدر المراسيم باسم السلطان، ويكتبها لهم خادم للسلطان اسمه سُهَيل، يشبه خطه خط السلطان، يقول المقريزي في (السلوك):

" ومشى هذا على الأمير حسام الدين نائب السلطنة مدة، إلى أن أوقفه بعض أصحابه على اضطراب في العلامة، يخالف علامة السلطان، ففحص عن خبر السلطان من بعض خواصّه الذين بالمعسكر، حتى عرف موته، فاشتد خوفه من الأمير فخر الدين، وخشي أن يتغلّب على المُلك، فاحتاط لنفسه ".

وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الدولة الأيوبية تخرج فيها القيادة العليا عن أيدي الفريق الكردي، وتستقر في أيدي مماليكهم الترك، لذا كان الأمير الكردي حسام الدين مصيباً في خوفه من تسلّط الأمير المملوكي فخر الدين على مقاليد الحكم، وصحيح أنه نائب السلطان على العاصمة، لكنه بعيد عن مركز صنع القرار، كما أن القوة الضاربة هي في أيدي فخر الدين وسائر قادة المماليك.

وراح الأمير فخر الدين يمارس السلطة، فأطلق المسجونين، وتصرّف في الأموال، وأهدى الخلع إلى كبار القادة، وأرسلت القيادة المشتركة الفارس أقْطاي- وهو قائد المماليك البحرية- لإحضار الملك المعظّم من حصن كيفا في كردستان الشمالية، ولم يقف الأمير حسام الدين مكتوف اليدين، وإنما أرسل مبعوثاً من عنده إلى الملك المعظّم، موضحاً له أن من المصلحة الإسراع إلى مصر لتولّي مقاليد الحكم، " **ومتى تأخّر فات الفوت، وتغلّب الأمير فخر الدين على البلاد** ".

وعمد الأمير حسام الدين إلى خطوة احتياطية أخرى.

فمن ناحية راح يجامل الأمير فخر الدين في مراسلاته، فيكتب إليه فخر الدين بصيغة " **من فخر الدين الخادم يوسف** "، فيكتب إليه حسام الدين بصيغة " **المملوك أبو علي** ".

ومن ناحية أخرى نقل الملك المُغيث عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل من عند عمّات أبيه، من القاهرة، إلى قلعة الجبل، ووكّل به من يحتاط عليه، ولا يسلّمه لأحد، خوفاً من أن يقيمه الأمير فخر الدين سلطاناً بدلاً من المعظّم، ويستولي على الأمر باسمه.

وهكذا بات واضحاً أن الجناحين الكردي والتركي كانا يخوضان صراعاً خفياً وخطيراً، ولم يكن الجناح الكردي يفتقر إلى العقول الراجحة والقيادات الذكية، لكن ما النفع؟! فقد سبق أن فقد الصالح ثقته في أمراء الكرد، وفي المماليك الصالحية والأسدية، فأبعدهم جميعاً، ووضع ثقته في مماليكه الجدد، فقرّبهم، لا بل منحهم المناصب الرفيعة والسلطات الواسعة، قال المقريزي في (السلوك):

" **فلما استولى ﴿الصالح﴾ على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك، وجعلهم معظم عسكره، وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه، واعتقلهم، وقطع أخبازهم ﴿رواتبهم﴾، وأعطى مماليكه الإمريات ﴿المناصب العليا﴾، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه، وسمّاهم البحرية، لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل** ".

توران شاه سلطاناً

وصل خبر وفاة السلطان الصالح إلى ولده الملك المعظّم وهو في حصن كيفا، فانطلق في خمسين فارساً من حرسه الخاص، منتصف شهر رمضان سنة (٦٤٧ هـ)، وكان خصومه في الموصل وحلب يتربّصون به الدوائر، فكمنوا له الكمائن، لكنه غيّر طريقه، وانحدر نحو الجنوب، واجتاز نهر الفرات عند مدينة عانه (في شرقي العراق الآن)، وخاطر بنفسه، فسلك طريقاً في الصحراء متوجّهاً إلى دمشق، وكاد يهلك من العطش.

وخلال تلك الفترة كانت القيادة المملوكية المشتركة تدير الأمور، وتُوهم أمراء الجيش بأن السلطان مريض، وغير مسموح لأحد بالوصول إليه، غير أن الفرنج علموا خبر وفاة السلطان من جواسيسهم، فخرجوا من دمياط فرساناً ورجّالة، وبراً وعبر نهر النيل، للانقضاض على المعسكر الأيوبي في المنصورة، والتوجه من بعد إلى القاهرة.

قال المقريزي في (السلوك):

" فورد في يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب فيه حضّ الناس على الجهاد، أوّله: (انفرُوا خِفافاً وثِقالاً وجاهِدُوا في سبيلِ اللهِ بأموالِكمْ وأنفسِكمْ ذلكمْ خيرٌ لكمْ إنْ كنتمْ تَعْلَمونَ). وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمّة، فقرئ على الناس فوق منبر جامع القاهرة، وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف، وارتجّت القاهرة ومصر، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكّن الفرنج وأخذهم البلاد، مع موت السلطان ".

وكان أفراد البيت الأيوبي في بلاد الشام قد هبّوا كعادتهم لصد الهجوم الفرنجي، ولا سيما أبناء الملك الناصر داود صاحب الكرك، وأخواه الملك القاهر والملك المُغيث، ودارت رحى المعارك بين الجيشين الأيوبي والفرنجي براً وبحراً في النيل وفروعه، وشاركت الجماهير المصرية في الحرب، وصارت تتخطّف الفرنج من كل حدَب وصوب، قال المقريزي في (السلوك):

" وكانوا يتحيّلون في خطفهم بكل حيلة، حتى إن شخصاً أخذ بطّيخة أدخل فيها رأسه، وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج، فظنوه بطّيخة، فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها إذ خطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين ".

على أن فرقة من الفرنج فاجأت المعسكر الأيوبي من جهة غير متوقّعة، وأخذت الجيش على حين غرة، وكان الأمير فخر الدين في الحمام، فخرج على عجل لينظر ما الذي يجري، وليصدر الأمر إلى الجند بالمواجهة، فحاصره بعض فرسان الفرنج، وفرّ من كان معه من حرسه، فدافع عن نفسه، وسقط قتيلاً.

وما إن قُتل الأمير فخر الدين حتى دبّت الفوضى بين الناس، فتفرقوا يميناً وشمالاً، واقتحم الفرنج المنصورة، وكادوا يسيطرون على القصر السلطاني، وسرعان ما شنّ المماليك هجوماً معاكساً بقيادة المملوك بيبرس البُنْدُقَداري- هكذا ضبطه المقريزي- فأزاحوهم عن القصر،

وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمئة من قادتهم وشجعانهم، وحلّت الهزيمة بهم، ووصلت أخبار النصر إلى القاهرة، فانتشرت الزينات والأفراح فيها.

أما الملك المعظّم توران شاه فأفلح في اجتياز بادية الشام، ووصل إلى دمشق، ونزل بقلعتها، وقام نائب دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور (تركي) بخدمته، وحلف له الأمراء، وأعلن سلطاناً، وخلع هو بدوره على الأمراء كما هي العادة، ومنحهم أموالاً جزيلة، إلى درجة أنه أنفق جميع ما كان في قلعة دمشق من المال، وهو ثلاثمئة ألف دينار، واستدعى من قلعة الكرك في الأردنّ مالاً آخر وأنفقه، قال المقريزي في (السلوك):

" ولأربع مضين من شوّال سقطت البطائق (الرسائل عن طريق حمام الزاجل) إلى المعسكر والقاهرة، بوصول الملك المعظّم إلى دمشق، وسلطنته بها، فضُربت البشائر بالمعسكر والقاهرة ".

وأقرّ السلطان المعظّم الأمير جمال الدين على نيابة السلطنة في دمشق، واتجه إلى مصر، فخرج قاضي القضاة بدر الدين السِّنجاري إلى غزة لاستقباله، ووفد معه إلى مصر، كما خرج الأمير حسام الدين يتلقّاه في الصالحية، ونزل المعظّم في قصر أبيه سلطاناً، ومن يومئذ أُعلنت وفاة السلطان الصالح، ولم يكن أحد قبل ذلك اليوم يتحدّث عن وفاته. وتسلّم المعظّم مملكة مصر، وخلع على الأمير حسام الدين خلعة سنيّة، وأهداه مِنطقة (نطاق للفروسية) وسيفاً وثلاثة آلاف دينار مصرية.

ثم توجّه المعظّم من الصالحية إلى المنصورة، حيث قيادة الجيش الأيوبي، وتلقّاه أمراء المماليك، **" فنزل في قصر جده وأبيه، يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة، فأول ما بدأ به أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيراً من مخلّفه، بدون القيمة، ولم يعط ورثته شيئاً، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار، وأخذ يسبّ فخر الدين "، وينـدّد بالإجراءات التي اتخذها، ومنها إطلاق المحابيس، وإنفاق الأموال، ويقول: " أيش ترك لي"؟!** (انظر المقريزي: السلوك).

إن موقف المعظّم من فخر الدين وورثته وتصرفاته يؤكد أنه كان غاضباً عليه، وأن بعض المخلصين له- ولعل منهم الأمير حسام الدين وقاضي القضاة السنجاري- كانوا يطلعونه على نوايا فخر الدين، وينقلون إليه الصورة الكاملة لما عليه المماليك من تحكّم في مقاليد الأمور، وتهميش للفريق الكردي، ولعلهم شجّعوه على تصحيح الأمور، وقطع الطريق على الطموحات المملوكية.

موقف صعب

إذاً وجد المعظّم نفسه في موقف صعب جداً، وكان عليه أن يخوض معركتين خطيرتين معاً: الأولى حرب خارجية ضد الفرنج الطامعين في السيطرة على مصر. والثانية معركة داخلية، تتعلق بكبح جماح زوجة أبيه شجر الدر، وتخليص المناصب القيادية العليا من أيدي المماليك البحرية خاصة، وظل مع ذلك يدير الأمور، ويصدر الأوامر، ويستقبل العلماء والفقهاء، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسراج الدين الأُرْمَوي (نسبة إلى مدينة أُورمية)، ويجلس معهم ويناظرهم في المسائل الفقهية والعلمية، كما كان يفعل جده الكامل.

وبعد الهزيمة التي حلّت بالفرنج، في هجومهم على المنصورة، جزع الملك لويس التاسع، لكنه تمالك، وراح الفرنج يعزّزون مواقعهم، ويتزوّدون بمزيد من القوات والإمدادات، إلا أن القيادة الأيوبية طوّرت بدورها طرائق المواجهة، إذ أمر توران شاه ببناء عدد من المراكب، وحُملت مفصّلة على الجمال إلى بحر المحلّة، ثم أُنزلت في الماء، وشُحنت بالمقاتلين، ولم تلبث تلك المراكب أن انقضّت على المراكب الفرنجية وأخذتها أخذاً وبيلاً، وذكر المؤرخون أن السفن الأيوبية استولت على اثنتين وخمسين سفينة للفرنج كانت محمّلة بالميرة والمؤن، وبذلك تمّ قطع الطريق على السفن الفرنجية، وحيل بينهم وبين قاعدتهم في دمياط، قال المقريزي في (السلوك):

" **فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون عليهم، وطمعوا فيهم** ".

وفي سنة (٦٤٨ هـ) اضطر الفرنج إلى التراجع نحو دمياط، " **فركب المسلمون أقفيتهم** " كما قال المقريزي، وأنزلوا بهم الخسائر الفادحة قتلاً وأسراً، فبلغ عدد القتلى عشرة آلاف في قول المقلّ، وثلاثين ألفاً في قول المكثر، وبلغ عدد الأسرى، من الفرسان والرجّالة والصنّاع والسُّوقة، مئة ألف إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى، في حين كانت خسائر المسلمين نحو مئة رجل.

لويس التاسع أسيراً

وفي سنة (٦٤٨ هـ) لم يبق أمام لويس التاسع سوى أن يرجع برجاله من حيث أتى، وشرع الفرنج يستعدّون للانسحاب، فأحرقوا ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم، ليفرّوا إلى دمياط، لكن عملية الانسحاب لم تكن سهلة، وأدرك لويس التاسع أن جيشه سيتعرّض لمطاردة قاسية من الجيش الأيوبي، لذلك لجأ قبل الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات، على أن يترك

للجانب الأيوبي دمياط مقابل أخذ بيت المقدس، لكن توران شاه رفض العرض رفضاً مطلقاً، وكان يعرف ما يعانيه الفرنج من ضعف وعناء ونقص في القوات والذخائر.

وبدأ الفرنج بالتراجع نحو دمياط، وحُمل المرضى في السفن، ولم تكن هذه عملية انسحاب، وإنما كانت عملية هروب، وكان الجيش الأيوبي يسير في أعقابهم، ويهاجمهم من كل ناحية، ولم تكد مقدمة الجيش الفرنسي تصل إلى فارِسْكُور حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه، وكان المسلمون حينذاك يحيطون بهم، ويتخطّفونهم طوال الطريق قتلاً وأسراً.

وبعد أن تأكد للجانب الأيوبي سوء حال الفرنج قرر أن يشنّ عليهم هجوماً عاماً عند فارس كور، وكان الإعياء والمرض قد أرهقا الملك لويس التاسع، فلم يستطع القتال، وقاده أحد رجاله ليستريح في (مِنْية أبي عبد الله)، وهي إحدى قرى شَرِمْساح، وانقضّ الجيش الأيوبي على الفرنج عند فارس كُور، فحلّت الهزيمة بالجيش الفرنجي، ووقع بأجمعه تقريباً بين قتلى وأسرى، ووقع لويس التاسع نفسه في الأسر، فسيق مكبّلاً بالأغلال إلى المنصورة، وسجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعهد بحراسته إلى الطواشي صَبِيح المعظّمي، وذكر الصاحب جمال الدين مطروح أسر الملك لويس في قصيدة له، جاء فيها:

قل للفرنسيس إذا جئـته
مقـالَ نُصحٍ من قؤول نصيحْ
دارُ ابن لقمـانَ على حالها
والقيدُ باق، والطواشي صَبيحْ

ولم ينصبّ اهتمام المسلمين على استرداد دمياط وحدها، بل طمحوا إلى الاستيلاء على جميع الممتلكات الفرنجية في بلاد الشام، عن طريق الضغط على لويس التاسع، وحاول توران شاه تهديده لانتزاع الاعتراف منه، لكن لويس التاسع أصرّ على أنه لا سلطة له على الفرنج وممتلكاتهم في بلاد الشام.

واغتاظ توران شاه من موقف لويس فصمّم على غزو مناطق الفرنج في بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح مع الفرنج، وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي نفسه، ووافق الملك لويس التاسع على تلك الشروط، وأُبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه على أن يستمرّ الصلح بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

مقدمات الانهيار

بعد تحقيق النصر على الفرنج رحل السلطان المعظّم من المنصورة، ونزل بفارس كور، وضرب بها الدهليز السلطاني، وعمل فيه برجاً من الخشب، وفي الوقت نفسه كانت الخلافات بينه وبين المماليك بدأت تظهر على السطح، وكان انشغال الفريقين بأحداث المعارك ضد الفرنج يغطيها، وشرع كل فريق يتربّص بالآخر، ويعمل لإزاحته جانباً، تطبيقاً لمقولة: " تعشّ به قبل أن يتغدّى بك "

ويبدو أن الفريق الكردي كان قد انتعش بوصول توران شاه إلى السلطة، وبات يستجمع قواه كي يتصدّى للفريق المملوكي التركي، وأفهم هذا من خبر ساقه المقريزي في (السلوك)، فقد ذكر:

" أن السلطان المعظّم أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهمّاته، واطّرح الأمراء والأكابر أهل الحلّ والعَقد، وأبعد غلمان أبيه وترابيه ﴿لعل المراد: من اقتناهم الصالح من المماليك وربّاهم﴾، واختص بجماعته الذين قدموا معه، وولاّهم الوظائف السلطانية، وقدّم الأراذل، وجعل الطواشي مسروراً- وهو خادمه- أستادار السطان ﴿مستشاره ومتولّي أموره﴾، وأقام صبيحاً- وكان عبداً حبشياً فحلاً- أمير جاندار ﴿حارس خاص﴾، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن يُصاغ له عصا من ذهب، وأساء السلطان إلى المماليك وتوعّدهم، وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطّع، ويقول: هكذا أفعل بالبحرية. ويسمّي كل واحد باسمه، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون هذا الفعل من أبيه، وكذلك فعل بحظايا أبيه ".

وقال المقريزي في هذا الصدد أيضاً في (السلوك):

" وصار مع هذا أهل الحلّ والعقد، والأمر والنهي، لأصحابه الذين قدموا معه، فنفرت قلوب البحرية، واتفقوا على قتله ".

فمَن هم هؤلاء الذين سمّاهم المقريزي (جماعته) تارة، و(أصحابه الذين قدموا معه) تارة أخرى؟! ولماذا لا يصرّح هو، أو المصدر الذي نقل منه، بهوية تلك الجماعة؟! الأرجح أن جماعة توران شاه وأصحابه الذين قدموا معه من حصن كيفا كانوا من الكرد، ويستفاد من سير الأحداث أن الفريق الكردي، بقيادة توران شاه، كان عازماً على القيام بانقلاب جذري في قمة هرم السلطة، وإعادة النفوذ الكردي إلى سابق عهده في الدولة، وأنهم وصلوا في القرار إلى نقطة اللاعودة، ويستفاد أيضاً أن الفريق المملوكي كان يحصي على الفريق الكردي أنفاسه، وكان جواسيسهم من الخدم والحشم ينقلون إليهم تفاصيل ما يتفوّه به المعظّم وأنصاره في جلساتهم الخاصة.

والمهم أن الفريق الكردي كان يخوض معركة خاسرة من جميع الأوجه.

وإليكم الأسباب فيما أعتقد.

● أولاً: لأن عدد الفريق الكردي كان قليلاً جداً، فقد مرّ أن الذين قدموا مع المعظّم من حصن كيفا كانوا خمسين فقط، ولنفترض أن كرداً آخرين انضموا إليه من أمثال الأمير حسام الدين وغيره، ومع ذلك يبقى العدد ضئيلاً إزاء آلاف المماليك، والعدد مهمّ جداً في هذه الأحوال، ثم إن هذا الفريق مع قلّته لم يكن متجانساً، ففيهم الطواشي من أمثال مسرور، والعبد من أمثال صبيح، كما أنه لم يكن متكاتفاً متضامناً، والدليل أنه لما هاجم المماليك المعظّم بقي وحيداً.

● ثانياً: كان الكامل والصالح قد فكّكا **القوة الكردية في** الجهازَين القيادي والإداري بمصر خاصة، وأبعدا الكرد عن مراكز صنع القرار، **وأحلا محلهم المماليك**، فتسلّم هؤلاء المناصب العليا، ورتّبوا أتباعهم في المناصب الوسطى **والدنيا، وصنعوا** قاعدة عريضة مناصرة لهم على الصعيدين العسكري والإداري، **وهذا أمر** كان **يفتقر** إليه الفريق الكردي منذ عقود.

● ثالثاً: كان **الفريق الكردي يفتقر** إلى قيادة واعية ناضجة، فالمعظّم شاب شجاع ومقدام، لكنه غرّ، **وغير خبير بإدارة الصراعات** السياسية الداخلية، كما أنه يفتقر إلى الحنكة والدهاء، **ليس هذا فحسب، وإنما كان متهوّراً**، يرتجل قرارات طائشة، ويبوح بالأمور الخطيرة أمام الخدم والحشم، ويبدو أنه كان مستبداً في **اتخاذ الإجراءات** الانقلابية، إذ لا نجد للأمير حسام الدين الهَذْباني مثلاً موقعاً عملياً **في هذه الخطة، وهو الرجل** الحكيم **وصاحب** الخبرة الطويلة في التعامل مع المماليك، وبعبارة أخرى: لم يقم **المعظم بتشكيل** غرفة **عمليات لإدارة** الأزمة، كما يقال في اللغة السياسية المعاصرة، هذا **في حين كان قادة المماليك** قد **رصّوا** صفوفهم، وشكّلوا قيادة عليا (لجنة مركزية بلغة عصرنا)، وكانت تلك القيادة تتألف من: عزّ الدين أَيبَك، وفارس الدين أَقْطاي، وبيبرس البندقداري، وقُطُز.

● رابعاً: اتخذ المعظّم تدابير طائشة، وقام بسياسات قاصرة، فازداد موقفه ضعفاً، وأوجد مناخات معادية تماماً له، منها على سبيل المثال أنه نفّر منه أبرز أركان الفريق الكردي، وفي مقدمتهم كبار البيت الأيوبي، فأخرج ابن أخيه الملك المُغيث عمر ابن العادل من قلعة الجبل في القاهرة إلى قلعة الشُّوبَك في الأردن، واعتقله بها، وأبعد عمّه الملك السعيد فخر الدين من مصر إلى دمشق، وأمر نائبه جمال الدين باعتقاله هناك، ولا ريب أنه خسر بهذه التدابير تعاطف

البيت الأيوبي وأنصارهم، بل حوّلهم إلى ناقمين وأعداء، وهذا ما لا يفعله عاقل، دعك من حكيم، في أوقات المحن.

- خامساً: أمر المعظّم الأمير حسام الدين، نائبه في القاهرة، بالحضور إلى المعسكر في فارس كور، وعزله، وأقام بدلاً منه جمال الدين أقوش، وهو مملوك تركي، والأرجح أنه كان من المماليك الصلاحية أو الأسدية الذين أزاحهم السلطان الصالح، ومؤكد أنه لم يكن من البحرية، وأحسب أن هذا الإجراء كان من أكثر تدابير المعظّم طيشاً، وأخطر ما في الأمر أنه خسر قدرات الأمير حسام الدين وخبراته بكواليس السياسة في مصر حينذاك، قال المقريزي في (السلوك): "ووصل الأمير أبو علي إلى المعسكر، فنزل به مُطّرَح الجانب، بعدما كان عُدّة الملك الصالح وعمدته ".
- سادساً: أعلن المعظّم الخصومة مع شجر الدر، زوجة أبيه، قال المقريزي في (السلوك): " وبعث المعظّم إلى شجر الدرّ يتهدّدها، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر. فداخلها خوف كبير، لما بدا منه الهوج والخفّة، وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته في حقه، من تمهيد الدولة، وضبط الأمور حتى حضر تسلّم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها، فأنفوا ﴿غضبوا﴾ لها، وحنقوا من أفعال السلطان". وكانت الحكمة تقتضي ألا يثير توران شاه المواجهة ضد شجر الدر، وكان عليه أن يكسبها إلى جانبه، ولا سيما أنها أخلصت في تنفيذ وصية زوجها السلطان الصالح بتولية المعظم الحكم، وقامت بتدابير تدل على الذكاء والحزم، وكان من الممكن للمعظم الإفادة من قدراتها وخبرتها بدل تحويلها إلى خصم.
- سابعاً: قيام المعظّم بتبذير الأموال، وهذا أمر عهدناه فيه منذ أن وصل إلى دمشق، وكان في ذلك مخالفاً تماماً للسياسات الاقتصادية التي اتبعها كل من والده الصالح، وجده الكامل، والجد الكبير السلطان العادل. ومعلوم أن المال قوة، بل هو قوة شديدة الأهمية، وينبغي أن يكون الحاكم حريصاً عليه، عارفاً بكيفية إنفاقه على الوجه الصائب.

مقتل توران شاه

إذا جمعنا هذه الأسباب بعضها إلى بعض اتضح أن المعظم ومن معه كانوا يسيرون نحو النهاية بخطا سريعة جداً، وأن الفريق المملوكي كان يمتلك الكثير من عوامل الانتصار، لذلك بادر هذا الفريق إلى التحرك بسرعة، وكانت ساعة الصفر في يوم الاثنين، السادس عشر من

شهر المحرّم، سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م)، وكانت العادة أن يُمدّ السماط السلطاني كل يوم، ويحضر كبار الأمراء والقادة لتناول الطعام معه، ولندع المقريزي يصف المشهد في (السلوك):

" وما هو إلا أن مُدّ السماط، بعد نزوله بفارس كور، في يوم الاثنين سادس عشر المحرّم، وجلس السلطان على عادته، تقدّم إليه أحد من البحرية، وهو بيبرس البندقداري، الذي صار إليه مُلك مصر، وضربه بالسيف، فتلقّاه المعظّم بيده، فبانت أصابعه، والتجأ إلى برج الخشب الذي نُصب له بفارس كور، وهو يصيح: من جرحني؟ قالوا: الحشيشة ﴿الحشّاشون﴾. فقال: لا والله، إلا البحرية! والله لا أبقيتُ منهم بقيّة! واستدعى المزيّن ﴿لعله المرّض﴾ ليداوي يده. فقال البحرية بعضهم لبعض: تمّموه، وإلا أبادكم. فدخلوا عليه بالسيوف، ففر المعظّم إلى أعلى البرج، وأغلق بابه، والدم يسيل من يده. فأضرموا النار في البرج، ورموه بالنشاب، فألقى نفسه من البرج، وتعلّق بأذيال الفارس أقْطاي ﴿كبير قادة البحرية﴾، واستجار به، فلم يُجِره. ومرّ المعظّم هارباً إلى البحر ﴿النيل﴾، وهو يقول: ما أريد مُلكاً! دعوني أرجع إلى الحصن ﴿حصن كيفا﴾! يا مسلمين! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني؟! هذا وجميع العسكر واقفون، فلم يجبه أحد، والنشاب يأخذه من كل ناحية، وسبحوا خلفه في الماء، وقطّعوه بالسيوف قطعاً، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً، وفرّ أصحابه واختفوا. وتُرك المعظّم على جانب البحر ثلاثة أيام، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة ﴿المستعصم بالله﴾، فحُمل إلى ذلك الجانب ودُفن، فكانت مدة ملكه أحداً وسبعين يوماً "

إذاً فالخطّة كانت مدبّرة، وكان المماليك قد اتخذوا القرار، ودفع توران شاه ثمن تدابيره غير الحكيمة، وثمن هوجه وسياساته المتسرّعة، ويصحّ فيه وفي أمثاله قولُ الشاعر ابن زُرَيْق البغدادي:

أُعطيتَ مُلْكاً، فلم تُحسِنْ سياستَه
وكلُّ من لا يسوسُ المُلْكَ يُحرَمُهُ

[إضاءة هامة

ولعل ما أورده المقريزي حول شخصية المعظم يترك لدينا انطباعاً بأن الرجل كان رديئاً بصورة فظيعة، فقد ذكر المقريزي أن السلطان الصالح لم يكن على وفاق مع ابنه المعظّم، وما كان يراه أهلاً للحكم أصلاً، وقال بهذا الصدد في (السلوك):

" وقيل: إنه لم يعهد إلى أحد بالمُلك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبي علي ﴿الهذباني﴾: إذا متّ لا تسلّم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه، فإنه ﴿الصالح﴾ كان يعرف ما في ولده المعظّم توران شاه من الهوج ".

وها هنا لا بد من أن نكون على حذر من كلمة (قيل!)، فهي تعني على أقل تقدير أن الخبر نوع من الإشاعة، وليس موثوقاً منه، ومع هذا لا أزعم أن المعظّم كان مبرّأ من العيوب، أو أنه كان في مستوى والده الصالح وجده الكامل من حيث الكفاءة والحنكة، وما سردناه من التدابير التي اتخذها دليل على أنه كان يتصرف بحماقة أحياناً، ومع ذلك ثمة أمور أربعة تقوّي عندي أن الرجل تعرّض لحملة تشويه شنعاء ومنظّمة، وخاصة بعد مقتله.

- <u>الأول</u>: أن السلطان الصالح، قبيل وفاته، عهد بالسلطنة إلى المعظّم، وطلب من كبار قادة المماليك وغيرهم أن يحلفوا على ذلك، وأنه وقّع عشرة آلاف مرسوم على بياض، لتتدبّر حاشيته أمور الدولة إلى حين قدوم المعظم من حصن كيفا، مع الانتباه إلى أن المقريزي أورد هذا الخبر من غير أن يبدأها بالكلمة التشكيكية (قيل!)، وهذا كله يتناقض مع ما (قيل) حول عدم رغبة الصالح في توريث ابنه أمر السلطنة، وأنه أوكل الأمر إلى المستعصم بالله.

- <u>والثاني</u>: سبق أن قال المقريزي في توران شاه في (السلوك)، حينما قدم إلى مصر: " **وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع العلوم، وكان السلطان المعظم قد مهر في العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول، وكان جدّه الملك الكامل يحبه لميله إلى العلم، ويلقي عليه من صغره المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجلسه، ولازم المعظّم الاشتغال إلى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفّة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء** ". ومن يكون هذا شأنه مع العلم والعلماء لا يكون امرأ رديئاً إلى الدرجة التي قد نظنها.

- <u>والثالث</u>: أن المقريزي عاش بين سنتي (٧٦٦ – ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ – ١٤٤٢ م)، وهذا يعني أنه عاش شطراً من حياته في عهد الدولة المملوكية التركية (٦٤٨ – ٧٨٣ هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨١ م)، وعاش الشطر الآخر من عمره في عهد الدولة المملوكية الشركسية (٧٨٤ – ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ – ١٥١٦ م)، وقد قضى عليها السلطان العثماني سليم الأول، وكان السلاطين الشراكسة في الأصل مماليك لسلاطين المماليك الأتراك، أي أنهم كانوا امتداداً ثقافياً لهم، وإذا أخذنا في الحسبان أن مقتل توران شاه كان سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م)، فذلك يعني أن بين كتابات المقريزي وبين الأحداث التي يرويها ما يزيد على قرن من الزمان، وأنه كان يستقي معلوماته مما روّجته وأشاعته الدولة المملوكية الأولى على الأقل.

● **والرابع**: إذا أخذنا في الحسبان أن توران شاه كان خصماً شرساً وعنيداً للمماليك، وأنهم قتلوه بكيفية لا تخلو من حقد شديد، ومن قسوة بالغة كما مرّ، فمن الطبيعي أن تعمد الآلة الإعلامية المملوكية إلى تسويد سيرة توران شاه، وإلى الإشادة بسيرة الحكام الجدد، وهذا واضح في الكيفية التي يورد بها المقريزي، أو من نقل عنهم، أخبار كل من توران شاه والمماليك، فهو إزاء الأول لا يخلو من تحامل، وإزاء الآخرين لا يخلو من مجاملة.

وللتأكد من أمر التحامل والمجاملة يكفي أن نستعرض الأخبار التي أوردها المقريزي نفسه حول غدر المماليك فيما بينهم، وفتك بعضهم ببعض الآخر بطرائق دنيئة وممجوجة، وخذ على سبيل المثال مقتل عز الدين أيبك بأمر من زوجته شجر الدر في الحمّام، إذ أخذ بعض رجالها بخناقه، وآخر بخصيتيه، إلى أن قتلوه (انظر المقريزي: السلوك).

ومنها أن الملك المنصور ابن المعز- وقد تولّى الحكم بعد أبيه- نقل شجر الدر إلى أمه زوجة أيبك السابقة، " **فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت، ثم ألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها، ثم دفنت بعد أيام، وقد نتنت وحُملت في قفّة** " (انظر المقريزي: السلوك).

ولاحظوا أن المقريزي سريع إلى وصف أولئك العامة بالأراذل، في حين يلتزم الصمت إزاء زوجة المعز وابنه ومماليكه الذي فعلوا بشجر الدر تلك الأفاعيل البشعة، وهناك كثير من الأمثلة على هذه السلوكيات السادية الغريبة، ولو نبشنا تاريخ الأيوبيين نبشاً لما وجدنا فيه ما يقاربها، وليس ما يماثلها بأي شكل من الأشكال.

محاولة يائسة

بعد مقتل توران شاه اختار المماليك شجر الدر سلطاناً لحكم البلاد، وتزوّجها المملوك عز الدين أيبك التركماني، قال المقريزي في (السلوك): "**ووصل الخبر بذلك إلى بغداد، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كاتباً إلى مصر، وهو ينكر على الأمراء، ويقول لهم: إن كانت الرجال قد عَدِمت عنكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً** ". فقررت القيادة المشتركة أن يكون عز الدين أيبك التركماني هو السلطان بدلاً من شجر الدر، وكان ذلك سنة (٦٤٨ هـ/١٢٥٠م).

وها قد ربح المماليك النصر في المعركة الداخلية ضد الأيوبيين، وبقي عليهم أن يقطفوا ثمار الانتصار في المعركة الخارجية ضد الفرنج، لذا بدأوا المفاوضات من جديد مع الفرنج، وناب عنهم

الأمير الكردي حسام الدين الهَذْباني لرجاحة عقله، ووافق المماليك أخيراً على إطلاق سراح الملك لويس التاسع وأمرائه مقابل جلاء الفرنج عن دمياط، وفكّ أسر من لديهم من المسلمين، بشرط ألا يقصدوا سواحل الإسلام مرة أخرى، وتعهّد المماليك من جانبهم بإطلاق سراح الأسرى الفرنج، وكان عددهم (١٢١١٠)، وحُدّد أجل الصلح بعشر سنوات، وفي صفر سنة (٦٤٨ هـ/مايو- أيار ١٢٥٠ م) تسلّم المسلمون دمياط، وأُطلق سراح الملك لويس التاسع، بعد دفع مقدّم الفدية المتّفق عليها،

وكان من الطبيعي أن تثور ثائرة الملوك الأيوبيين في بلاد الشام، وأن يغضب مؤيدوهم من الأمراء القيْمَرية الكرد في دمشق، وقام الجميع بمحاولة يائسة لاسترداد المُلك المسلوب، وكانت المحاولة بقيادة صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن العزيز محمد ابن الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب، ومعه الملك المغيث صاحب الكرك والشوبك، والملك السعيد صاحب غزّة، بل وقف مع الأيوبيين قليل من المماليك المنافسين للبحرية، ولا ريب في أنهم كانوا من المماليك الصلاحية والأسدية الذين خسروا نفوذهم في عهد السلطان الصالح أولاً، وبعد استئثار البحرية بالسلطة ثانياً.

وإزاء هذه الأخطار لجأ المماليك إلى مناورة سياسية بارعة، قال المقريزي في (السلوك): " **فلما كان بعد ذلك تجمّع الأمراء، وقالوا: لا بد من إقامة شخص من بيت المُلك مع المعز أيبك، ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله** ". واتفقوا على إقامة الملك الأشرف مظفّر الدين موسى ابن الملك المسعود يوسف ابن الملك الكامل ابن الملك العادل سلطاناً، وله من العمر ست سنين، على أن يقوم بتدبير الدولة الملك المعز أيْبَك. قال المقريزي في (السلوك) معلّقاً على هذه المناورة السياسية قائلاً:

" **إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة، لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك** ".

والحق أن تنصيب الملك الأشرف سلطاناً لم يكن- بالنسبة إلى المماليك- إلا حصان طروادة سياسي، وحققوا بتنصيبه أموراً أربعة:

- الأول: إجهاض حملة البيت الأيوبي بقيادة الملك الناصر، وتمزيق الصف الأيوبي نفسه، والحد من التفاف المؤيّدين حولهم.
- الثاني: الاحتماء بغطاء سياسي شرعي، باعتبار أن الملك الأشرف من البيت الأيوبي، ولا داعي إلى مناهضته، بل إن مناهضته تعني الخروج على السلطة الشرعية.

- **الثالث**: استغلال صغر الملك الأشرف لتمرير سياساتهم الخاصة باسمه، ولتقوية مركزهم، وترسيخ نفوذهم.
- **الرابع**: إمكانية التخلص منه بسهولة بمجرّد القضاء على الحملة الأيوبية المناهضة لهم (انظر أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية).

وعمد المماليك إلى مناورة سياسية أخرى، وعلى مستوى أوسع وأهمّ، ألا وهي الاحتماء بغطاء الخلافة، واستمداد الشرعية منها، وذكر المقريزي (السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٦٨) أنه لما ورد الخبر بانضمام بعض المماليك، وعلى رأسهم الأمير ركن الدين خاص تُرك، إلى الصف الأيوبي، " نودي في القاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي، وأن الملك المعز أيبك نائبه بها ".

الغدر ثانية!

قرر ملوك بني أيوب القيام بالخطوة الحاسمة، واسترداد الملك المسلوب، وتوجّه الملك الناصر إلى مصر بجيش كبير، ومعه من زعماء الأسرة الأيوبية: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل، والملك الأشرف موسى ابن المنصور إبراهيم بن شيركوه، والملك شادي بن الناصر داود، وأخوه الملك الأمجد حسن، والملك الأمجد تقيّ الدين عباس بن العادل، وملوك آخرون، إلى جانب عدد آخر من كبار القادة الكرد، وفي مقدّمتهم الأمير شمس الدين الحَمِيدي، والأمير بدر الدين الزَّرْزاري، والأمير ضياء الدين القَيْمَري.

وعلى الجانب المملوكي دبّ الاضطراب، وقُبض على جماعة من الأمراء المتهمين بالميل إلى الملك الناصر، وتجاوز الناصر بجيشه غزّة، ووصل إلى التخوم الفاصلة بين الشام ومصر، وخرج إليه الملك المعز أيبَك بقواته، والملاحظ هنا أن الأمير الكردي حسام الدين الهذباني كان من أبرز قوّاده، وكان يقود ميسرة العسكر المملوكي، والتقى الجيشان قرب (العبّاسة)، وكانت الجولة الأولى للجند الأيوبي على الجند المملوكي، لكن العصبية التركية لعبت دورها في أشد لحظات القتال حرجاً، يقول المقريزي في (السلوك):

" وكان في ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية، لكثرة عساكره، ولميل أكثر عسكر مصر إليه، فاتفق أنه كان مع الناصر جمع كبير من مماليك أبيه الملك العزيز، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلّة الجنسية ... ".

وأضاف المقريزي في (السلوك) يقول:

" ووقف الناصر في جمع من العزيزية ﴿مماليك والده الملك العزيز، وهم ترك﴾، وغيرهم تحت سناجقه ﴿راياته﴾، وقد اطمأنّ، فخرج عليهم المعزّ ومعه الفارس أقْطاي، في ثلاثمائة من البحرية، وقرب منه، فخامر ﴿تآمر﴾ عدّة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية، فولّى الناصر فاراً، يريد الشام في خاصّته وغلمانه، واستولى البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه، ونهبوا أمواله ".

إذاً خسر الأيوبيون المعركة لأن المماليك الترك الذين كانوا في صفوفهم انحازوا إلى أبناء جنسهم، وغدروا بالأيوبيين، وكانوا قوة قتالية هامة، بدليل كونهم في القلب مع الملك الناصر، وكانت النتيجة وقوع ملوك البيت الأيوبي وقادة الكرد في الأسر، ومقتل بعضهم. ولا ننس في الوقت نفسه وقوف الأمير الكردي حسام الدين ضد بني جنسه، فقد عرف المماليك البحرية كيف يستقطبونه، عبر إطماعه في منصب رفيع، والإفادة من قدراته القيادة، ثم لاحظوا كيف أن المماليك العزيزية وقفوا في اللحظة الحرجة إلى جانب بني جنسهم، أما الأمير حسام الدين فظل مخلصاً لسادته الجدد.

إن موقف الأمير حسام الدين يذكّرني بموقف شبيه حدث في التاريخ الكردي حوالي سنة (٥٥٠ ق.م)، فحينذاك وقف القائد الميدي هارياك ضد أستياكز (أستياجس) آخر ملوك ميديا، وانحاز إلى جانب الملك الأخميني قورش الثاني، وجرّ معه كثيرين من كبار القيادات الميدية، وكانت النتيجة سقوط الدولة الميدية، وحلول الدولة الأخمينية محلها، وها قد زالت الدولة الأيوبية أيضاً، وبطريقة جدّ مشابهة لسقوط الدولة الميدية، لكن بعد أن سطرت صفحات مجيدة في تاريخ غربي آسيا.

المراجع

١. الدكتور أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، ص ٣٠٣ — ٣٠٧.

٢. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧٨٢/١٠.

٣. ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ٢٠٩/١ ، ٢٢٩ ، ٢٦٠. ٣٤٣/١ - ٣٥٥.

٤. عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي: نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، ص ٦٣ - ٦٤.

٥. الدكتور عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٣٩ — ١٤٢.

٦. المقريزي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الأول، القسم الثاني، ص ٣٣٩ — ٣٧٥، ٤٠٣ — ٤٠٤.

٧.

وانظر:

- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث.
- الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(١٤)

الحاكم كريم خـان زندي

(توفي سنة ١١٩٣ هـ/ ١٧٧٩ م)

الجغرافيا أولاً

كي نفهم التاريخ فلنبدأ بالجغرافيا.

وكي نفهم العقائد والأديان فلنبدأ بالجغرافيا.

وكي نفهم السياسة والاقتصاد فلنبدأ بالجغرافيا.

وكي نفهم القيم والأخلاق فلنبدأ بالجغرافيا.

وكي نفهم الآداب والفنون فلنبدأ بالجغرافيا.

تلك هي الحقيقة، وعذراً إذا كنت أكررها مرة تلو أخرى.

فالإنسان نفسه جزء من الجغرافيا، وهو لم ينزل على كوكب الأرض من كوكب آخر، إنه في الأصل كائن جغرافي قلباً وقالباً، إنه كائن مجبول من الجغرافيا، ورغم ما في الأديان من توجهات أسطورية في تفسير العالم فقد أقرّت بهذه الحقيقة، وذلك حينما سردت قصة الخليقة، وذكرت أن الله أخذ قبضة من تراب كوكبنا هذا، وخلق منها جد البشرية الأول (آدم).

وبطبيعة الحال لا أقصد بـ (الجغرافيا) التضاريس من جبال ووديان، وسهول وصحارى، وأنهار وبحار فقط، كما أني لا أقصد بها المناخ من أمطار وثلوج، وحر وقَرّ، وخصوبة وجفاف فقط، بل أقصد كل هذه العناصر معاً وهي في حالة تفاعل مع البشر أفراداً وجماعات، بلى إنني أقصد (الجغرافيا البشرية)، وأقصد الجغرافيا السياسية (جيوبوليتيك).

وعندما نأخذ هذه الحقيقة التاريخية والعلمية بالحسبان في قراءتنا للأحداث عاديّها وخطيرها، قديمها وحديثها، وفي تحليلنا للأمور صغيرها وكبيرها، نصبح أقدر على فكّ كثير من الطلاسم في تاريخ البشر، كما نصبح أكثر معرفة بالعوامل الحقيقية التي وقفت وراء كثير من الأحداث الكبرى، وليس هذا فحسب، بل نصبح أكثر قدرة على فهم الأحداث الكبرى المعاصرة، ونغدو أقدر على تأسيس المستقبل لأجيالنا القادمة.

قِزِلْ قُورْتْ

وأكتفي ها هنا بالوقوف عند مثال بسيط جداً، إنه عبارة (قِزِلْ قُورْتْ)!

فمن من الكرد في منطقتنا عِفْرين Afrin على الأقل لم يسمع هذه العبارة في معرض السخط والاستنكار؟! ومن منا لم يسمعها من الأمهات والآباء مراراً، وهم يعبّرون عن غضبهم على هذا

الصبي أو ذاك، إما لأنه قال ما لا يجب أن يقال، وإما لأنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وإما لأنه ألحّ على طلب شيء ما إلحاحاً تجاوز فيه الحد المألوف؟!

إنها عبارة كثيرة التداول في مجتمعنا الكردي، ولم أسمعها في البيئات الاجتماعية العربية، سوى تلك التي خالطها الكرد منذ قرون كالبيئة الحلبية، فقد سمعت أهالي حلب يلفظونها للأغراض السابقة الذكر، لكن بصيغة (أزِلْ أُورْت)، أي بإبدال القاف همزة حسب اللهجة الحلبية المعروفة.

بلى، إننا سمعنا عبارة (قِزِلْ قُورْت) صغاراً، وربما قلناها كباراً، وكنا ندرك دلالتها في الحالين، لكن لم يخطر لنا قط أن نحلّلها لنعرف كنهها، شأنها في ذلك شأن كثير من العبارات التي نقولها عفوياً، دونما وقوف عند جذورها.

وكي نفهم حقيقة (قِزِلْ قُورْت) لا بد من عودة إلى الجغرافيا متسلّحين بالصبر، فمثل هذه الأمور التي تكوّنت وتطورت عبر القرون، وساهمت عوامل متشعبة في تكوينها، وانتقلت من جيل إلى جيل، لا ينفع معها الارتجال والتعجّل، ولا بد من القيام برحلة متأنية عبر الميثولوجيا، والسياسة، والاقتصاد، والفولكلور، إلى أن يستقر بنا التطواف أخيراً في رحاب الجغرافيا.

ولنبدأ الرحلة.

إن عبارة (قِزِلْ قُورْت) ليست كردية صرفاً، وقد تكون كلمة (قِزِل) كردية وقد تكون تركية، ولست متأكداً من هويتها، وهي تعني فيما أعلم (أغبر/ضارب إلى الحمرة). أما كلمة (قُورت) فهي تركية صرف تعني (ذئب)، وهكذا فعبارة (قزل قورت) تعني (الذئب الأغبر)، أي الذئب الذي في لونه حمرة، وهكذا فإن أمهاتنا وآباءنا عندما كانوا يؤنّبوننا أو يردعوننا بعبارة (قِزِلْ قُورْت) إنما كانوا يخوّفوننا بـ (الذئب الأغبر).

وقد يقال: أين المشكلة؟! فالذئب حيوان معروف بشراسته، وكان معظم الكرد قديماً من الـ(كوچر) Kocher، يملكون قطعان الغنم والماعز، ويرتادون بقطعانهم شعاف الجبال، ويضطرون من ثم إلى خوض صراعات مريرة ضد الوحوش المتربصة بهذه الشاة القاصية أو تلك، ولا سيما الذئاب.

ثم لا ننس أن الذئب قد دخل الموروث الإسلامي أيضاً، وذلك عبر قصة النبي يوسف في القرآن، ومن الطبيعي أن تدخل رمزية الذئب في الثقافة الكردية عامة، وفي الفولكلور الكردي خاصة، بهذه الدلالة المخيفة.

نقول: إن رمزية (قِزِلْ قُورْت) أبعد من مسألة الصراع بين الرعاة والذئاب، وأقدم من العهد الذي اعتنق فيه الكرد الإسلام، إنها تعود في جذورها إلى الصراع التاريخي بين العرق التّوْراني ممثَّلاً في (الغُزّ، المغول، التتر، التركمان، الترك)، والعرق الآرياني ممثَّلاً في (الكرد والفرس)، ولست هنا

بصدد الحديث عن الصراعات بين الأعراق المتجاورة، لكن تلك هي الحقيقة إذا كنا من محبي معرفة الحقائق كما هي، من غير تبديل ولا تجميل.

فالمعروف في المصادر التاريخية الموثّقة أن شعوب العالم مرت بمرحلة ميثولوجية (دينية بدائية) عرفت بالمرحلة الطَّوْطَمية Totemism، وحينذاك كان الوعي البشري بسيطاً وساذجاً وقاصراً، فتصوّرت كل قبيلة، أو مجموعة بشرية، أن جدها الأول كان كائناً حيوانياً أو نباتياً معيّناً، وكانت تتخذ ذلك الكائن حامياً لها، فتقدسه وتعبده، وكانت تتخذه من ثَم رمزاً خاصاً لها.

ويذكر المؤرخ التركي يلماز أوزتونا في كتابه (تاريخ الدولة العثمانية) أن الأتراك يعتقدون أن الجد الأكبر لسلالتهم هو الذئب الأملح، أي الضارب إلى الحمرة، لذلك فهو أي الذئب رمز قومي للأتراك، ويؤكد ميرسيا إيلياد هذه الحقيقة في كتابه (التنسيب والولادة الصوفية).

وكانت بلاد تَوْران، وهي تمتد من شرقي بحيرة قزوين حتى منغوليا الحالية، بلاداً صحراوية فقيرة بموارد العيش، شأنها في ذلك شأن سائر البيئات الصحراوية، ولا يخفى أن البيئات الصحراوية تفرض على المجتمع طابع البداوة، وتنمّي في الإنسان نزعة (الصراع من أجل البقاء)، وتؤسس في النفس والعقل قيم القسوة والشراسة والبطش، كما أنها تجعل المرء مضطراً إلى القيام بالغزو والسلب والنهب، كي يضمن لنفسه الاستمرار في الحياة.

وكان من الطبيعي أن يتوجّه التورانيون بغزواتهم نحو مواطن جيرانهم الآريانيين في الجنوب والغرب (أفغانستان، وإيران، وكردستان، وأذربيجان)، وهي مناطق تمتاز بالخصب والحضارة، وكان من الطبيعي أيضاً أن يدور صراع شديد بين التورانيين والآريانيين للسيطرة على المكان (الجغرافيا)، وفي ملحمة (الشاهنامة) للشاعر الفارسي الفردوسي، وفي غيرها من المصادر التاريخية الفارسية مثل كتاب (الأساطير الإيرانية القديمة) للدكتور إحسان يار شاطر، شواهد كثيرة على حدّة الصراع بين الفريقين، وكان الكرد ميديين وغير ميديين، والفرس أخمينيين وغير أخمينيين، يتبادلون مواقع القيادة في الحرب ضد التورانيين، تارة لرد هجماتهم على مواطن الآريانيين، وأخرى لإخضاعهم.

وقديماً كانت كل قبيلة تحمل في حروبها رايات أو شعارات ترمز إلى طوطمها الأكبر، ولا ريب أن التورانيين كانوا يحملون معهم في حروبهم ما يرمز إلى جدهم الطوطمي (قِزِلْ قُورْت)- أتذكر هاهنا أن الغزوة التي شنتها تركيا على شمالي قبرص، لإقامة جمهورية قبرص التركية، كان اسمها الذئب الأغبر- كما أن الآريانيين كانوا يحملون معهم ما يرمزون به إلى الشمس باعتبارها إلههم الطوطمي الأقدم، أو باعتبارها رمزاً إلى الله.

وتفيد الروايات التاريخية أن النبـي الآرياني الميدي زردشت نفسه قُتل على أيدي التورانيين في معبده، خلال إحدى هجماتهم على مدينة بَلْخ في شرقي بلاد آريان (شمالي أفغانستان حالياً)، وتذكر المصادر التاريخية أن التورانيين الذين قتلوا زردشت مع ثمانين من مريديه داخل المعبد كانوا قد تخفّوا في شكل الذئاب، والأرجح أن تلك الذئاب كانت من صنف (قزلْ قُورْت).

وظل الآريانيون فرساً وكرداً عرضة للهجمات التورانية طوال التاريخ الإسلامي، بدءاً باندفاعات الغُزّ (الأُوغُوز) المدمرة، ومروراً بهجمات الخُوارزميين والمغول والتتار والسلاجقة التي لم تكن أقل تدميراً، وانتهاء بالعثمانيين. والحق أن الكرد كانوا، طوال تاريخهم القديم والحديث، أكثر الشعوب تضرراً من الغزوات التورانية، وكان لهم النصيب الأوفى من شراسة ذلك الـ (قِزِلْ قُورْت) وبطشه، وما زال الأمر على تلك الحال، فمنذ سنوات قليلة صرّح أحد قادة تركيا الكبار- ولعله الرئيس سليمان ديميريل- بأنهم لن يسمحوا بقيام دولة كردية ولو كانت في الأرجنتين.

فهل من العجب في شيء أن تتجذّر تلك العبارة المقيتة في اللاوعي الجمعي الكردي، وتدخل إلى الفولكلور الكردي، وتصبح رمزاً إلى الترهيب والتخويف، وتدور على الألسنة بشكل عفوي؟! أترون كيف أن جغرافيا توران الصحراوية الفقيرة، وعبر قرون متتابعة، أوصلت إحدى منتجاتها الثقافية (قزل قورت) إلى الكرد صغاراً وكباراً حتى في منطقة عفرين النائية؟!

صفويون .. وعثمانيون

أعلم أني قد استطردت بعض الشيء.

لكن كان من الضروري ألا أكتفي بالتنظير، وكان من المفيد ذكر ولو مثال واحد على الصلة الوثيقة بين الجغرافيا والتاريخ، أقصد التاريخ بكل مكوّناته الميثولوجية والسياسية والاقتصادية والفولكلورية.

والحقيقة أن الصراع الآرياني- التوراني لم يتوقف، بل كان كالنار تحت الرماد تارة، وكان يندلع على شكل حروب تارة أخرى، وقد استطاع الفرس تهميش بل تعطيل الدور الكردي في منطقة آريان (فارس وكردستان وأذربيجان)، منذ هيمنة الأخمين على الدولة الميدية حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، لكنهم كانوا بحاجة على الدوام إلى الاستقواء بالجغرافيا الكردية، وبالقوة القتالية الكردية، للوقوف في وجه التورانيين المندفعين شرقاً وجنوباً، وفعلوا الأمر نفسه حينما تصدّوا للفتوحات الإسلامية التي قادها العرب، ولم يكن الصراع البويهي- السَّلجوقي، في العصر العباسي، إلا شكلاً آخر من أشكال الصراع الآرياني- التوراني.

ومع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، برز الصراع الآرياني- التوراني في صيغة الصراع الصفوي - العثماني، وقاده من الجانب الفارسي الشاه إسماعيل الصفوي (حكم بين سنتي ١٥٠١ — ١٥٢٤ م)، ومن الجانب التركي السلطان سليم الأول (حكم بين سنتي ١٥١٢ - ١٥٢٠ م)، وكانت كردستان الجنوبية (إقليم كردستان- العراق)، في بؤرة الصراع بين الفريقين.

وقبل الحديث عن كريم خان زَنْد دعونا نقف عند الدولة الصفوية، تلك الإمبراطورية التي شمل نفوذها إيران وأفغانستان وبلوشستان وخوزستان، إضافة إلى أذربيجان وشرقي كردستان، وشمل العراق أحياناً قليلة أيضاً. إن الجد الأعلى للشاه إسماعيل الصفوي هو الشيخ صفيّ الدين الأَرْدَبِيلي (١٢٥٣ — ١٣٣٤ م)، وهو منسوب إلى الإمام موسى الكاظم سابع الأئمة عند الشيعة الإمامية، وصفيّ الدين هو أول شيوخ الطريقة الصفوية.

وفي عهد الشيخ علاء الدين (١٣٩٢ — ١٤٤٨ م) حدث الاجتياح التيموري للعالم الإسلامي، وكان تيمورلنك شيعيّ الهوى، وكان يُجلّ الشيخ علاء الدين، وإكراماً له أفرج عن ثلاثين ألفاً من التركمان الذين كان قد أسرهم في حروبه ضد السلطان العثماني بايزيد الأول، ووهبهم له، فصار هؤلاء وأبناؤهم وأحفادهم فيما بعد من أبرز مريدي الأسرة الصفوية، وكانوا يشكلون القوة الضاربة في حروب الصفويين ضد العثمانيين.

وفي عهد الشيخ سلطان حيدر (١٤٦٠ — ١٤٨٨ م) انتقلت الطريقة الصفوية من الطور الديني إلى الطور العسكري، إذ نظّم هذا الشيخ مريديه تنظيماً عسكرياً جيداً، وانتقل بأتباعه من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الجعفري، واختار لهم لباساً خاصاً يتميّز بقَلَنْسُوَة حمراء ذات اثنتي عشرة شقّة (تيمّناً بالأئمة الاثني عشر)، لذا عُرف الصفويون من قبل الترك العثمانيين بلقب (قِزِلْ باش)، أي أصحاب الرؤوس الحمر.

ويعدّ الشاه إسماعيل الصفوي المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، وهو الذي فرض المذهب الشيعي على الشعوب الآريانية، وعمل للقضاء على المذهب السني، كما أنه خاض حروباً طاحنة ضد العثمانيين حماة المذهب السني، والحقيقة أن الصراع الشيعي- السني كان غطاء خارجياً برّاقاً لصراع أعمق جذوراً وأطول تاريخاً، هو الصراع على الجغرافيا والنفوذ بين سلالة توران وسلالة آريان، وبعبارة أخرى بين الثقافة الآريانية والثقافة التورانية.

وفي سنة (١٧٢٢ م) أنهى نادر شاه- من قبيلة أفشار التركمانية الأصل- حكم الأسرة الصفوية، لكن عدّه معظم الإيرانيين مغتصباً للعرش، يعتزم إزالة المذهب الشيعي وإعادة المذهب السني،

فاغتاله القواد الشيعة سنة (١٧٤٧ م)، في معسكره بمدينة فتح أباد في خبوشان، وكان نادر شاه قد جاء إليها بجيشه للقضاء على ثورة للكرد نشبت هناك.

إن هذا الزوال السريع لحكم نادر شاه تبعته فوضى عامة في بلاد فارس والقوقاز والأقاليم المجاورة لما سمّي بعدئذ باسم (تركيا)، وأدّى النزاع بين الزعماء القبليين على العرش الفارسي إلى حروب طاحنة جديدة.

وفي خضم تلك الصراعات والحروب الطاحنة برزت الجغرافيا الكردية ثانية، وبرزت معها القوة القتالية الكردية الفاعلة، لتترك بصماتها على المسرح السياسي والحضاري في بلاد آريان، وحدث ذلك بقيادة شخصية كردية بارزة، هو كريم خان زَنْد.

فمن هو الرجل؟

وكيف جرت الأمور في عهده؟

ظهور كريم خان

يتألف الكرد من أربعة فروع رئيسة، هي: كُرْمانْج في الشمال، وگاووران في الوسط، وكَلْهُور ولُور في الجنوب. وتنتمي قبيلة زَنْد إلى فرع لور، وموطنهم في لُورِستان بجنوب غربي إيران حالياً، وكان اسم المنطقة التي يقيم فيها الزنديون (ملاير)، وكان الزنديون يثورون على كل من نادر شاه والعثمانيين معاً، فهاجمهم نادر شاه بقسوة، وقضى على ثورتهم، وأكره قسماً كبيراً منهم على الهجرة إلى خراسان شرقاً، وأسكنهم حوالي مدينة أَبِيوَرْد، ليكونوا في مواجهة التركمان الغزاة القادمين من الشرق والشمال، وكانت سياسة التهجير متبعة ضد الكرد منذ العهد الآشوري.

وبعد مقتل نادر شاه على أيدي القواد الشيعة، عيّن أولئك الزنديون المهجَّرون كريم خان قائداً لهم، وكان كريم خان قبل ذلك من قوّاد نادر شاه القدامى، وكان صاحب خبرة وتجربة في ميادين القتال، فأحسن استغلال الظروف، وعاد بالزنديين إلى موطنهم الأصلي ملاير في لورستان، يعاونه في ذلك أخوه صادق، وأفلح في ذلك رغم الأخطار التي كانت تحيط بهم، ومنذ ذلك الوقت أصبح كريم خان زعيماً لقبيلة زند عن جدارة.

وفي عام (١٧٥٠ م)، ونتيجة لتفاقم الصراع على السلطة في فارس، أعلن مراد خان، زعيم قبائل بَخْتياري (فرع من الكرد)، نفسه وصياً على عرش بلاد فارس، وتحالف معه كريم خان، فحاربا معاً الغزاة الأفغان، وحققا الانتصار عليهم، ولكن سرعان ما دبّت الخصومة بين الزعيمين، وتغلّب كريم خان على مراد خان في النهاية، واعترف به الجيش وصياً على عرش بلاد فارس.

وأسّس كريم خان دولة متماسكة قوية، واتخذ مدينة شيراز في جنوبي فارس عاصمة لحكمه، وهي المنطقة التي نشأت فيها السلالات الأخمينية والساسانية قديماً، وبدعم من جماعته اللُّور المخلصين، ومن عشائر بختياري، ومن الخيالة العرب، حارب كريم خان منافسيه وألحق بهم الهزائم، وكانت النتيجة أن ساد السلام والرخاء في بلاد فارس طوال حكمه حوالي عشرين عاماً.

وبعد وفاة كريم خان تولّى السلطة كردي آخر هو لُطْف علي خان، زعيم اتحاد قبائل اللور، ولكنه لم ينجح في مكافحة سلالة قاجار (قاژار) Qajar، وهي قبيلة تركمانية كان مركزها في طهران، وكانت تسيطر على شمالي فارس، وقد نُصب كمين للزعيم الكردي لطف علي خان، وسُلّم إلى آغا محمد خان، مؤسس السلالة القاژارية، فقتله سنة (١٧٩٣ م)، بعد أن اقتلع عينيه.

وخشية من انبعاث نهضة كردية جديدة في جنوبي بلاد فارس، وفي لورستان وأراضي بختياري خاصة، عمد ملوك قاژار التركمان إلى مضايقة الأمراء والشخصيات المنحدرين من سلالة كريم خان زند بقسوة، فأعدموا بعضهم جهراً، وقتلوا آخرين غيلة، ولذلك لم تستطع القبائل الكردية في فارس أن تكون قوة سياسية حتى العصر الحديث.

إنجازات كريم خان

أصيب كريم خان في أواخر حياته بالسل، وكان قد تجاوز الخامسة والسبعين، وفي رواية: الثمانين، وتوفّي في عاصمته الجميلة شيراز سنة (١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م)، ويشهد المؤرخون أنه كان أحد ملوك إيران المحمودي الذكر، إنه كان محباً لرعيته، حسن المسلك معهم، يعيش ببساطة شديدة، غير مكترث لبهارج السلطة وترف العيش، حتى إنه رفض طوال حكمه قبول لقب (ملك) و(سلطان)، رغم أنه كان جديراً بهما، واكتفى بلقب (وكيل الرعايا)، وكان لا يحقد ولا يقسو، ويقول عباس إقبال الآشتياني في كتابه (تاريخ إيران):

" ولا يزال جارياً على ألسنة الناس حكايات وأساطير كثيرة، تحكي بساطة حياة كريم وحسن معاملته، وسعيه لتحسين أحوال الشعب ".

وأشاد شاهين مكاريوس في (تاريخ إيران) بمزايا حكم كريم خان قائلاً:

" فحكم مدة طويلة حكماً لم يسمع في إيران بأحسن منه، واطمأنت قلوب الأهالي، وبطلت الأهوال والمذابح من بلادهم، ومُنعت المظالم والمغارم، وراجت الصناعة والتجارة والزراعة، وتحسّنت موارد الأهالي تحسّناً بيّناً، وكثرت موارد الثروة ".

وأضاف مكاريوس واصفاً اهتمام كريم خان بالعمران والازدهار:

" وجعل شيراز عاصمة مُلكه، وبنى فيها أبنية فخمة، مثل البساتين والأسواق والحمّامات والجوامع التي لا تزال باقية إلى الآن،... وأحسن إلى الأُمناء من أهل دولته، وشدّد على الظالمين، وأتى كل ما في وسعه لتعميم الأمن والعدل في البلاد، فتمّ له ذلك ".

- - - -

إن سيرة القائد الكردي كريم خان في بلاد فارس تعيد إلى الذاكرة سيرة قائد كردي آخر سبقه بستة قرون، وحكم مصر والسودان وليبيا وبلاد الشام والحجاز، وجزءاً كبيراً من كردستان، إنه السلطان صلاح الدين الأيوبي، وثمة قواسم مشتركة عديدة بين هذين القائدين، أبرزها:

- العبقرية العسكرية والسياسية والإدارية.
- الاهتمام بتحسين أحوال الرعية.
- الاهتمام بالحضارة والثقافة والعمران.
- بساطة العيش والنزعة الإنسانية النبيلة.

المراجع

١. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٦٦ – ٦٨.
٢. شاهين مكاريوس: تاريخ إيران، ص ٢١٣ - ٢١٤.
٣. ميرسيا إيلياد: طقوس التنسيب والولادة الصوفية، ص ١٣٢.
٤. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ١/٢٢.

وانظر:

- الدكتور إحسان يار شاطر: الأساطير الإيرانية القديمة.
- عباس إقبال الآشتياني: تاريخ إيران من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية.

(١٥)

محمد علي باشا: باني مصر الحديثة

(توفي سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م)

يأجوج ومأجوج!

حكمتان اثنتان قفزتا إلى ذهني وأنا أشرع في الكتابة الآن.

تقول الأولى: أن تصل متأخراً خير من ألا تصل أبداً.

وتقول الأخرى: السمك الميت هو وحده الذي ينجرف مع التيار.

وأجدني سعيداً مرتين.

سعيد مرة لأني وصلت في النهاية بحمد الله، رغم أني تأخرت كثيراً، بلى، إنني تأخرت كثيراً في اكتشاف هويتي، لكن ها قد اكتشفتها أخيراً، أقصد أنني اكتشفت انتمائي بالمعنى القومي والتاريخي والثقافي الأصيل.

وقبل ذلك كان انتمائي الكردي يقتصر ثقافياً على التحدث باللهجة الكرمانجية مع أبناء منطقة جبل الكرد (عفرين)، وسماع بعض الأغاني الفولكلورية، ورؤية أبناء منطقتي بأزيائهم الكردية، ومشاهدة لعادات الكرد في المناسبات العامة، مثل الأعراس وغيرها.

وكان انتمائي الكردي يقتصر جغرافياً على قريتي التي ولدت فيها (كُرْزيل) Korzail، وعلى منطقتي آفرين Avrain (عفرين)، وكانت معرفتي بالجغرافيا الكردية تتسع قليلاً حينما كنت أزور جدي وجدتي في قرية شُدُود الكردية، والواقعة على مسافة (٤٠) كيلو متراً تقريباً شمال شرقي مدينة حلب السورية، وكانت تتسع أكثر حينما كان يأتي بعض الكرد، من آل حاجو، لزيارة ابنتهم الخالة كاملة، قادمين من عامودة الواقعة قرب مدينة القامشلي.

أما انتمائي الكردي على الصعيد التاريخي، أقصد معرفة تاريخ الكرد، وعلى الصعيد القومي، أقصد انبعاث الروح القومية في كياني فكراً وشعوراً، فكان قد أقيم بيني وبينهما سدّ هائل، ولا مثله سدّ يأجوج ومأجوج الذي تذكره الأساطير، ولا مجال الآن للخوض في الأسباب والعوامل.

وإنني سعيد مرة ثانية لأني كففت عن أن أكون سمكة ميتة، وأصبحت أقوى من أن أنساق مع التيارات التي كانت تجرفني يَمنة ويَسرة، تارة ببطء وأخرى بسرعة، لكن دائماً في اتجاه واحد ووحيد، هو الانخلاع من كل ما يذكّرني بجذوري، والانسلاخ من هويتي الكردية.

بورك السوط!

وكانت بداية اليقظة مع سوط لم يصفع قدمي فقط (على طريقة الفَلَقة)، ولم يصفع مؤخَّرتي فقط، وإنما صفع فمي أيضاً، لا لأنني كذبت، أو غششت، أو سرقت، أو نهبت، ولا لأنني دعوت إلى تمرد، أو قمت بانتفاضة، أو قدت ثورة، وإنما لأنني (كردي) فقط، تلك كانت الجريمة، وعليها كان العقاب.

والعجيب أني كنت حينذاك سمكة ميتة تماماً، كنت كردياً ميتاً، لكن اكتشفت بعدئذ بأعوام أنه لا يكفي أن تكون كردياً ميتاً، فجلّادو الكردي يخافون منه حتى وهو سمكة ميتة، وتصوّروا الحال التي يصبحون عليها إذا دبّت الحياة في الكردي، وصار له قلب ينبض، وعقل يفكر، وإرادة تقرر؟!

بلى، كانت البداية مع سوط صفع فمي بقوة، بعد أن صفع رجليّ ومؤخرتي، وبعد ذلك رحت أقول: بورك فيك من سوط! ورحت أيضاً أردد قول الشاعر السوري عمر أبي ريشة:

بورك الخَطْبُ! فكم لفّ على

سهمه أشتاتَ شعبٍ مُغضَبِ!

لكن كنت أحلّ كلمة (السوط) محل كلمة (الخطب).

بلى، لولا ذلك السوط لبقيت سمكة ميتة، ولبقيت منجرفاً مع التيارات المسعورة إلى الأبد، ولدخلت هذا العالم وخرجت منه على أني مجرد كردي ميت ليس أكثر، وكنت أقول لبعض الأصدقاء: الكردي الميت بحاجة إلى سوط يصفع فمه، أو رأسه، أو مؤخرته، وإلا سيبقى سمكة ميتة إلى الأبد.

وبعد السوط واليقظة بدأت رحلة الاكتشاف الكبرى؟

ولعلك تتساءل قائلاً: اكتشاف ماذا؟!

اكتشاف ذاتي أنا ثقافياً وجغرافياً وتاريخياً وقومياً، وما زلت أخوض رحلة الاكتشاف تلك بكل قوة وبكل سرعة وبكل حماس وإصرار، وكنت خائفاً جداً من أن أنتقل إلى العالم الآخر وأنا سمكة ميتة، أما الآن فلا داعي إلى الخوف، فالهوية قد استُردّت، والوعي قد تحرر، والرؤية قد اتضحت.

والحقيقة أن كل ما أكتبه، سواء أكان في الجغرافيا الكردستانية، أم في التاريخ الكردي، أم في تراجم مشاهير الكرد، وكل ما سأكتبه في الشأن الكردي بإذن الله، ما هو إلا من مظاهر

رحلة الاكتشاف الشامل إياها، وما أفعله هو أنني أضع ما أكتشفه أمام القراء للاطلاع عليه ليس أكثر.

وها أنا ذا أضع أمامكم- معشر القراء- اكتشافاً جديداً.

إنه أحد عباقرة القيادة والسياسة الكردية في العصر الحديث.

إنه حاكم مصر، ومؤسس نهضتها، محمد علي باشا.

فماذا عنه؟ وعن موقعه في تاريخ غربي آسيا؟

كشّافات .. ومشكلات!

مر قبل قليل أن مشروع الكتابة عن أعلام الكرد ومشاهيرهم، بالنسبة لي، فرع من مشروع أكبر وأشمل، هو مشروع استرداد الهوية وتحرير الوعي، وكنت- وما زلت- أسترشد في مشروع اكتشاف أعلام الكرد ومشاهيرهم بأحد الكشّافات الأربعة الآتية:

- أولها الجغرافيا الكردية (أسماء المناطق، والمدن، والقرى).
- وثانيها أسماء القبائل والعشائر والبطون والأسر الكردية.
- وثالثها أن يوجد في ترجمة العلم ما ينصّ على كردية النسبة، كأن تُذكر نسبة (الكردي)، أو يُنَصّ على أن العلم من أصل كردي.
- ورابعها أن يكون اسم العَلم نفسه كردياً صرفاً، أو يكون في سلسلة نسبه اسم كردي صرف، مع الأخذ في الحسبان وجود التشابه بين بعض الأسماء عند الكرد والفرس والدَّيْلَم.

وماذا كنت أفعل عند افتقاد هذه الكشّافات الأربعة؟!

عندئذ كانت المشكلات تتفاقم، لكن كنت استحضر ما تشكّل لديّ، بعد قراءات كثيرة للتاريخ الكردي، ولتراجم أعلام الكرد، ما يمكن أن أسمّيه السَّمت العام للشخصية الكردية، وصحيح أن ما قد استشرفه من ذلك السَّمت في عَلم ما لا يمكن أن يُعدّ دليلاً علمياً مقنعاً، لكنه يثير في ذهني علامة استفهام، ويشجّعني على إبقاء ذلك العَلم في دائرة البحث والتنقيب، وقد وصلت بفضل هذا المنهج إلى اكتشاف الأصل الكردي لأعلام ما كنت أظن أبداً أنهم يمتّون إلى الشعب الكردي بصلة.

ومن هؤلاء محمد علي باشا وأسرته.

فلا شيء من الكشّافات الأربعة كان يتوافر في نسب محمد علي وأسرته، وهذه حقيقة مؤكدة إلى الآن على أقل تقدير، فمنذ أيام الدارسة الثانوية تعلمنا أنه معروف بلقب (الأرناؤوطي)، وأنه من أبناء قرية (قُوله) الألبانية، فكان يسمّى (القُولي)، وقدم إلى مصر مع جيش ألباني تابع للقوات العثمانية.

وصحيح أن الاسم المركّب (محمد علي)، شائع في المجتمع الكردي، رغبة في الجمع بين اسمي أشهر شخصيتين إسلاميتين (النبي محمد، والإمام علي)، وصحيح أن كلمة (خُدَيوِي) كانت مألوفة عندي، وصحيح أيضاً أن اسم طُوسُون – وهو ابن محمد علي- كان يذكّرني باسم رجل يدعى (تُوسُون)، من قرية (بَيْنَهْ) Bainai كان يزور أقارب له في قريتنا، لكن من أين كان لي حينذاك أن أربط بين هذه المؤشرات وبين الأصل الكردي لأسرة محمد علي، ولا سيما أني كنت حينذاك سمكاً ميتاً تماماً؟!

ومع أني أصبحت أكبر سناً وأوسع ثقافة، وأعاد إليّ السوط (المبارك طبعاً) الحياة، وأصبحت مهتماً بالتاريخ الكردي، وبتراجم أعلام الكرد، ومتسلّحاً في ذلك بالكشّافات الأربعة السابق ذكرها، أقول: مع ذلك ما امتلكت الجرأة العلمية لأن أصنّف محمد علي باشا وأسرته الملكية ضمن الكرد، إذ أين (قوله) البلقانية من كردستان ومدنها وقراها؟! وأين (القُولي) من (الفارَقي)، أو (الآمِدي)، أو (الشَّهْرَزُوري)، أو (الإربلي) مثلاً؟! وأين (الأرناؤوطي) من (الهَذْباني)، أو (الرَّوادي)، أو (الزَّرْزاري)، أو (الزَّنْدي)؟!

أمور استوقفتني

أجل، ما كانت ثمة إشارة ولو ضئيلة تدل على أسرة محمد علي باشا كردية الأصل، لكن بعد أن انهمكت- كما قلت سابقاً- في قراءة التاريخ الكردي، والتنقيب عن تراجم أعلام الكرد قديماً وحديثاً، استوقفتني أمور أربعة:

- أولها: علمت أن محمد كاشف- ولقبه (تَيْمُور)، وهو جد الأسرة التيمورية الكردية في مصر- كان من كبار مساعدي محمد علي في مصر، إذ ساعده في حملته للقضاء على المماليك، وترقّى في سلّم المناصب الرفيعة، حتى صار والياً على بلاد الحجاز.

- وثانيها: لاحظت لجوء بعض زعماء الكرد ومثقفيهم إلى مصر في عهد محمد علي باشا وأسرته، وأذكر على سبيل المثال: أسرة أحمد شوقي، وأسرة والي البدرخانية، وأسرة عَوني.
- وثالثها: أن أول صحيفة كردية، ظهرت في العصر الحديث، إنما صدرت في القاهرة، وكانت بعنوان (كردستان)، وصدر العدد الأول منها في ٢٢ نيسان سنة (١٨٩٨ م)، وكان القائم عليها الأمير مقداد مدحت باشا بدرخان.
- ورابعها: هذا اللقب الغريب (خُدَيْوي)! فلا علاقة لهذا اللقب باللغة العربية، ولا أحسب أن له معنى في اللغة التركية، وإنما له معنى واضح ودقيق وعريق في اللغة الكردية، إذ يعني (المالك، صاحب المملكة) أو يعني (الرَّباني، التقي، رجل الله)، وكثيراً ما سمعت الكرد ينطقون هذا اللقب بجميع هذه الدلالات.

وكان من الطبيعي، وقد اجتمعت هذه المثيرات جميعها، أن أضع أسرة محمد علي في دائرة الاهتمام، ضمن مشروع التنقيب عن أعلام الكرد، ثم قرأت في هامش كتاب منشور عن الكرد، في الربع الأخير من القرن العشرين، ولا يحضرني اسمه الآن، أن أسرة محمد علي باشا كردية الأصل، لكن المؤلف لم يشر إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة، ومع ذلك صرت أكثر حرصاً على متابعة حقيقة هذه الأسرة.

الحقيقة!

ثم إذا بموقع سما كرد SemakUrd الإلكتروني ينشر، في ١/١٢/٢٠٠٦، مقالاً للدكتور محمد علي الصُّوَيركي، بعنوان (محمد علي باشا الكبير)؛ أكد فيه بما لا يدع مجالاً للشك أن الأسرة العلوية (هكذا تسمّى أسرة محمد علي باشا) كردية الأصل، وتعود بجذورها إلى مدينة ديار بكر (آمد) في كردستان الشمالية.

والدكتور محمد علي الصُّوَيركي كردي أردني، يعود بأصوله إلى منطقة (سُوَيرَك) الكردية في كردستان الشمالية، وهو باحث جادّ، ومهتم بالبحث والتنقيب عن أعلام الكرد، وله أكثر من كتاب منشور بالعربية في هذا المجال.

وقد نشر الدكتور محمد علي صورة للصفحة (٥٦) من مجلة المصور المصرية الشهرية، العدد المنشور في ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني؛ (١٩٤٩ م)، تتضمن جزءاً من حوار أجراه الأديب

والمفكر المصري الكبير محمود عباس العقّاد مع ولي عهد مصر حينذاك الأمير محمد علي، بعنوان (وليّ العهد حدّثني عن وليّ النِّعَم)، وإليكم بعض ما جاء في ذلك الحوار بقلم عباس محمود العقاد:

" ... وقال سموّه في أمانة العالم المحقق: لا أعلم، ولا أبيح لنفسي الظن فيما لا أعلم، ولكني أحدّثكم بشيء قد يستغربه الكثيرون عن نشأة الأسرة العلوية (المنسوبة لمحمد علي)، فإن الشائع أنها نشأت على مقربة من قولة في بلاد الأرناؤوط (ألبانيا)، ولكن الذي اطّلعت عليه في كتاب ألفه قاضي مصر على عهد محمد علي أن أصل الأسرة من ديار بكر في بلاد الكرد، ومنه انتقل والد محمد علي وإخوانه إلى قولة، وقد عزّز هذه الرواية ما سمعناه منقولاً عن الأمير حليم (أحد أحفاد محمد علي) أنه كان يرجع بنشأة الأسرة إلى ديار بكر في بلاد الكرد ".

ثم أضاف عباس محمود العقاد قائلاً:

"حسب بلاد الكرد شرفاً أنها أخرجت للعالم الإسلامي بطلين خالدين: صلاح الدين الأيوبي، ومحمد علي الكبير، وقد تلاقيا في النشأة الأولى، وفي النهضة بمصر، وفي نسب القلعة اليوسفية إليهما (قلعة القاهرة اليوم)، ونحن نعرف بأن الناس أمناء على أنسابهم وأصولهم، وأن الكثير من القادة العسكريين الذين خدموا مع محمد علي باشا وأحفاده كان أغلبيتهم من الكرد، أمثال إسماعيل باشا الكاشف تيمور، جد الأسرة التيمورية بمصر"

ثم انتقل عباس محمود العقاد إلى الحديث عن حياة محمد علي، وسائر أفراد الأسرة العلوية، وجدير بالذكر أن العقاد نشر مع المقال الحواري صورة شخصية له وللأمير ولي العهد في مكتب هذا الأخير.

وتتبّعت الأمر فوجدت أن (موسوعة تاريخ أقباط مصر) الإلكترونية Coptic History نشرت مقالاً للسيد عزت أندراوس، بعنوان (محمد علي الكبير)، ذكر فيه الأصل الكردي للأسرة العلوية، معتمداً على ما جاء في مجلة المصوّر المصرية أيضاً، وما أدلى به كل من الأميرين محمد علي وحلمي.

وهكذا وجدت نفسي أمام الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وسقطت كل الشكوك والظنون التي كانت تخامرني بخصوص نسبة أسرة محمد علي الكردية، فها هما اثنان

من أمراء الأسرة، أحدهما وليّ للعهد، يصرّحان بأن الأسرة العلوية كردية الأصل، وأنها ترجع بجذورها إلى مدينة ديار بكر (آمِد).

ولو كان الكرد أصحاب إمبراطورية كالعثمانيين والإنكليز مثلاً، أو لو كانوا على الأقل أصحاب دولة متحضرة، يشار إليها بالبنان مثل سويسرا، أو لو كانوا يحظون بما تحظى به الأسرة الهاشمية من تعظيم وتبجيل بين المسلمين عامة، لقلنا: إن الناس يرغبون في الانتساب إلى ما هو عظيم سياسياً، وإلى ما هو بارز حضارياً، وإلى ما هو مبجّل دينياً، ولعل الأميرين العلويين أفصحا عن الأصل الكردي لأسرتهما بدافع من إحدى هذه الدوافع الثلاث.

لكن كان الكرد في منتصف القرن العشرين- وما زالوا- شعباً بلا دولة تجمعهم، وبلا هوية قومية وسياسية ترفع من شأنهم بين الشعوب، كما أنهم كانوا في المخيّلة الشعبية الشرق متوسطية- وما زالوا- أبعد الناس عن التبجيل والتعظيم الديني، حتى إني قرأت في (موسوعة حلب)، للباحث الحلبي الألباني الأصل خير الدين الأسَدي، مثلاً شعبياً حلبياً يقول: " خلّي النبي كردي، والملائكة أعجام! " والمراد أن فلاناً تحدّث بما هو محال، وخرج عن المعقول.

أما على الصعيد الحضاري فكانت ديار الكرد غير معروفة أصلاً، وكان أغلب الشعب الكردي ريفياً ورعوياً، وكانت نسبة المتعلمين في المجتمع الكردي متدنية، شأنه في ذلك شأن معظم أرياف شرقي المتوسط.

ولا ننس أيضاً التشويه الذي نال من صورة الكردي في بعض مصادر التراث العربي الإسلامي، فالكرد في تلك المصادر شعب بلا هوية، أو هم من أبناء الجن، أو هم نتاج تزاوج غير شرعي بين جنّ النبي سليمان وبعض الفتيات الأوربيات الإماء، وكان سليمان قد استقدمهن لضمّهن إلى الحريم في قصره الملكي بأورشليم (القدس)، والكردي- حسبما روّج ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان)- أناس همج، شأنهم التمرد على السلطة الحاكمة وقطع الطرق.

ولا ننس أيضاً مقولة (هل تَسْتَكْردني؟!) المنتشرة في مجتمعات بلاد الشام ومصر، وقد سمعتها بأذني من بعض أولئك وهؤلاء، وهي تعبّر عن أن الكردي يجمع بين الحماقة والسذاجة، وأنه مضرب المثل في ذلك، بل قال لي الزميل الأردني الدكتور محمد الشوابكة ذات مرة، ونحن في دولة الإمارات، ربيع سنة (٢٠٠٣ م): عذراً يا دكتور أحمد، كنا نظن الأكراد مثل النَّوَر (الغجر).

فبالله عليكم ما الذي يحمل أميرين رفيعي المقام ومثقفين، من الأسرة العلوية المالكة، على الطمع في نسبة أصل الأسرة إلى الكرد؟! أهو الطمع في الانتساب إلى الجن؟! أم هو الطمع في أن يكونوا من أبناء الإماء؟! أم هي الرغبة في الانتساب إلى الهمج والمتمردين وقطّاع الطرق؟ أم هي الرغبة في الانتساب إلى الجهل والتخلف؟! أم هي الرغبة في الانتماء إلى الحماقة والسذاجة؟! أم هي الرغبة في الانتماء إلى الغجر؟!

ثم من الذي ينقل الخبر؟! إنه عباس محمود العقاد، الباحث المحقق المدقق، صاحب كتب (العبقريات)، وصاحب الصولات والجولات الشهيرة في مجالات الأدب شعراً ونقداً، وفي مجالات الفكر والصحافة، في النصف الأول من القرن العشرين، فهل من المعقول أن ينشر خبراً مصوَّراً في مجلّة شهيرة لولا أن الخبر صحيح مئة في المئة؟! وهل من المعقول أن يختلق معلومة على لسان أميرين من الأسرة الملكية الحاكمة، وينشرها في الصحافة، إلا وهو واثق من صحة تلك المعلومة ودقتها؟!

وبعد أن شهد شاهدان، هما الأمير محمد علي، والأمير حلمي.

وبعد أن نقل هذه الشهادة مفكر شهير وباحث قدير هو العقّاد.

وبعد أن نشرت تلك الشهادة في مجلة عريقة هي المصوّر.

هل يبقى شك في نسبة الأسرة العلوية إلى الكرد؟!

وألا يحق لنا البحث في سيرة مؤسسها محمد علي باشا؟!

في مهب الريح!

الرُّوملي أو بلاد الروم، اسم أطلقه العثمانيون على الإقليم الذي يشمل تراقيا، ومكدونيا، وغيرهما من البلاد الواقعة بين البلقان والبحر الأسود، وبحري مرمرة وإيجه، وسلسلة جبال اليونان. وفي منطقة الروملي هذه، وعلى مسافة (٣٢٠) كم غربي الآستانة (إستانبول)، كانت تقع قرية (قوله) المكدونية.

وحوالي منتصف القرن الثامن عشر كان يسكن قرية (قوله) رجل يدعى إبراهيم آغا، وكان يتولّى خفارة الطرق (وظيفة الجمارك)، ويساعده في تلك المهمة أخوه تُوسون (طوسون)، وقد مر أن الأخوين كانا في الأصل من مدينة ديار بكر في كردستان الشمالية.

حسناً، ها هنا بعض التساؤلات التي تمسك المرء من خناقه: متى انتقل الأخوان إبراهيم آغا وتوسون آغا من ديار بكر الكردستانية إلى قوله الروملية؟ وهل تم الانتقال من ديار بكر إلى الروملي، وإلى قوله تحديداً، بشكل مباشر، أم أن الأسرة ظلت تنتقل من بلد إلى آخر، واستقر بها المقام أخيراً في قوله؟

الحقيقة أننا لا نجد إجابات عن هذه الأسئلة وغيرها، وهي أمور ما كان يعرفها أحد غير محمد علي، ويبدو أنه كان حريصاً على ألا يعلنها، فالمشاهير من الحكام خاصة يؤثرون ألا يفتحوا صفحات ماضيهم إذا كان ذلك الماضي عادياً غير مبجّل، بل من الحكام من يصنع لأسرته ماضياً مجيداً برّاقاً، ويضعه بين أيدي آلته الإعلامية، لتسبح بعراقته ليل نهار، وهذا ما لم يفعله محمد علي، وكل ما فعله الرجل أنه ترك ماضيه في طيّات النسيان.

ولنعد إلى قرية قوله، وإلى موظف الجمارك إبراهيم آغا، فقد رُزق الرجل سبعة عشر ولداً، لم يعش منهم إلا محمد علي، وفي سنة (١٧٧٣ م) توفي إبراهيم آغا، وتوفيت زوجته أيضاً، وكان محمد علي حينذاك في الرابعة من عمره، باعتبار أنه ولد سنة (١٧٦٩ م).

وبقي الصبي محمد علي يتيم الأبوين، وكان من الطبيعي أن يكفله عمه توسون آغا (هكذا الصيغة الكردية)، وينتقل به إلى بيته، لكن حدث أن السلطة العثمانية غضبت على توسون آغا، فقتل بأمر السلطان العثماني، وبقي محمد علي من غير أهل يرعونه، ومن غير بيت يضمه.

على أن صديقاً لوالد محمد علي يدعى خربجي براوسطه أشفق على الصبي، فضمّه إلى أولاده، ويبدو أن شفقة خربجي براوسطه لم تنقذ محمد علي من الشعور بمرارة اليتم والذل، ويروى أنه، بعد أن ارتقى ذروة المجد، واعتلى منصب الحكم في مصر، كان يذكر لخاصته ما قاساه في أيام اليتم.

وبرعاية خربجي براوسطه تعلم محمد علي ما كان يتعلّمه أبناء تلك البلاد من ألعاب القتال والفروسية، ولعل الفتى محمد علي كان يدرك أنه لا سبيل له إلى حياة كريمة إلا بالاعتماد على الذات، وامتلاك أسباب القوة، شأنه في ذلك شأن جميع الطموحين في ذلك العصر، بل في كل عصر.

ويبدو أن محمد علي كان قد برع في القتال، فضمه مربيه خربجي براوسطه إلى من كان يعمل بإمرته في جباية الضرائب، فأظهر محمد علي مهارة وبسالة عجيبتين، واستحق أن يحصل على رتبة بلوك باشي، وزوّجه براوسطه امرأة مطلّقة من ذوي قرابته كانت ذات مال وعقارات.

ولم يستمر محمد علي في وظيفة جباية الضرائب طويلاً، ويبدو أن طموحه كان أكبر من أن تتسع له تلك الوظيفة المتواضعة، فانتقل إلى التجارة، وخاصة تجارة التبغ، وكانت أكثر أنواع التجارات رواجاً في تلك البلاد، وبرع محمد علي في مهنته الجديدة، واكتسب شهرة واسعة في الوسط التجاري، وكان موضع ثقة عند عملائه، وظل ينشط في الحقل التجاري إلى سنة (١٨٠١ م).

مصر من يد إلى يد

وقبل الخوض في أحداث سنة (١٨٠١ م) لا بد من وقفة مع مصر.

فالمعروف أن المماليك الترك قضوا على سيدتهم الدولة الأيوبية في مصر سنة (٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م)، وأقاموا الدولة المملوكية، وكان المعزّ أَيْبَك التركماني أول سلاطينهم، وفي سنة (٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م) أنهى المملوك الشركسي بَرْقُوق حكم سيدته الدولة المملوكية التركية، وورث أملاكها في مصر وشمالي السودان والحجاز وبلاد الشام.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى كان العثمانيون قد ظهروا في آسيا الصغرى (غربي تركيا) منذ أوائل القرن الثامن الهجري (أوائل القرن الرابع عشر الميلادي)، وراح شأنهم يزداد قوة، ودولتهم تزداد اتساعاً باتجاه الغرب، وفي سنة (١٤٥٣ م) احتل السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) مدينة القسطنطينية، وقضى على الدولة البيزنطية، وشرع هو وخلفاؤه بالتوسع في أوربا.

ومر سابقاً أن كل فاتح وغاز قادم من الشرق أو من الغرب كان يهمّه أن يسيطر على شرقي المتوسط، للوصول إلى الموانئ الشامية والمصرية المطلة على جنوبي أوربا، وما كان ذلك كافياً، بل كان من الضروري أن يسيطر الفاتح والغازي أيضاً على كردستان شرقاً، ليستطيع الاندفاع من بعدُ إلى بلاد فارس، ومن ثَم إلى وسط آسيا وشرقيها.

وحينما تسلّم السلطان سليم الأول عرش السلطنة سنة (١٥١٢ م) كانت هناك ثلاث قوى إقليمية كبرى تتنافس في غربي آسيا: **الدولة العثمانية** وعاصمتها الأستانة (القسطنطينية سابقاً وإستانبول لاحقاً)، **والدولة الصفوية** وعاصمتها تبريز، **والدولة المملوكية الشركسية** وعاصمتها القاهرة.

وكان يهمّ الدولة الصفوية أن تتقدم غرباً نحو سواحل المتوسط، عبر كردستان طبعاً، وكان يهمّ الدولة المملوكية أن تتقدم شرقاً عبر كردستان أيضاً، وكان يهمّ الدولة العثمانية أن تتقدم

شرقاً عبر كردستان، وجنوباً نحو بلاد الشام ومصر، وكان من الطبيعي أن تتصادم مصالح هذه الدول ذات الطابع الفتوحاتي التوسعي، وأن تتصادم نتيجة لذلك سياسياً وعسكرياً.

وقد حقق السلطان العثماني سليم الأول النصر على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة چالْديران (في شمالي كردستان) سنة (١٥١٤ م)، ورأى أن خير وسيلة يوقف بها تقدم الصفويين غرباً هي كسب ولاء الكرد، وأفلح في ذلك، إذ استعان في سنة (١٥١٥ م) بالزعيم الديني الكردي الشيخ إدريس بدليسي، وكسب ولاء ثلاثة وعشرين أميراً كردياً للسلطان العثماني، وكان أولئك الأمراء زعماء لمناطق ديار بكر وماردين والموصل وسنجار وحصن كيفا والعمادية وجزيرة ابن عمر، ووافق هؤلاء على ضمّ مناطقهم إلى الدولة العثمانية بما يشبه الاتحاد الفيدرالي في عصرنا هذا.

ثم اندفع السلطان سليم جنوباً إلى بلاد الشام، حيث ممتلكات الدولة المملوكية، وانتصر على السلطان المملوكي قانْصُوه الغُوري في معركة مرج دابق في شمالي سوريا سنة (١٥١٦)، وانتهت المعركة بمقتل الغوري، وكان من الطبيعي أن يستمر السلطان سليم في الاندفاع جنوباً نحو مصر، وفي سنة (١٥١٧ م) حقق النصر على السلطان المملوكي الجديد طُومان باي في معركة الرّيدانية، وشنقه على باب زُوَيلة في القاهرة، وكانت تلك أول مرة يُشنق فيها سلطان بمصر، وبإعدام طومان باي انتهى حكم الدولة المملوكية في شرقي المتوسط، ليبدأ الحكم العثماني.

على أن غيبة المماليك عن السلطة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عادوا إليها ثانية، لكن هذه المرة عملوا ولاة تابعين للدولة العثمانية، يشاركهم في ذلك ولاة عثمانيون آخرون.

ومع نهاية القرن الثامن عشر كان الصراع الاستعماري بين فرنسا وإنكلترا قد وصل إلى الأوج، وفي سنة (١٧٩٨ م) أرسل الفرنسيون حملة إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت، وأفلح نابليون في احتلال مصر، وحاول التقدم شمالاً في بلاد الشام، فعجز عن ذلك.

ثم غادر نابليون مصر سراً راجعاً إلى فرنسا، بعد أن ولّى على الجيش الفرنسي مكانه الجنرال كليبر، وسرعان ما لقي كليبر مصرعه على يد الشاب الكردي العَفْريني سليمان محمد أمين (سليمان الحلبي)، بتدبير من ولاة العثمانيين في بلاد الشام، ثم اضطر الفرنسيون إلى الانسحاب من مصر سنة (١٨٠١ م)، نتيجة التحالف الإنكليزي العثماني من جانب، وبسبب المشكلات الداخلية الطارئة في فرنسا من جانب آخر.

مقدمات الانقلاب

وفي سنة (١٨٠١ م) حدث الانقلاب الأول في مسيرة محمد علي، وبدأ الانقلاب على أرض مصر، وإنه لحدث يذكّرنا بحدث مماثل وقع لشاب كردي عبقري آخر قبل حوالي بستة قرون، وعلى أرض مصر أيضاً، إنه الانقلاب الذي حدث في حياة الشاب يوسف، المعروف بعدئذ باسم السلطان صلاح الدين.

بلى، في هذه السنة (١٨٠١ م) وصلت إلى مصر قوة بحرية عثمانية مؤلفة من ثلاثمئة جندي ألباني (كان العثمانيون يطلقون على الألبان اسم أرناؤوط/أرناؤود)، وكان يقود تلك القوة علي آغا بن خرجي براوسطه مربي محمد علي، وكان محمد علي قد انتظم في تلك القوة باعتباره معاوناً لعلي آغا.

وشاركت تلك القوة في بعض المعارك البحرية ضد الجيش الفرنسي، وخلال تلك الفترة عاد علي آغا إلى قوله، تاركاً قيادة جنوده لمعاونه الشاب محمد علي، وكان محمد علي حينذاك قد ارتقى إلى رتبة بكباشي، وهذا يعني أنه كان ناجحاً في عمله، جاداً في مباشرته.

وبُعيد خروج الفرنسيين برزت في مصر أربع قوى رئيسة:

- المماليك: وكان هؤلاء يلمسون الضعف الذي أصاب الحكم العثماني في مصر وغيرها، وتجلّى ذلك الضعف بوضوح خلال الحملة الفرنسة على مصر، فطمحوا- أقصد المماليك- إلى استرداد نفوذهم في مصر، والقبض على زمام إدارة البلاد.
- العثمانيون: كان هؤلاء يطمحون من جانبهم إلى طرد المماليك من مصر، لا بل استئصال جذورهم، إذ ثبت لديهم أن المماليك عنصر شغب وتخريب، ولا يمكن أن تستقيم الأمور للعثمانيين في مصر ما دام المماليك موجودين على الساحة، فأوعز الباب العالي إلى القبطان حسين باشا سراً بإبادة المماليك واستئصالهم، وبدأ حسين باشا بتنفيذ الخطة، لكن الإنكليز تدخّلوا في اللحظة الأخيرة، وأنقذوا رؤوس المماليك.
- الإنكليز: كان ما يهمّ الإنكليز هو أن يجدوا موضع قدم لهم في مصر، وأن يكون لهم نفوذ فيها وفي الدولة العثمانية بشكل عام، وهذا لا يكون إلا بدولة عثمانية ضعيفة، تتفهّم المصالح الإنكليزية، وبحكام في مصر يلبّون رغبات الإنكليز، لذلك كان الإنكليز ينسّقون مع العثمانيين من جانب، ويبنون علاقة صداقة مع المماليك من جانب.

● القوى الوطنية: كانت الحملة الفرنسية، رغم فشلها، قد أحدثت قلقلة شديدة في المجتمع المصري، فمن ناحية أنزلت ضربات قاضية بالمماليك، وكشفت عن عجزهم، وأظهرتهم على أنهم قوة دخيلة، تعمل لاستغلال المصريين دون وجه حق. ومن ناحية أخرى أوجدت الحملة الفرنسية مناخاً مناسباً لظهور إرادة شعبية في مقاومة الاحتلال، وتجسّدت تلك الإرادة في بعض علماء الأزهر، وفي زعماء آخرين.

وكان الشاب الفطن محمد علي يراقب التجاذبات والصراعات بين هذه القوى بدقة، ويتابع تفاصيلها، ويقرأها بعمق، وكان يعرف أن العصر عصر المغالبة، فالمماليك بالمغالبة حكموا مصر، وبالمغالبة أزاحهم العثمانيون عنها، وبالمغالبة يفرض الإنكليز شروطهم على الطرفين، وفطن القادة الشعبيون بدورهم إلى أهمية المغالبة، فعملوا لالتفاف الجماهير حولهم.

فما الذي يمنع محمد علي أيضاً من أن يخوض اللعبة ذاتها؟! ولماذا لا يدلي بدلوه في بئر المغالبة كما يفعل الجميع؟! وإذا كان الغرباء، مماليك وعثمانيين وانكليزاً، يمنحون أنفسهم حق السيطرة على شؤون البلاد المصرية فلماذا يقف هو مكتوف اليدين؟

بلى، أحسب أن محمد علي فكر بهذه الطريقة، والدليل على ذلك هو المسار الذي اختاره بعدئذ، وأوصله في النهاية إلى حكم مصر. ولن نقف عند محطات ذلك المسار وتفاصيله، فهي كثيرة جداً ومعقّدة، وحسبنا الإشارة إلى أنه فطن إلى هواجس كل فريق، وأدرك ما يرغب فيه كل منهم.

وبدأ محمد علي بالتعامل مع الفرقاء جميعاً على أنه الرجل التوفيقي، وليس الرجل المنافس، بل استطاع في النهاية أن يبدو لهم على أنه الرجل المنقذ، وكانت رتبته تعلو حيناً بعد حين، فارتقى من رتبة (بكباشي) إلى رتبة (قبى بلوك)، فرتبة (سَرْجشمه)، وأصبح قائداً لأربعة آلاف مقاتل، وكان حريصاً على استمالة رجاله إليه، فأجمعت القلوب على محبته، ولهجت الألسن بشكره.

خورشيد باشا

وكان أول ولاة العثمانيين على مصر، بعد خروج الفرنسيين، هو خسرو باشا، مملوك القبطان حسين باشا عدو المماليك اللدود، وكان من الطبيعي أن يدخل الوالي الجديد في صراع مع المماليك، لكبح جماحهم، لكنه أخفق في ذلك، ولم ير بداً من الاستعانة بفرقة محمد علي، رغم كرهه له، وقبل وصول فرقة محمد علي إلى ميدان القتال حاقت الهزيمة بحملة الوالي، فنسب

ذلك إلى تأخر محمد علي في الالتحاق بميدان القتال، وحاول معاقبته، لكن الجند ثاروا على خسرو باشا، وقاموا بعمليات السلب والنهب في القاهرة لتأخر دفع رواتبهم، وفر خسرو باشا إلى دمياط ناجياً بنفسه، وكان ذلك سنة (١٨٠٣ م).

وجاء طاهر باشا والياً على مصر بعد خسرو باشا، لكنه عجز عن دفع رواتب الجند المتأخرة، وبعد اثنين وعشرين يوماً اغتاله ضابطان، وبفرار خسرو باشا ومقتل طاهر باشا أصبح محمد علي قائد الجند العثمانيين، لأن رتبته كانت تلي رتبة طاهر باشا، على أن خسرو باشا استعمل نفوذه عند الباب العالي، وسعى لتعيين وال عثماني جديد على مصر، محل طاهر باشا، هو خورشيد باشا، أحد قواد الإنكشارية، وكان ذلك في سنة (١٨٠٤ م).

وكانت قوات المماليك هي الخطر الأكبر على نفوذ خورشيد باشا، ويأتي من بعدهم خطر الأرناؤوط، فاستقدم الدلاة من بلاد الشام، (مفرد الدلاة بالكردية ديلى Daile، وسمعت الشيوخ من الكرد يسمونهم: ديلي علي)، وهم فرسان من الكرد اشتهروا بالبطش والتهور، وكانوا يبيعون قدراتهم القتالية لمن يدفع لهم، أي أنهم كانوا فرقة من الفرسان المرتزقة، وكان أمل خورشيد باشا أن يستعين بالدلاة للقضاء على المماليك، ويكبح بهم جماح الأرناؤوط أيضاً، لكن المماليك ألحقوا الهزيمة بالدلاة، وخاب أمل الوالي فيهم.

أما محمد علي فاستمر في توطيد علاقته بالشعب، وعبّر عن مواساته لهم من إجراءات خورشيد باشا التعسفية، وكانت إجراءات هدفها جمع المال بدعوى ضرورة دفع رواتب الجنود، واستطاع محمد علي أن يكسب قلوب الجماهير، وصارت له شعبية كبيرة بين الأهالي.

وفي ١١ سبتمبر/أيلول سنة (١٨٠٤ م) أراد محمد علي أن يختبر مدى تعلّق جماهير القاهرة به، فقام بمناورة بارعة، إذ شرح لخورشيد باشا أن فوضى الجنود تعرقل قيام الحكومة بمهامّها، وهذا يعني أن الحكومة ستظل عاجزة عن جمع الأموال لدفع الرواتب، وبما أن الجميع أمام طريق مسدود فقد قرر العودة إلى بلاده، ووافق خورشيد باشا على رحيل محمد علي، ولماذا لا يوافق وهو الذي كان يتحرّق طويلاً إلى الخلاص من هذا المنافس الخطير؟

والحقيقة أن خورشيد باشا كان قد وقع في الفخ الذي نصبه له محمد علي، فما إن بدأ محمد علي في بيع أثاث منزله حتى انتشر الخبر في القاهرة، فكثر لغط الناس، وعمّ الاضطراب، وأغلقت المدينة أبوابها، وخرجت الجماهير إلى الشوارع والأسواق وهي تصخب، وعدّت رحيل محمد علي كارثة كبرى، وقلّ الربط والضبط في المدينة، وارتكب بعض الجنود كثيراً من

المخالفات، وظهر جلياً عجز خورشيد باشا عن السيطرة على جنوده، ولجأت الجماهير إلى العلماء والمشايخ، ومن أبرزهم الشيخ الشرقاوي وعمر مكرم نقيب الأشراف، تطلب بقاء محمد علي في مصر.

وفي اليوم التالي خرج محمد علي ماشياً في القاهرة على أقدامه، يحيط به عدد من الضباط والجنود الأرناؤوط، وراح يعمل لتهدئة الأهالي، وذكر لهم أنه لن يغادر القاهرة، ولن يتركهم للمحنة، وأمر بحبس جندي هنا وقتل جندي هناك، بسبب ما ارتكبوه من اعتداءات في اليوم السابق، وعاد الهدوء إلى القاهرة مرة أخرى، وظهر محمد علي أمام جماهير المصريين بأنه الشخص الذي يضحّي بمصالحه في سبيلهم وفي سبيل المصلحة العامة.

وازدادت ثقة الجماهير بمحمد علي.

ومن ناحية أخرى ازدادت الأمور العامة سوءاً، فقد عجز الوالي خورشيد باشا عن دفع رواتب الدلاة الذين استقدمهم، وكان هؤلاء يهبّون هبّات جنونية، فينزلون إلى شوارع القاهرة وأحيائها، يهاجمون البيوت، وينهبون ويسلبون، ويخطفون الأطفال والنساء، وذكر الجبرتي أنه لم ينج من أذاهم " إلا من تسلّق ونطّ على الحيطان ".

وتكررت وعود خورشيد للعلماء والمشايخ بإخراج الدلاة، وتهدئة الأمور، لكن وعوده كانت تذهب أدراج الرياح، فالدلاة يطالبونه برواتب ثلاثة أشهر، والخزينة فارغة، وكان محمد علي خلال ذلك مستمراً في الالتقاء بالقيادات الشعبية، ويضم صوته إلى صوتهم، ويعرض عليهم وساطته، وكان قد نجح في الوقت نفسه في ردع قوات الأرناؤوط من القيام بما يثير الأهالي، وكان يوظّف ثروته خير توظيف، فمن جانب كان يشتري به رضا جنوده، ومن جانب آخر كان يرسل الهدايا الثمينة إلى بعض كبار رجال الدولة في الأستانة، حسبما أفاد بعض قناصل الدول الأجنبية.

الكُرك . . والقاووق!

وفي الوقت الذي كان خورشيد باشا يرهق فيه كاهل الجماهير بالضرائب الثقيلة، ويعجز عن توفير الأمن لهم، كان محمد علي يتودّد إلى القادة الشعبيين، وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوي وعمر مكرم نقيب الأشراف، وعلم خورشيد باشا أنه لن يستطيع حكم مصر ما دام محمد علي وجنوده موجودين فيها، فسعى لدى الباب العالي لاستصدار فرمان (قرار) يقضي

بنقل محمد علي إلى ولاية أخرى، ونجح في ذلك، إذ وصل فرمان من الباب العالي يقضي بتعيين محمد علي حاكماً لمدينة جدّة في الحجاز، بغرض التصدي للحركة الوهابية.

غير أن محمد علي كان يعرف كيف يحوّل نجاحات أعدائه إلى إخفاقات، وهذه عبقرية بحد ذاتها، فها هو ذا قد أُلبِس الكُرُك (بالكردية: عباءة مبطّنة بالفرو) والقاووق (غطاء للرأس)، وكانا حينذاك من شارات الولاية، وها هو ذا قد أصبح والياً شأنه شأن خورشيد باشا، وأصبح له المقام نفسه، وعند عودته إلى داره في الأزبكية بالقاهرة نثر الذهب في طريقه على الأهالي، موحياً إليهم بأنه الوحيد القادر على إنقاذهم من الضائقة المالية التي يعانونها نتيجة سياسات خورشيد باشا الظالمة.

وحينما طلب الجنود من محمد علي دفع رواتبهم المتأخرة أحالهم إلى خورشيد باشا المسؤول عنهم، إذ إنه- محمد علي- لم يعد مسؤولاً عما يحدث في مصر، فازداد خوف الجنود من ضياع رواتبهم، وازداد ضجيجهم، وطالبوا برأس خورشيد باشا. وراح محمد علي يلاطفهم، وكان الحل الذي لجأ إليه خورشيد باشا هو أكثر إثارة للمشكلات، فقد أعلن النية عن فرض إتاوة على الأهالي لدفع رواتب الجنود، فثارت ثائرة الشعب في القاهرة، وانتشر الهياج في كل مكان، وأعلن الأهالي أنهم لن يدفعوا أية ضرائب جديدة.

وهكذا أُسقط في يد خورشيد باشا، ووجد نفسه بين نارين: نار الجنود من ناحية، ونار الأهالي من ناحية أخرى، وظلّت حوانيت القاهرة مقفلة، وظل الهياج قائماً، وزاد الطين بِلّة انتشار الأخبار بأن خورشيد باشا عجز عن إخراج الدلاة من البلاد، وأنهم قاموا بخطف بعض النساء والأولاد.

وعلى الجملة أصبح الموقف العام عصيباً جداً، ولم ير العلماء والمشايخ بداً من التدخل لحسم الأمر، فأمروا بإغلاق الحوانيت، والتجمهر في الشوارع، وارتفعت صيحات الاستنكار من كل جانب، واتصل المشايخ بخورشيد باشا، طالبين منه إخراج الدلاة من القاهرة.

وأصدر خورشيد الأوامر، لكن الجنود رفضوا التنفيذ.

وفي صبيحة يوم ١٢ أيار/مايو سنة (١٨٠٥ م) اتجه المشايخ والعلماء إلى دار المحكمة، وساروا في مظاهرة كبيرة ضمّت العامة والأطفال، وتجمهروا في فناء المحكمة، وراحوا يهتفون: " شرع الله بيننا وبين الباشا الظالم "، وكان بعضهم يهتف: " يا ربّ يا متجلّي، أهلك العثملّي "، ورفع المتظاهرون إلى خورشيد عريضة بمطالبهم، ودعا خورشيد باشا رؤساء

الحركة إلى الحضور لديه، وكان غرضه التخلص منهم، لكنهم لم يجيبوه إلى ذلك، وأصر الزعيم الشعبي عمر مكرم وسائر الزعماء على ضرورة خلع خورشيد باشا، وتعيين محمد علي والياً على مصر بدلاً منه، وذكروا لمحمد علي أنهم لا يريدون غيره والياً، " وتكون والياً علينا بشروطنا، لما نتوسّمه فيك من العدالة والخير ".

وامتنع محمد علي أول الأمر، ثم رضي بما قرره قادة الشعب، وقام إليه كل من الشيخ الشرقاوي وعمر مكرم، وألبساه الكُرْك والقَفْطان (نوع من الثياب)، شارتا الولاية، ونادوا بذلك في الشوارع، وأبلغوا خورشيد باشا بقرار عزله وتولية محمد علي مكانه، لكن خورشيد باشا رفض القرار ذاكراً أنه مولى السلطان، فلا يُعزل بأمر الفلاحين. وقرر المقاومة معتصماً بالقلعة.

ووجد محمد علي نفسه في موقف صعب فمن ناحية راسل خورشيد باشا الجنود الدلاة، وكانوا في قليوب (قرب القاهرة)، وطلب منهم العودة إلى القاهرة، لمساعدته في الحفاظ على السلطة، والقضاء على خطر الفلاحين. ومن ناحية أخرى كان المماليك يتربّصون به، وقد ينضمّون إلى صف خورشيد باشا، وهم قوة لها ثقلها في الصراعات، وعليه من ناحية ثالثة الفوز بموافقة الباب العالي.

وتحرك محمد علي لحسم الأمور على محورين:

- محور داخلي: تمثل بأن عهد إلى قادة الشعب أمر إقناع خورشيد باشا بترك العناد، وشجّعهم في الوقت نفسه على تطوير العصيان الشعبي، فقام عمر مكرم بتحريض الجماهير، وطوّق عدد كبير من أبناء القاهرة المسلحين القلعة، لمحاصرة خورشيد باشا ورجاله فيها، وانضمت إليهم قوات الأرناؤوط، وسرت روح الثورة في الأهالي، شيوخاً وأطفالاً، أغنياء وفقراء، " والكل بالأسلحة والعصيّ والنبابيت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات "إنها أجواء تذكّر إلى حدّ ما بالأجواء التي سادت في باريس أيام الثورة الفرنسية.
- محور خارجي: تمثّل في أن العلماء والمشايخ أرسلوا كتاباً إلى الباب العالي، يبررون فيه الخطوة التي اتخذوها ضد الوالي خورشيد باشا، ويرجون الموافقة على تعيين محمد علي والياً لمصر.

وأثمرت جهود محمد علي داخلياً وخارجياً.

ففي الداخل بدأت المفاوضات بين كبار الضباط في القلعة وبين قادة الحركة الشعبية، وتبلور من خلالها مبدأ جديد لاستلام السلطة في مصر، هو مبدأ اختيار الشعب للحاكم، وعزل من لا يرضونه من الحكّام، وفي هذا المبدأ أيضاً ما يوحي بمبادئ الثورة الفرنسية، وكانت النتيجة أن موقف خورشيد باشا في القلعة أصبح أكثر حرجاً، وذهبت مناوراته المتتالية لاستعادة السلطة هباء.

وفي الخارج وصل مندوب من الباب العالي إلى الإسكندرية، وكانت مهمّته إنهاء الانقسامات الداخلية، وأسرع محمد علي والعلماء والأعيان بإرسال وفد لاستقباله وحراسته على الطريق، ووصل المندوب إلى القاهرة يوم ٩ تموز/يوليو سنة (١٨٠٥ م)، وأعلن تعيين محمد علي باشا والياً على مصر، ابتداء من عشرين ربيع الأول (١٢٢٠ هـ)، الموافق ١٨ أيار/مايو (١٨٠٥ م).

وهكذا انتقل محمد علي خلال خمسة وثلاثين عاماً من صبي يتيم، لا حول له ولا قوة، إلى حاكم لدولة كبرى، تراكمت فيها أمجاد ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، تبدأ بالفراعنة، وتنتهي بالعثمانيين.

مزايا .. وبلايا

والسلطة ليست نعمة فقط، وإنما هي نقمة أيضاً، وصحيح أنها تجلب للمرء كثيراً من المزايا وتضع بين يديه كثيراً من السلطات، لكنها تجر عليه، في الوقت نفسه، كثيراً من المتاعب، وتتفاقم بعضها فتغدو بلايا.

وهذا ما حدث لمحمد علي باشا، فالرجل قد استلم بلداً كبير المساحة، وفير السكان، لكن بخزينة شبه فارغة، وله فيه منافسون خطيرون، كم أن مصر كانت تعج بآلاف الجنود المرتزقة الباحثين عن الرواتب قبل كل شيء، وفيها مغامرون لهم تاريخ عريق في حبك الدسائس، وتدبير الاغتيالات، بغية الوصول إلى السلطة، وفي مقدمتهم المماليك، ثم إن مصر كانت بلداً زراعياً من النمط شبه البدائي، وتسود فيها الأمية، وكان بينها وبين الحداثة بون شاسع.

هذا عدا أن لمصر موقعها الجيوسياسي الهام منذ عهود الفراعنة، وما من غاز قادم من الشرق أو من الغرب إلا حدّثته نفسه بالسيطرة عليها، بل سيطر عليها بعضهم فعلاً، وكان الإنكليز والفرنسيون أبرز من حرص على ذلك في العصر الحديث، ثم إن مصر كانت تنضوي

تحت لواء الدولة العثمانية، ومحمد علي هو حاكم عليها بموافقة الباب العالي، ولا بد أن تكون سياساته متّسقة مع سياسات الدولة العثمانية، وبما يتوافق مع تعقيدات (المسألة الشرقية).

وكانت العقبة الأولى التي واجهها محمد علي هي محاولة عزله عن حكم مصر، ففي ربيع الآخر من سنة (١٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ م) وصلت عمارة عثمانية إلى ميناء الإسكندرية، تحمل أمير البحر التركي، ومعه موسى باشا والي سالونيك، يحمل فرماناً يقضي بتعيينه والياً على مصر بدلاً من محمد علي، وتعيين محمد علي والياً على سالونيك.

وتظاهر محمد بطاعة أوامر الباب العالي، وبأنه يغادر مصر فوراً، لكنه لجأ إلى سلاحه الأقوى، أقصد قادة الشعب من العلماء والأعيان، فاجتمع بهم، وأبلغهم الأمر، فكتبوا رسالة إلى السلطان، يلتمسون فيها بقاء محمد علي والياً على مصر، وكلّفوا إبراهيم بن محمد علي بنقل الرسالة إلى الباب العالي، وقدّم إبراهيم الرسالة إلى الجهات المختصة بمساعدة سفير فرنسا في الأستانة، وصدر فرمان جديد من الباب العالي بتثبيت محمد علي في منصب والي مصر.

ومرت هذه الزوبعة بسلام.

وجاءت العقبة الثانية من المماليك، إذ راح كل من عثمان البَرْدِيسي ومحمد الألْفي، وهما من كبار قادة المماليك، يناوشان محمد علي، ويناصبانه العداء، ويفسدان الأمور، فتوفي الألفي سنة (١٨٠٧ م)، وقضى محمد علي على البَرْدِيسي سنة (١٨٠٨ م)، فتفرق أتباعهما في البلاد بلا قيادة تجمعهم.

ومرت الزوبعة الثانية بسلام.

وجاءت العقبة الثالثة من الإنكليز، فقد رأى هؤلاء أن في بقاء محمد علي حاكماً لمصر مساساً بمصالحهم، ويبدو أن ميول محمد علي كانت مع فرنسا، ودليل ذلك أن قنصل فرنسا في الأستانة هو الذي ساعد إبراهيم بن محمد علي في إيصال رسالة العلماء والأعيان المصريين إلى الباب العالي.

وجرّد الإنكليز حملة ضد محمد علي، لكن الجنود الأرناؤوط ألحقوا الهزيمة بتلك الحملة، ثم جرت مفاوضات بين محمد علي والجنرال فريزر، وعقدت إنكلترا معاهدة صلح مع مصر، تم بموجبها انسحاب الإنكليز عن مصر، وكان من نتائج فشل الحملة الإنكليزية أن الباب العالي رضي عن محمد علي، ومنحه السلطان مصطفى الرابع خلعة وسيف شرف.

ومرت الزوبعة الثالثة بسلام.

وفي سنة (١٨٠٩ م) تولى السلطان محمود الثاني عرش السلطنة، فكسب محمد علي رضاه، وضمّ الإسكندرية إلى ولايته، ولم يكن الباب العالي يجود بالإنعام على محمد علي عبثاً، وإنما لأنه كان يجد فيه الوالي القوي القادر على ترسيخ سلطة العثمانيين في مصر وخارج مصر.

حروب محمد علي

وأول مهمة كُلّف بها محمد علي هي قمع الحركة الوهّابية، وكانت نجد مركز الوهّابيين، ثم سيطروا على شبه الجزيرة العربية، ووصلت جيوشهم في الشمال إلى جنوبي سوريا، وفي الجنوب إلى بحر العرب، وفي الشرق إلى الخليج العربي (الفارسي)، وفي الغرب إلى البحر الأحمر.

وصدع محمد علي بالأمر، وشكّل جيشاً من ثمانية آلاف مقاتل، يقودهم ابنه توسون باشا، ويبدو أن معلومات وصلته بأن المماليك ينتظرون توجه الجيش إلى بلاد العرب، ليتقضّوا عليه وعلى من تبقي من رجاله، وقرّر محمد علي اقتلاع الشوكة المملوكية من الجذور، والقضاء عليهم قضاء مبرماً، وعلمنا سابقاً أن الباب العالي كان يعمل في الاتجاه نفسه.

ودعا محمد علي قادة المماليك في مصر إلى حضور الاحتفال بوداع ابنه توسون باشا، فجاءت وفودهم إلى القلعة، يتقدّمهم زعيمهم شاهين بك (شركسي الأصل)، وسار موكب المماليك محاطاً بالمشاة والفرسان، ولما وصل المماليك إلى باب القلعة أمر محمد علي بالأبواب فأُغلقت، ثم أشار إلى جماعة من أخصّائه الأرناؤوط، فهجموا على المماليك، وحكّموا السيوف في رقابهم، وأمطروهم بالرصاص، فقُتلوا جميعاً، وكان عددهم أربعمئة، ولم ينج منهم إلا أحمد بك وأمين بك، ثم أمر محمد علي بتتبّع المماليك في مصر، والقضاء عليهم، وكان ذلك سنة (١٢٢٦ هـ/ ١٨١١ م).

وبالقضاء على المماليك تخلّص محمد علي من أكثر الخصوم شراسة ودهاء وعناداً، وسمّى المؤرخون هذه الحادثة باسم (مذبحة القلعة)، وكان جد الأسرة التيمورية الكردية من أكبر معاوني محمد علي في تدبير تلك المذبحة، وكأنما كان القائدان الكرديان ينتقمان من المماليك، لما أنزله أجدادهم بالمعظّم تورَان شاه، آخر سلاطين الأيوبيين، من تنكيل وقتل.

وإن مذبحة القلعة تذكّرني بالمذبحة التي أقامها كي خسرو الميدي لقادة الغزاة السكيث، في القرن السابع قبل الميلاد، إذ دعاهم إلى حفل فخم عامر بالأطعمة والأشربة، تماماً مثل حفلة

القلعة في القاهرة، واستطاع بعدئذ التفرّغ لمحاربة الإمبراطورية الآشورية، والقضاء عليها قضاء مبرماً.

وبعد الفراغ من أمر المماليك توجّه توسون باشا بجيشه إلى بلاد العرب، وبدّد شمل الوهّابيين، لكن أعاد الوهابيون الكرّة على جيشه، وألحقوا به خسائر فادحة، فتوجّه محمد علي بنفسه إلى بلاد الحجاز بجيش يتألف من عشرة آلاف مقاتل، وطرد الوهابيين من المدينة المنورة ومكة وجدّة، وأرسل إلى السلطان محمود الثاني مفاتيح الكعبة في صينية من الذهب الخالص مرصّعة بالحجارة الكريمة مع ابنه الأمير إسماعيل في سنة (١٨١٣ م).

وأعلن الوهابيون العصيان ثانية، فكلف محمد علي ابنه إبراهيم باشا بقيادة حملة جديدة على الوهابيين، وكان يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، فانطلق من القاهرة سنة (١٨١٦ م)، وانتصر على الوهابيين، وقبض على زعيمهم الأمير عبد الله، وأتى به إلى مصر سنة (١٨١٩ م).

كما أن محمد علي قرر فتح السودان، وحاربت جيوشه في بلاد الجنوب (١٨٢٠ — ١٨٢٢ م)، وفي بلاد النوبة ودنقلة، وسيطر على البلاد الواقعة بين عطبرة والبحر الأحمر، واستتب له الأمر في السودان.

واستنجد السلطان العثماني محمود الثاني بمحمد علي لقمع ثورات جزر بلاد اليونان، فأقلع الأسطول المصري من الإسكندرية سنة (١٨٢١ م)، واشتبك مع السفن اليونانية، فأغرق منها ستاً وأربعين سفينة، وأسر ثلاثين سفينة، وكانت خسارة الأسطول المصري خمس سفن، واحتل الجيش المصري جزيرة رودس، وفي سنة (١٨٢٢ م) أخمد ثورة قبرص، وكان السلطان قد أصدر فرماناً بتعيين محمد علي حاكماً عليها إضافة إلى مصر، كما استنجد به لقمع ثورة جزيرة كريت، وأعاد محمد علي الأمن إلى الجزر الثلاث رودس وقبرص وكريت.

وفي سنة (١٨٢٤ م) أصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بتعيين محمد علي والياً على بلاد المُورة (اليونان)، بغرض القضاء على ثورات اليونانيين ضد الحكم العثماني، ، فجهز محمد علي حملة مؤلفة من ثمانية عشر ألف جندي، ومئة وخمسين مدفعاً، وذخائر كثيرة، تنقلهم مئة سفينة، وتحرسها ثلاث وستون سفينة حربية، وأتبعها سنة (١٨٢٦ م) بنجدة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، واثنتين وتسعين سفينة، منها إحدى وتسعون سفينة حربية.

وأصدر السلطان فرماناً بتعيين إبراهيم باشا قائداً عاماً للأسطولين العثماني والمصري، وحقق إبراهيم باشا عدة انتصارات على اليونان، وحاصر أثينا سنة (١٨٢٧ م)، فاستسلمت له، وسرعان ما تدخلت روسيا وإنكلترا وفرنسا ضد إبراهيم باشا، ودارت معركة حربية بحرية بين الجانبين في نافارين (نوفارين) وأغرق الأسطول المصري، واضطر إبراهيم باشا إلى الجلاء.

كما توجّه محمد علي بفتوحاته شمالاً نحو بلاد الشام، وفي سنة (١٨٣٢ م) سقطت عكا في يدي ابنه إبراهيم باشا، ثم خاض محمد علي الصراع ضد العثمانيين أنفسهم، وحقق ابنه إبراهيم باشا انتصاراً على الأتراك في معركة حمص سنة (١٨٣٣ م)، ثم اتجه شمالاً نحو حماه فحلب لمطاردة القوات التركية، وانتصر على الجيش التركي في معركة بيلان سنة ١٨٣٢ م، فتراجع الجيش التركي إلى قونية، فتقدم إبراهيم باشا بجيشه نحو قونية سنة (١٨٣٢ م) وألحق الهزيمة بالجيش التركي هناك أيضاً

وبعد معركة قونية، وهزيمة الجيش التركي، عُقدت اتفاقية كوتاهية بين الطرفين، في سنة (١٨٣٣ م)، وتم بموجبها تولية محمد علي على مصر والحجاز وكريت، وتولى ابنه إبراهيم باشا عكا ودمشق وطرابلس وحلب، وحاولت تركيا خلال ذلك تقوية جيشها، وقررت الحكومة المصرية الاستقلال عن الدولة العثمانية، وقرر الباب العالي إعداد جيش قوي بقيادة حافظ باشا لمحاربة محمد علي.

وكان الجيش التركي مؤلفاً من ثمانين ألف مقاتل، وثلاثمئة مدفع، وكانت القوات المصرية مؤلفة من خمسين ألف مقاتل، و١٦٢ مدفعاً، وانضم إليه ثمانية آلاف مقاتل غير نظامي، و٢٥ ألف من البدو، و١٦٠٠٠ ماروني، وكان ذلك في أواخر سنة (١٨٣٩ م)، ودارت المعركة قرب نصيبين في كردستان الشمالية، وبعد كر وفر، ألحق الجيش المصري الهزيمة بالجيش العثماني.

واستولى الجيش المصري على مقر القائد التركي حافظ باشا، بكامل معداته، كما استولى على (١٤٠) مدفعاً تركياً بذخائرها، وعلى ألفي بندقية، وعلى خزينة حافظ باشا، والأوراق والخطط والأوسمة، وبلغت خسائر الجيش المصري (٣٠٠٠) فقط بين قتيل وجريح، وجدير بالذكر أن الزعيم الكردي الأمير بدرخان بك كان يتهيّأ للثورة ضد الحكم العثماني حينذاك، وكان ثمة تنسيق بينه وبين إبراهيم باشا في هذا الميدان.

ومن نتائج تلك المعركة أن الطريق إلى إستانبول أصبحت مفتوحة أمام إبراهيم باشا، وقام أمير البحر التركي أحمد فوزي باشا بتسليم الأسطول العثماني إلى الحكومة المصرية.

لكن سرعان ما تدخلت روسيا وبريطانيا وفرنسا لحماية الباب العالي، فهدّدت محمد علي بالقضاء المبرم على سلطته في مصر ما لم يكفّ عن تهديده للدولة العثمانية، وجردته من ممتلكاته في بلاد الشام، وألزمته بنسبة محددة وقليلة من القوات العسكرية، وجعلت له حكم مصر حكماً ذاتياً، على أن تكون من بعده لأكبر أولاده سناً.

إنجازات حضارية

لا شك أن محمد علي باشا هو باني مصر الحديثة، وصانع مجدها، وهو الحاكم الذي انتقل بها من العصور الوسطى إلى عصر الحداثة، وخرج بها من الفوضى والاضطراب، ووصل بها إلى مصاف الدول العظمى في ذلك الوقت، ويقول كلوت باشا، وقد عاصر محمد علي، وأشرف على إصلاحاته في مجال التعليم الطبي والصحة العامة:

" لست أدعو أحداً إلى اعتبار والي مصر واحداً من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وإنه مع كونه لم يعلم شيئاً من شئون الأمة التي ظهر بينها أمره، ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل، قد سلك مسلكاً مبنياً على الحذق وحسن التدبير، رام به الاستيلاء على زمام الحكم أولاً، ثم الاحتفاظ به بعد ذلك ".

وأدرك محمد علي بفكره الثاقب أن نهضة مصر لن تتحقق إلا بسواعد أبنائها، وأن جيش مصر يجب أن يكون مصرياً، فعمد إلى تكوين جيش جديد يقوم على تجنيد المصريين، ويتّبع أحدث الأساليب الأوربية، ويتزوّد بأحدث الأسلحة، وهو ما عرف باسم (النظام الجديد)، فلم يتحمس رجال الدين لإصلاحاته، بل رفضوها، وسخروا منها، واتهموا (النظام الجديد) بأنه بدعة، مرددين الحديث النبوي: " كل مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"، ونفر الأهالي من النظام العسكري الجديد، وأطلقوا على محمد علي لقب (باشا النصارى) لاستخدامه معلمين أوربيين في تشكيلات الجيش المصري.

لكن محمد علي لم يعبأ بالعوائق التي اعترضت طريق مشروعه التحديثي، وسار به أشواطاً إلى الأمام، مقتنعاً أنه لا بد من الاطلاع على التقدم العلمي في أوربا، والإفادة منه، يقول د. أنور عبد الملك:

"بقي مع ذلك أن محمد علي هو أول حاكم أو رئيس دولة شرقي يواجه، بطريقة حازمة، متطلبات التحديث. إن عبد الرحمن الرافعي، وهو عدو معروف للأسرة المالكة السابقة، يرى هذا الرأي، ويتحدّث عنه واصفاً إياه بالعبقرية".

واهتم محمد علي بإرسال البعثات التعليمية إلى دول الغرب، وقد مر أنه استلم السلطة سنة (١٨٠٥ م)، وفي سنة (١٨٠٩ م) أرسل البعثة الأولى إلى إيطاليا، لدراسة العلوم العسكرية، وبناء السفن، ولتعلم الطباعة وفنون الهندسة.

وبدءاً من سنة (١٨٢٦ م) قام محمد علي بإرسال البعثات إلى فرنسا، وأشهرها البعثة التي شارك فيها الطالب الأزهري الشيخ رفاعة الطهطاوي، وكانت تضم (٤٤) طالباً، درس ستة منهم القانون والإدارة وعلم السياسة، وتخصص الآخرون في علوم الحرب والهندسة. وبين عامي (١٨٢٨ – ١٨٣٦ م) أوفد محمد علي (١٠٨) من الطلبة إلى كل من بريطانيا والنمسا وفرنسا، ووزعهم على تخصصات الصناعة، والبحرية، والعلوم، والطب.

وجدير بالذكر أن محمد علي كان أمياً، ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين من العمر، وكان حريصاً على قراءة الأخبار والوثائق، واهتم في الوقت نفسه بتشجيع عملية الترجمة، و ذكر كلوت بك أنه كان يشدد على المترجمين بالعناية في نقل ما تكتبه الصحف إليه، وأنه كثيراً ما يقرأها بنفسه، وذكر كلوت بك أيضاً أن محمد علي أمر بترجمة عدد كبير من المؤلفات التي قامت (جمعية نشر الثقافة النافعة) بطباعتها.

ولم تقتصر إنجازات محمد علي على هذه الميادين العلمية فقط، مع أنها بالغة الأهمية، وإنما بُني في عهده كثير من القلاع والحصون والأبراج، والقصور والعمارات الفخمة، والمساجد، والقناطر، وبنى دار الضرب (السكّ) لصناعة النقود، وتسمى (ضربخانه)، ودار المحفوظات (دفتر خانه)، وأقام مصانع الغزل والنسيج.

وقبل عهد محمد علي كانت الصناعة في مصر مقتصرة على نسج الكتّان والصوف والنجارة والسبك وصناعة الحصر وغيرها، فلما تولّى حكم البلاد جمع أرباب الصنائع في القلعة سنة (١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م)، وجمع لهم ما في المخازن من الخشب والحديد، فشرعوا في صنع آلات الحرب وصب المدافع وما يلزمها من العجلات والعربات، واستعداداً لإنشاء المصانع الحديثة أوفد عدداً من الصنّاع والفنيين المهرة إلى أوربا، لإتقان الصناعات، كي يحلّوا محل العمال الأجانب، واستقدم العمال المهرة من فلورنسا وايطاليا.

وأنشأ محمد علي بعد عام (١٨٢٧ م) في القسم الجنوبي من قلعة القاهرة، مقر السلطة، دار صناعة كبرى، تضم مصانع متنوعة، أهمها مصانع الأسلحة والذخيرة، وطرق النحاس، وصب المدافع، والسيوف والرماح والسروج واللجم، وصناديق الذخيرة، وغيرها.

أقوال.. وشهادات

للشخصيات المشهورة في تاريخ الشعوب طابع إشكالي، وتختلف الآراء والأقوال فيهم بحسب زاوية النظر إلى إنجازاتهم وممارساتهم، وقلنا في صفحات سابقة: إن من غير الصواب إضفاء القدسية على غير المقدس، ومن غير الصواب أيضاً تناول الحدث التاريخي من منظور خرافي أسطوري.

وهذا ما ينبغي أن ننتبه له في حديثنا عن شخصية محمد علي، فهو لاعب قدير في ميدان فن المغالبة، بل هو ابن عصر المغالبة بجدارة فائقة، فقد استطاع، بفضل عبقريته وكفاءته أن يتحول من صبي يتيم مشرد، إلى مقارع لاثنتين من أكبر إمبراطوريات القرن التاسع عشر: الإمبراطورية العثمانية في الشرق والإمبراطورية الإنكليزية في الغرب، وهذا في حد ذاته أمر يثير الإعجاب.

وما كان لمحمد علي أن يحقق ما حقق لولا تميّزه بقدر كبير من الدهاء والحنكة، ولولا مهارته في إحباط الدسائس، ونصب الفخاخ السياسية والحربية، وأيضاً لولا قدرته على اتخاذ القرارات الصارمة بالبطش والتنكيل حينما يقتضي الأمر ذلك، وهذا ما فعله مع المماليك أعدى أعدائه.

ولكن عندما يلقي المرء نظرة عامة على سيرة هذا الرجل يجد أنه كان شخصية متميّزة حقاً، وكان متصفاً بخصال قيادية وإنسانية رفيعة، وإذا كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي- وهو أزهري معاصر لمحمد علي- قد نقم في كتابه (تاريخ عجائب الآثار) على محمد علي، لقيامه بتحديث المجتمع المصري، ولقضائه على المماليك، ويسميهم (المصريين)، فإن شيخاً أزهرياً آخر لم يبخس محمد علي حقه، وتفهّم أهمية إصلاحاته، وهو الشيخ خليل بن أحمد الرجبي، وكان معاصراً لمحمد علي أيضاً.

ونستعرض فيما يأتي بعض شهادات الرجبي في خصال محمد علي.

- " فمنها أنه مع عظيم جلالته، وكبير همته، وشدة قوته، لطيف الألفاظ، ... بحيث إنه لا يخاطب الكبير والصغير ولا الجليل ولا الحقير، إلا بألطف عبارة، وحسن انسجام، مع تنزّه خطابه عن الصعوبة على الدوام ".

- " ومن أخلاقه العظيمة كثرة العفو عن المذنبين، وتجاوزه إساءة المسيئين، ولو أردت عدد الأشخاص ممن حصل له ذلك لأجهدت الأنفاس، وملأت القرطاس، ولا سيما من كانوا متصفين بعداوته، ومتوسمين بمخالفته، فإنهم لما التجأوا إليه سامحهم من زلاتهم، وستر عنهم عورات جناياتهم، وأعطاهم الأموال الجزيلة، وفرض لهم العلوفات ﴿الرواتب﴾ الجليلة، وملّكهم المنازل، ورتّب لكل شخص خرجاً يكفيه، حتى صاروا له من أعظم المحبين "

- " ومن أخلاقه الجليلة فرضه للفقرا جميعاً من العرب والأتراك وغيرهم من المساكين بمصر في كل جمعة وشهر دراهم ودنانير جزيلة يأخذها مشايخهم ونقباؤهم، ويفرقونها عليهم أجمعين، بحسب حالهم واختلاف مراتبهم في الضعف والمسكنة، فيأخذ كل شخص منهم قسمه ونصيبه، فينفقه على نفسه وأهله، وهذه حالة عظيمة وخلق شريف، ... "

- " ومن أخلاقه الجميلة ترتيبه في كل عام للأيتام الذي يقرؤون القرآن في المكاتب، وللأولاد الصغار من أولاد الفقراء وذراري الضعفاء الدراهم والدنانير، يفرقها عليهم جميعاً، فيحصل لهم الفرح الزايد، ويعمهم السرور المتزايد، وكذلك يفعل مع فقهائهم وعرفائهم "

- " ومن أخلاقه الغريبة الحسنة الجميلة العظيمة أنه- أبقاه الله- متى بلغه ووصل إلى علمه شيء فيه بعض أضرار على أحد من الرعية- كائناً من كان- لا بد له جزماً من إزالته والتأمل فيما يصلحه، ولا يرضى بإبقاء ذلك قولاً واحداً ".

- " من أخلاقه الجليلة الجميلة التي تميّز بها عن كثير من الأمراء والملوك والوزراء عدم محبته لسفك الدماء، فإنه لا يرغب في ذلك أصلاً، بل يعفو ويصفح، ولا يقع منه ذلك إلا لمن كان مستحقاً لذلك المعنى".

- " ومن أخلاقه الشريفة التي انفرد بها عدم تمكينه أحداً من الظلم للناس في مصر وسائر أقطارها، ولا يرضى لأحد من الحكام في مصر، ولا في أقاليمها وبلادها وقراها، أن يظلم أحداً من التجار، ولا من المزارعين، ولا من أحد من الفلاحين، بحيث إنه إذا بلغه أن أحداً وقع منه ذلك عزله حالاً ، وعاقبه بما يراه لأمثاله...، وكان يرسل أشخاصاً لسؤال

الناس عن رأيهم في سلوك الحكام من حيث الظلم والرشاوى، فامتنع الحكام عن ظلم الشعب، كما خصص لكل حاكم راتباً شهرياً كافياً، فكفوا عن أخذ أموال الناس ظلماً ".

- **" ومن أخلاقه اللطيفة أنه لا يولّي منصباً ولا حكماً لأحد في كل نوع من أنواع المصالح والخدم إلا بعد معرفة حاله وضبطه، وأنه يصلح لمثل هذا المنصب، ويسأل عنه وعن أحواله وكيفية صنيعه ".**
- **" ومن أخلاقه الجليلة أنه في كل حين من الشهور يرسل للحكام، ويأمرهم بالحضور بين يديه، ويسألهم عن البلاد وأحوالها، وعن المزارعين، ويشير عليهم بما فيه النفع للعامة والخاصة، ويرجعون ممتثلين لأوامره ".**

وتوضيحاً للحقيقة نقول:

إن الرجبي ألف كتابه هذا بطلب من شيخ الأزهر الشيخ محمد العروسي، وكانت علاقات العروسي بمحمد علي طيبة، ولنفرض أن نصف ما قاله الرجبي هو إطراء فارغ، فماذا نفعل بالنصف الآخر من الخصال التي أوردها الرجبي لمحمد علي؟! بل كيف لنا أن نفسر نجاح محمد علي في بناء دولة مصرية حديثة مستقرة ومزدهرة، لولا تميّزه ببعض هذه الخصال على أقل تقدير، ولا سيما على الصعيد القيادي والإداري؟!

— — — —

وظل محمد علي باشا يدير أمور الحكم في مصر بحكمة واقتدار، ويعمل بإخلاص لتطويرها في مختلف الميادين، والانتقال بها إلى مصافّ الدول المتقدمة، ومن يقرأ تاريخ مصر في عهده يدرك أهمية ما أنجزه هذا الرجل، ليس للشعب المصري فقط، وإنما لشعوب شرقي المتوسط جميعاً.

كما أن الحاكم المتنوّر محمد علي لم يكن متعصّباً لدين، ولا متحيّزاً لمذهب، وقد وفّر للأقباط المسيحيين- سكان مصر الأصليين- فرصاً أكبر للحياة بأمن وكرامة، وأتاح لهم المساهمة في بناء مصر الحديثة، وكذلك كانت سياسات أبنائه وأحفاده من بعده، وتلك هي السمة الغالبة على سياسات القادة الكرد ورؤيتهم في السلطة بشكل عام.

وأخيراً فعلت السنون فعلها، وتقدّم العمر بمحمد علي باشا، وأصيب بضعف في قواه العقلية، فتنازل عن الحكم لابنه إبراهيم باشا سنة (١٨٤٧ م)، وعاش حياة هادئة إلى أن توفي سنة (١٨٤٩ م)، بعد أن ترك لأبنائه وأحفاده دولة ذات شأن، وظل أحفاده يحكمون مصر إلى سنة (١٩٥٢ م).

المراجع

١. الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن): تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء ٣، ص ٥٩ وما بعدها.

٢. دكتور جلال يحيى: مصر الحديثة (١٥١٧ – ١٨٠٥ م)، ص ٥٥٢ وما بعدها.

٣. حسن الضيقة: دولة محمد علي والغرب (الاستحواذ والاستقلال)، ص ١٠٥ – ١٢٢، ١٤٢ – ١٧٨

٤. الشيخ خليل بن أحمد الرجبـي: تاريخ الوزير محمد علي باشا، ص ٨٣- ٩٠

٥. زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، ص ٢٣ – ٣٩.

٦. دكتور محمود عباس أحمد عبد الرحمن: معالم مصر الحديثة والمعاصرة، ص ٨٢ – ١٠٢.

٧. نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيّا الحكومة والحكّام في إقليمي مصر وبر الشام، ص ٢٩٤ – ٣٠٠.

<u>وانظر</u>:

- يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب.

فهرس المصادر والمراجع

١. الدكتور إبراهيم رزق الله أيوب: التاريخ الفاطمي السياسي، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢. الإتليدي (محمد بن دياب): نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، تحقيق أيمن عبد الجبار البحيري، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٣. ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد):

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، بغداد، ١٩٦٣م.

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٤. الدكتور إحسان يار شاطر: الأساطير الإيرانية القديمة، ترجمة محمد صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥. أحمد بن إبراهيم الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٩٩٦م.

٦. الدكتور أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، دار هيرو للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م.

٧. أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦م.

٨. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ترجمة الدكتور أحمد الخليل، دار هيرو للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

٩. أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.

١٠. ألبير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

١١. أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ؟ تعريب توفيق سليمان، علي أبو عساف، قاسم طوير، ١٩٥٠م.

١٢. الباخرزي: دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق سامي مكي العاني، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١م.
١٣. البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
١٤. البُنداري (الفتح بن علي): سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩ م.
١٥. ابن تَغْري بَرْدي (جمال الدين يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م. وطبعة مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥م.
١٦. الجاجرمي (المؤيّد بن محمد): نكت الوزراء، تحقيق عبد المنعم داود، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٧. الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن): تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م، الجزء ٣.
١٨. ابن جُبير الأندلسي(محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤م.
١٩. ت دكتور جلال يحيى: مصر الحديثة (١٥١٧ — ١٨٠٥ م)، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
٢٠. جمال رشيد أحمد: لقاء الأسلاف، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
٢١. الجَهشياري (محمد بن عبدوس): كتاب الوزراء والكتّاب، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٨٠م.
٢٢. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
٢٣. جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٥م.

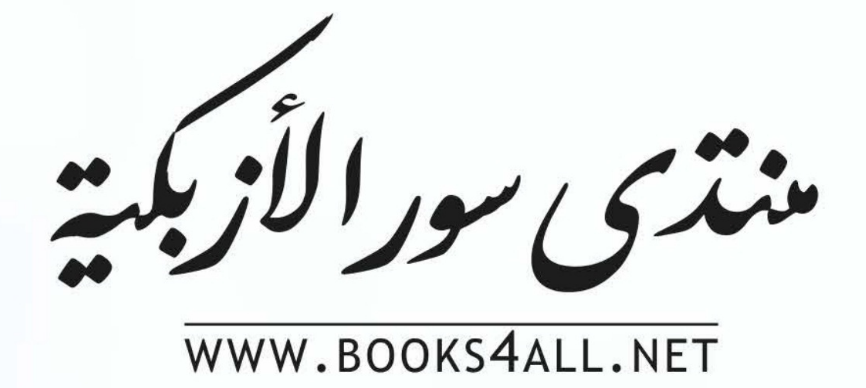
٢٤. الدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (العصر العباسي الأول)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٧٢م.
٢٥. حسن ذكرى حسن: البرامكة وأثرهم في الأدب في عصر العباسيين، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٨٠م.
٢٦. حسن الضيقة: دولة محمد علي والغرب (الاستحواذ والاستقلال)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
٢٧. ابن حوقل (محمد بن حوقل النصيبي): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.
٢٨. ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م. وطبعة دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م.
٢٩. ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م. وطبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
٣٠. الشيخ خليل بن أحمد الرجبي: تاريخ الوزير محمد علي باشا، تحقيق وتعليق ودراسة د. دانيال كريسيليوس، ود. حمزة عبد العزيز بدر، ود. محمد حسام الدين إسماعيل، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٣١. خير الدين الزركلي: معجم الأعلام، دار صادر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٧م، وطبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٩٠م.
٣٢. دياكونوف: ميديا، ترجمة وهبية شوكت، دمشق.
٣٣. الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد):
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، تحقيق محمد محمود حمدان، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٥م.
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
٣٤. ر. سي. سميل: الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

٣٥. رنيه گروسية: الحروب الصليبية، ترجمة أحمد إيبش، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.
٣٦. سامي سعيد الأسعد، ورضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم، إيران والأناضول، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق.
٣٧. ابن سباط: تاريخ ابن سباط، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار جروس برس، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
٣٨. ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
٣٩. زكي فهمي: صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر، مكتبة مدبولي، ١٩٩٥م.
٤٠. الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
٤١. الدكتور السيد عبد العزيز سالم، الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٣ م.
٤٢. أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل):
- عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة ١٩٩١م، وطبعة ١٩٩٢م.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.
٤٣. شاهين مكاريوس: تاريخ إيران، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
٤٤. ابن شدّاد (بهاء الدين يوسف بن رافعي): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيّال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.
٤٥. ابن طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
٤٦. الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩م.

٤٧. طه باقر، فوزي رشيد، رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩م.
٤٨. عباس إقبال الآشتياني: تاريخ إيران من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ترجمة الدكتور محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.
٤٩. عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي: نزهة الأساطين في من ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى.
٥٠. عبد الرقيب يوسف: الدولة الدوستكية في كردستان الوسطى، مطبعة اللواء، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
٥١. الدكتور عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
٥٢. الدكتور عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية (التاريخ السياسي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
٥٣. ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م، وطبعة ١٩٧٠م.
٥٤. الفارقي (أحمد بن يوسف): تاريخ الفارقي، تحقيق الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.
٥٥. ابن كَثير الدمشقي (إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٦٥م.
٥٦. ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين، الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة محرّم كمال، المطبعة النموذجية.
٥٧. الدكتور محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.
٥٨. محمد بن أبي السرور البكري الصدّيقي: المنح الربانية في الدولة العثمانية، تحقيق الدكتورة ليلى الصبّاغ، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.
٥٩. الدكتور محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٦٠. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
٦١. دكتور محمود عباس أحمد عبد الرحمن: معالم مصر الحديثة والمعاصرة، الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦ م.
٦٢. المرتضى الزبيدي: ترويح القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩م.
٦٣. المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٦م. وطبعة نشرها محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، الجزء الأول، القسم الأول.
٦٤. ميرسيا إيلياد: طقوس التنسيب والولادة الصوفية، ترجمة حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م.
٦٥. نوفل نعمة الله نوفل: كشف اللثام عن محيّا الحكومة والحكّام في إقليمي مصر وبر الشام، أوجزه جرجي ينّي، تحقيق ميشال أبي فاضل، د. جان نخول، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.
٦٦. هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٦٧. الهمذاني (ابن الفقيه أحمد بن محمد): كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٦٨. هوتسما وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م.
٦٩. هولو جودت فرج: البرامكة سلبياتهم وإيجابياتهم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م.
٧٠. ابن أبي الهيجاء الإربلي (عز الدين محمد): تاريخ ابن أبي الهيجاء، تحقيق ودراسة الدكتور صبحي عبد المنعم محمد، رياض الصالحين للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
٧١. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

٧٢. ابن واصل: مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، المجمّع الثقافي، أبو ظبـي.
٧٣. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب محفوظ، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣، وطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٨٥م.
٧٤. وليم الصوري: الحروب الصليبية (١٠٩٤-١١٨٤)، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.
٧٥. ياقوت الحموي:
- معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٣٦م. وطبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
٧٦. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، منشورات فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٨٨م.
٧٧. يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، دراسة وتحقيق عماد أحمد هلال وعبد الرزاق عبد الرزاق عيسى، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

GewrePîyawanî Kurdistan
Le Serkirdayetî û Sîyasetda



Dr. Ehmed El_Xelîl



دەزگای توێژینەوەو بڵاوکردنەوەی موکریانی
MUKIRYANI ESTABLISHMENT FOR RESEARCH & PUBLICATION
www.mukiryani.com